

استنوار أفهامنا



الجزء الثاني

الجزء الثاني

عبد السلام ياسين

تنوير المؤمنات

الجزء الثانى

تأليف

عبد السلام ياسين

حقوق الطبع محفوظة

- ❑ الكتاب : تنوير المؤمنات (الجزء الثاني)
- ❑ الكاتب : عبد السلام ياسين
- ❑ الطبعة : الأولى في مصر
- ❑ الناشر : دار البشير للثقافة والعلوم - طنطا - مصر .
- ❑ التوزيع : دار البشير - طنطا - أمام كلية التربية النوعية ت : 322404 فاكس : 228277
- ❑ التجهيز الفني : شركة الندى للتجهيزات الفنية - المحلة الكبرى ص . ب 265
- ❑ الإيداع القانوني :
- ❑ الترفيع الدولي :

خطبة الكتاب

الحمد لله نور السماوات والأرض لم يتخذ صاحبة ولا ولدا ، خلقنا سبحانه من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء زيادة في الخلق ومددا
أشهد أنه الله لا إله إلا هو الملك الوهاب ، ذو الطول شديد العقاب ، أنذر الخلق
وبشر وأهاب ، حيث قال في محكم الكتاب : ﴿ من عمل سيئة فلا يجزى إلا مثلها
ومن عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها
بغير حساب ﴾ (١) .

أحمده حمد عبد بادي العجز والكلال ، وأسترحه واقفا بباب الكرم والنوال ،
وأخأ إليه مستشفعا بحبيبه محمد سيد ولد آدم في يوم لا بيع فيه ولا خيال ، وأستغفره
من رديء الخلق وسيئ الأعمال ، وأعبدته حزينا على تقصيري والإهمال ، وأستعينه
ليهدينا صراط الذين أنعم عليهم من المقربين أهل الكمال .

وأصلي وأسلم على نبي الرحمة ، الذي جاءنا ببلاغ : ﴿ ومن آياته أن خلق لكم
من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة ﴾ (٢) .

صلى الله عليه وعلى آله الطيبين الطاهرين وأصحابه من الأنصار والمهاجرين ،
وإخوانه من الأولين والآخرين ، وسلم تسليما .

أما بعد فأقدم كتابي هذا بضاعة مُزجاة ، للصالحات القانتات الحافظات للغيب بما
حفظ الله ، ثم لكل منيب أواه ، ولإلهية في عبث زينتها الدنيا ولاه . عسى يعود ربنا
خاميم الكريم علينا بتوبة ، ويتم علينا بيقظة وأوبة ، ويكشف عنا غمة الغفلات
والخوبة .

إنه سبحانه القدوس السلام . فاتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام .

(٢) سورة الروم الآية : ٢١ .

(١) سورة غافر الآية : ٤٠ .

رجائي فيه سبحانه أن يجعل مكتوبي هذا جلاء غمام ، وتنوير العقبات الاقتحام ، ودليلاً لمن يطمح إلى ذروة السنام ، لا ترضى همته أن ترتع مع السائمة في سفوح الانهزام والاستسلام .

أستعين بالله وأستخيرهُ وأستقدره في بسط قضية المرأة في محنتها ، وفتنة أمتها .

طموح هذا الكتاب يمتد إلى واسع الحاضر وفسيح المستقبل معا ، مراقبة واستكشافاً وتطلعا . لكنه يجرس منذ البداية على جلب الأنظار ، وتوجيه الأفكار ، وجمع همم البصائر والأبصار ، على قضية القضايا ، المنسية المكبوتة في الزوايا . ألا وهي قضية مصير العبد إلى ربه .

لا يجب هذا الكتاب ولا يريد أن يصنف في خزانة التوعيات : مجرد توعية بقضية المرأة المسلمة إلى جانب التوعية السياسية والأخرى الثقافية ، والثالثة الفنية الجمالية . وما نشئت من حملات تُفرغ في أوعية الأدمغة وبواطن النفوس ، تتفاعل أو لا تتفاعل ، تتوالد ويتغذى بعضها ببعض ، والوعاء زاهر عجاج بهوأم الأفكار ومحشر الهوس . أفرغت التوعيات الكونية الدماغ المثقف بشقافة العصر ، والنفس المائجة مع حركات الدنيا من هم الآخرة وهم المصير . وأخرست الصوت الفطري السائل عن معنى وجودي وحقيقة حضوري وغاية مروري من هذه الحياة العجيبة الغريبة . لا أعجب من هذه الحياة إلا لغز وجودي ، ولا أعجب من الأعجب إلا رُضوخي القطيعي حين سِرْتُ في الدرب الهائم مع ماشية الزاعمين أن الكل عبث في عبث .

سعادة هذا الكتاب أن يوقظ الواسن ويحرك الساكن لتمسك المؤمنة القارئة ، والمؤمن الباحث ، بتلابيب نفسه وهواه ، ويحمل فكره على المكروه الذي تهرب منه النفس الراكدة في خبثها ألا وهو مواجهة الذات بالسؤال المليح الصريح أي إيمان تلافي الأمر من سبيل ؟ أم إن النطلق الأول كان خطأ حين اندفعت في حماس أزعم أنني مهاجر إلى الله ناصر لدين الله مجاهد في سبيل الله بينما قلبي هواء وخواء ؟

سعادة هذا الكتاب وطموحه ورجاؤه من المولى الكريم الهادي أن تلتقي صراحته
 بقلق المومنة والمومن ، وتطلع المرتقبة والمرتبب ، وشك الغافلة والغافل ، فتندخ في
 قرارة نفسى أنا أمة الله ، وأنا عبد الله ، وأنا الجاهل بما أنا ، ومضة اليقظة ، وشعلة
 الحسرة ، وحرقة الشوق . وتسكن في سويداء قلبي هموم مصيري الأخروي ،
 ولواعج الأسف على غفلتي ، والسؤال الدائم المزعج المنجي : ما ثقتي بربي ، ما
 صدقي معه ، ما صدقي في طلب رضاه ، أين أنا من الصادقين الذين يعبدونه رغبا
 ورهبا ، ما حظي من يقين الصادقين ، ما رضاي بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد صلى
 الله عليه وسلم رسولا ، ما مسارعتي بين المسارعين إلى نيل الدرجات في الجنة
 عنده ؟

متى انجمع همي وتوحد ، ومتى أصبحت قضيتي مع ربي أم القضايا ، عندئذ
 تأتي القضايا الأخرى في مرتبتها حيث تخدم الوسائل الغاية ، وحيث يلتحق الفرع
 بالأصل ، وحيث لا تغطي الشروط على الشروط .

طموح هذا الكتاب أن تهب على مناجاته ومناشدته إزادات نعست على فراش
 حملوها واستقالتها ، وأخرى تتمطى على إيقاع حركة مصارعة لأبناء الدنيا على
 الدنيا ، أو لطواغيت الحكم على الحقوق ، أو للنظير والجار على الزعامة والشفوف .
 وسعاده أن تعقب الهبة القلبية واليقظة الإحسانية محاسبة ومراجعة ومتابعة .

ما حياتي لو صارحت نفسي وكنت الشجاع الأمر لا عبد الهوى إلا لقطات
 وهزات ونزوات وفرص تضيق وقفزات . بيت غفلتي لو صارحت نفسي وأمسكت
 بخناقها قلعة أحصنها بخسيس الركام ، وبارضاء أنانية عاتية وسط الزحام .

كمالك كمالك يا امرأه ! كمالك كمالك يا رجل ! وما الكمال ؟ وما
 الوسيلة ؟ وما المعنى ؟ ومن قال ؟ وما قيل ؟ وما فعل هؤلاء وأولئك ؟ وما أفتى
 المترخص ؟ وما بدع المتشدد ؟

هل من رحلة إلى السعادة الكبرى لا يكون في طريقها عقبات ولا امتحان، ولا إرادة ولا اقتحام !

نم هادئا .

رجاء العبد الكاتب أن يجمع الله بقراءة الكتاب شمل من شاء من إمامه وعباده على نفحات الرحمة تقوده في سلاسل الحاجة إلى الله أو في رفارف العناية السابقة من الله إلى طريق كماله .

تذهب مع رياح الهوى وعاصفات التجاذب والتعصب نفحات الرحمة وخواطر الهداية التي تخطب ودك . وتشتبك أشواك الشك والتشكيك في ثوب إرادتك الفطرية . وتعرضك عقبات من صنع نفسك وصنع عدوك . وإذا أنت معوق مريض مختلط هائم على وجه الزمن .

نم هادئا ! أو اصحب صفحات هذا الكتاب بصبر . وقرأ مقصده من عنوانه . فإني - صححها الله - أن يتنور عقل المؤمنين والمؤمنين بعلم تركية النفوس ، مقتربا مسيرا قائدا الحركة إنصاف المرأة في قضاياها . ولتنسلك الحركة على ضوء علم التركية في نظام عمل التركية . تركية نفسي وتطهير قلبي الذي به ألقى الله يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم .

عقد إيمانك أيتها المؤمنة الحرة من الشرك الجلي والخفي ينتثر ، وجذوة إيمانك تخبو وتندثر ، إن لم تنتظم خطرات نفسك وخلجات قلبك ، وعبادة جوارحك في سلك نوراني يُنير الحلك ، ويرفعك من مهاوي الدوايية إلى طهر الملك . ما إيمانك إلا شتات لا ينجم ، في صراع مع الهوى والشيطان ، تارة يلين لهما وتارة يمتنع . حتى إذا عقدت مع الله عز وجل عقدا أن تكوني له الأمة المطيعة ، ولرضاه الطالبة الأبدية ، وشمرت أذيال إرادتك ، وكففت نوازع الروغات بصدق لا يرتاب ولا يرتد ، ووجهك وجهك لله ، وفرضت على نفسك ما تكرهه من استقامة مستديمة على ما شرع ربك وفرض ، وسن رسوله صلى الله عليه وسلم وعرض . عندئذ

تعرفين في طريق آخرتك نافعُك من ضارّك.

أم أن أمواج هذا الهم لا تلطم شواطئ قارتك !

إذا فنامي هادئة !

وإلا فتعالي نتصفح بطائن قلوبنا وظواهر هذا العالم الموار على صفحات كتاب
« تنوير المؤمنات » ، لنعلم أى جهاد يُقبل منا ، ومن أين يبدأ الجهاد وكيف .

اللهم أنت الخليفة فى الأهل والصاحب فى السفر . فاجعل سفرنا سفر هداة
مهدين . واهدنا الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعمت عليهم ، غير المغضوب
عليهم ولا الضالين . آمين .

الفصل الأول

المؤمنات وطلب الكمال القلبي والعلمي

- حب الله ورسوله
- محبة الال والصَّحْب
- صُحْبَةٌ مِنْ صَحْبٍ وَمَحَبَّةٌ مِنْ أَحَب
- مثل المؤمنين في توادهم وتعارفهم
- وقربهم من الله
- الفقه المغيَّب
- الصبر مع الجماعة
- إكرام المسلمين وصحبة الشعب
- الكمال الخُلُقِي
- الإحسان إلى الخلق
- الكمال العلمي

حب الله ورسوله

استكملت الإيمان من أعطت لله ، ومنعت لله ، وأحبت لله ، وأبغضت لله .
كما جاء في حديث الترمذي عن معاذ بن أنس الجهني عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . وعند الإمام أحمد من حديث البراء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أوثق عرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله » . وهما حديثان قويان .
« من أحب لله ، وأبغض لله ، وأعطى لله ، ومنع لله فقد استكمل الإيمان » . حديث أبي داود عن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه .

استكملت الإيمان من أصبحت أعمالها مطهرة من النفاق ، مخلص لوجه الله تعالى . بواعثها القلبية لا تكذب أفعال جوارحها . تعرض كل أفعالها على الشريعة لتتأكد من أن ما تأتي وما تذر ، ما تعطي وما تمنع ، ما تحب وما تبغض ، لا يملئ الهوى والشيطان أوامره ، ولا توسوس به النفس المراوغة الممانعة لمقتضى الشرع .

إنها أعمال قلبية تزكي الأعمال الجوارحية ، إنه إخلاص الوجهة لله تعالى ، إنه إمساك واستمسك بالعروة الوثقى بدل التشبث بحبال الدين الرث البالي .

إخلاص الوجهة لله تعالى نية وعمل هو لب الإيمان وقلبه ، فإن تحررت أمة الله الصواب الشرعي في عملها فهي على طريق الصلاح . رائدها ومرمى طرف إرادتها أن تكون مراتبها التي تجلوها أحوال إيمانها قوله تعالى يأمر نبيه ويأمرنا : ﴿ قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لَا شَرِيكَ لَهُ * وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ (١)

استكملت الإيمان من ذاق طعم الإيمان يوم أصبح الله ورسوله أحب إليهما مما سواهما ، ويوم أحبت المؤمنات لا تحبهن إلا لله ، ويوم كرهت ماضي غفلتها أو

(١) سورة الأنعام الآيات : ١٦٢ - ١٦٣ .

تبيتها كما تكره أن تقذف في النار . قلبها مفعم بالشكر لله الحنان المنان الذي أنقذها من خضم الفتنة وأتاح لها سفينة النجاة .

لا يتساكن الإيمان المكتمل ، الإيمان الذي له طعم وحلاوة ومذاق ، في قلب المؤمن مع الحسابات الصغيرة والضغائن الحقةرة والإحساسات المريرة من حقد ، وحسد ، وأنائية ، وحب رئاسة ، وحرص على الدنيا وهوى في متاعها الفاني كما يتمتع اللاهون العابثون بأعمارهم . إنما يتساكن الإيمان المكتمل مع حب الخير للمسلمين ، وللناس أجمعين ، ولخلق الله عامة . « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » . حديث نبوي متفق عليه من طريق أنس بن مالك رضي الله عنه .

لا يصلح الإيمان ويكتمل إلا بصلاح القلب ، وإخلاص أعمال القلب ، وصواب الطاعات بموافقتها للشرع . فإن أطلعت المؤمنة على دخائل نفسها فوجدت الكدر والظلمة بدل الصفاء والنور ، فلترجع حسابها مع ربها عز وجل ، ابتداء من التروك التي تعهدت بها في عقد « بيعة النساء » ، ثم تصحح فصول الحلال والحرام لتكتشف من أين دخل عليها الكدر ، ومن أية كوة نفسية تسرب الظلام . الجرام كدر وظلام تغشى القلب آثاره فتعتمه وتسوده وتمرضه .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الحلال بين ، والحرام بين ، وبينهما مشبهات لا يعلمها كثير من الناس . فمن اتقى المشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه ، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام كراع يرعى حول الحمى يوشك أن يقع فيه . ألا وإن لكل ملك حمى ، ألا إن حمى الله في أرضه محارمه . ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله . ألا وهي القلب » . رواه البخاري عن النعمان بن بشير رضي الله عنه .

ترجع حسابها ومراقبي سلم دينها هذه الطامحة للكمال إن وجدت في نفسها ما يضر ولا يسر .

مراقى الدين تعلمها الصحابة رضي الله عنهم في مشهد ملائكي فريد لكي يكون وقع التعليم مؤثرا عميقا دائما . تعلموا أن الدين سلم مرقاته الأولى إسلام ، والثانية إيمان ، والثالثة إحسان .

افتتح الإمام مسلم صحيحه بحديث جبريل ، هذا الحديث الذي لا تمل المؤمنات من حفظه وتحفيظه وفقهه وتفقيحه وعلمه وتعليمه حتى لا يستقر عند المسلمات والمسلمين أن الدين مرتبة واحدة ، الناعسة على عتبها كالصاعدة في سلمها يحدوها حب الله والشوق إلى الله والإخلاص لله . لا تستوي تلك وهذه .

روى عبد الله بن عمر عن أبيه رضي الله عنهما قال : بينما نحن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب ، شديد سواد الشعر ، لا يرى عليه أثر السفر ، ولا يعرفه منا أحد ، حتى جلس إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ، ووضع كفيه على فخذيه (أي أن الداخل وضع كفيه على فخذيه نفسه) وقال : يا محمد! أخبرني عن الإسلام . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله ، وتقيم الصلاة ، وتؤتي الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا » . قال : صدقت ! قال (عمر) : فعجبنا له يسأله ويصدق .

قال : فأخبرني عن الإيمان . قال : « أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وتؤمن بالقدر خيره وشره » . قال : صدقت !

قال : فأخبرني عن الإحسان . قال : « أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك » . الحديث . وروى مثله البخاري من طريق أبي هريرة رضي الله عنه ثم سأل الرجل النبي صلى الله عليه وسلم عن الساعة وأثراتها ، فذكر له في رواية عند مسلم عن أبي هريرة أن من شروطها أن يرى « الحفاة العراة الصم البكم ملوك الأرض » . وأن يرى « رعاء البهائم يتناولون في البنيان » .

انطلق « الرجل » بعد أن سمع أجوبة النبي صلى الله عليه وسلم . قال عمر :
 فلبثتُ ملياً ، ثم قال لي (النبي صلى الله عليه وسلم) : « يا عمر ! أتدري من
 السائل ؟ » . قلت : الله ورسوله أعلم ! قال : « فإنه جبريل ، أتاكم يعلمكم دينكم »
 هذا الدين ما هو بسيطٌ مستورٌ وصعيدٌ متساو . بل هو مراقٍ يصعد عليها ، وعقبات
 تقتحم ، ودرجات في الآخرة ينالها الناس على مقادير خلوص الأعمال وصفاء
 القلوب .

ها هي أشرفت على مطالع الإحسان من أتقت أركان إسلامها الخمس وأرست
 أساسها على متين العلم ، ثم عمّرت ظاهر البنيان الإسلامي بالأعمال والأخلاق
 والقربات الإيمانية ، وصفت القلب من الشوائب حتى صلحت المضغعة لإيواء أنوار
 الإحسان . يدخل حب الله وحب رسوله فينير الجنبات .

ترتد إحداهن خائبة العزم كليلة الإرادة خامدة الهمة ، وتنكص على عقبها ،
 وتتساقط بما أخلّت من شرائط الإسلام والإيمان ، وبما نفضت يدها من جماعة
 المؤمنين حين جرحت كبرياء أنانيتها كلمةً ناصحة ، وحين ضعفت عن تحمل أعباء
 العمل الجماعي ، وحين عيى صبرها عن الإغضاء والتسامح والبر وحسن الخلق .

تلك المرتدة المتساقطة يخاطب أمثالها ومثيلاتها قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا
 مِنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ
 أَعْزَءٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ۚ ذَلِكَ فَضْلُ
 اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ۝ (١) ﴾

الإحسان من شرائط ذبح الكبرياء الزائفة والأنانية المتعالية لتكوني ذليلة على
 المؤمنين عزيزة على الكافرات . ذليلة بمعنى الملاينة والمحبة التي تغطي على الهفوات ،
 لا الذل بمعنى سقوط الهمة والارتقاء على عتبة القوة والمال والشهوة .

لا يَمُكُثُ حُبُّ اللَّهِ فِي قَلْبٍ مُؤْمِنَةٍ إِنْ بَقِيَ فِي قَلْبِهَا حُبُّ يَسَاوِيهِ أَوْ يَفُوقُهُ .
 لِلْحُبِّ الْفُطْرِيِّ مَكَانُهُ يُعْتَرَفُ بِهِ الشَّرْعُ ، وَلِلْحُبِّ فِي اللَّهِ مَكَانُهُ يَحْثُ عَلَيْهِ الشَّرْعُ .
 لَكِنْ كُلُّ ذَلِكَ بَاطِلٌ فِي بَاطِلٍ إِنْ زَاحَمَ حُبُّ اللَّهِ وَحُبُّ رَسُولِهِ أَوْ نَافَسَهُمَا . قَالَ اللَّهُ
 تَعَالَى : ﴿ قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ
 اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبُّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ
 وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ
 الْفَاسِقِينَ ﴾ (١) .

لِلْمُشْرِكِينَ أَتَدَادٌ يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ . وَلِبَنَاتِ الدُّنْيَا زِينَةُ الدُّنْيَا يُحِبُّنَهَا لَا
 يُحِبُّنَ اللَّهَ . لَكِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّاتِي آمَنَ أَشَدَّ حُبًّا لِلَّهِ . بَلْ يَتِمَّكِنُ حُبُّ اللَّهِ وَحُبُّ
 رَسُولِهِ فِي قُلُوبِهِنَّ حَتَّى يَضْرُدَّ كُلَّ حُبٍّ غَيْرِهِ لَا يَرْخُصُ فِيهِ الشَّرْعُ . وَمَا رَخِصَ فِيهِ
 الشَّرْعُ مِنْ حُبِّ الْأَمْهَاتِ وَالْآبَاءِ وَالْإِخْوَانِ وَالْأَزْوَاجِ تَرَى فِيهِ الْمُؤْمِنَاتُ نِعْمًا مِنَ اللَّهِ
 يَجِبُ شُكْرُهُ عَلَيْهَا وَحُبُّهُ مِنْ أَجْلِهَا . قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « أَحِبُّوا
 اللَّهَ لِمَا يَغْذُوكُمْ مِنْ نِعَمِهِ . وَأَحِبُّونِي لِحُبِّ اللَّهِ . وَأَحِبُّوا أَهْلَ بَيْتِي لِحُبِّي » . رَوَاهُ
 التِّرْمِذِيُّ وَالْحَاكِمُ وَصَحَّحَهُ عَنْ سَيِّدِنَا عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا .

يَلْتَقِي حُبُّهَا لِلَّهِ بِحُبِّ رَسُولِ اللَّهِ لِلَّهِ ، وَبِحُبِّ اللَّهِ لِرَسُولِهِ ، وَبِجَامِعَةِ حُبِّ آلِ
 الْبَيْتِ الْمُطَهَّرِينَ ، عَلَى جَادَةِ الْإِحْسَانِ . وَإِنْ كَانَ أَحَدٌ أَشَدَّ حُبًّا لِلَّهِ فَهُوَ رَسُولُ اللَّهِ
 الَّذِي يَقُولُ فِي دَعَائِهِ : « اللَّهُمَّ ارْزُقْنِي حُبَّكَ ، وَحُبَّ مَنْ يَنْفَعُنِي حُبُّهُ عِنْدَكَ . اللَّهُمَّ مَا
 رَزَقْتَنِي مِمَّا أَحَبُّ فَاجْعَلْهُ قُوَّةً لِي فِيمَا تُحِبُّ . وَمَا زُوِّتَ عَنِّي مِمَّا أَحَبُّ فَاجْعَلْهُ فِرَاقًا لِي
 فِيمَا تُحِبُّ » . رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ بِسَنَدٍ حَسَنٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ يَزِيدٍ الْخَطْمِيِّ الْأَنْصَارِيِّ
 رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .

فِي ثَنَائِهِ قَوْلُ الْمُعَلِّمِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « أَحِبُّوا اللَّهَ لِمَا يَغْذُوكُمْ بِهِ الْخَلْقُ الْحَدِيثُ
 ، وَفِي ثَنَائِهِ دَعَائِهِ أَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُ مَا رَزَقَهُ فِيمَا يُحِبُّ اللَّهُ ، تَعْلِيمٌ رَفِيقٌ يَأْخُذُ بِيَدِ

النفس البشرية الضعيفة ليتدرج بها من تقدير الأرزاق إلى تعظيم الرزاق ، ومن الارتياح للنعم إلى حب المنعم ، ومن صرف قوة العطاء في خدمة الأهداف الدنيوية إلى توظيفها في اقتحام العقبة إلى محاب الله وإلى حب الله .

نعم وأرزاق مجسدة فيما يغذونا به الرزاق المنعم سبحانه من غذاء الأجسام وكسوتها ونفقتها ورخائها . هذه الماديات التي هي من ضروريات الحياة وكمالياتها . تصبح وسيلة ومرقاة للخروج من عالم الماديات الصماء العمياء إلى عالم الكمال الإيماني الإحساني .

كيف تكون إذا قيمة النعمة العظمى والوسيلة الأرقى إذا تعلقنا بأذيال رسول الله صلى الله عليه وسلم وأحببناه ! حبه أصل من أصول الإيمان . حبه دين . حبه وسيلة لحب الله .

جاءه رجل فسأله عن الساعة متى هي ؟ قال صلى الله عليه وسلم : « ما أعددت لها ؟ قال : لا شيء غير أنني أحب الله ورسوله . فقال : أنت مع من أحببت » . متفق عليه من طريق أنس خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال أنس : فما فرحنا بشيء فرحنا بقول النبي صلى الله عليه وسلم : أنت مع من أحببت . فأنا أحب النبي صلى الله عليه وسلم وأبا بكر وعمر ، وأرجو أن أكون معهم بحبي إليهم ، وإن لم أعمل أعمالهم .

قرأنا في حديث تسلسل المحبة وتواصلها بين الله ورسوله وأهل بيت رسوله ، وقرأنا في حديث أنس فرح الصحابة رضي الله عنهم لما بُشروا بفاعلية المحبة بين الله ورسوله والمؤمنين . هذا التواصل والتحاب بين العباد هو العروة الوثيقة التي نخصص لها الفقرة التالية بإذن الله . ولهي الفصل والموصل بين درجات الدين . والحمد لله رب العالمين .

محبة الآل والصَّحْبِ

قال الإمام القرافي رحمه الله معبرا عن فقه حب رسول الله صلى الله عليه وسلم : « معرفة أحواله صلى الله عليه وسلم واجبٌ من قبيل الاعتقاد ، لا مجرد العمل » .

معرفة أحواله وشمائله صلى الله عليه وسلم واجبة لنحبه على علم ، كما أن معرفة أقواله وسنته واجبة لتخلق ونعمل . حبه عقيدة ، والعمل على سنته بنية الاتباع برهان سلامة العقيدة . كلما ازددنا نحن الآخرون معرفة بأحواله وشمائله ازددنا محبة فيه كما تدرج الصحابة رضي الله عنهم في ذلك .

كان معهم رضي الله عنهم من الانجذاب للإيمان ومن محبة الله ورسوله قوة انتزعتهم من الأهل والعشيرة فهاجروا في سبيل الله ورسوله . ثم قويت محبة الله ورسوله في قلوبهم فواجهوا في ميدان القتال الأب والأخ والأعمام والأقارب . يروي الإمام البيهقي أن والد أبي عبيدة كان في صف المشركين يوم بدر ، فأخذ ينعت لابنه وهو في صف المؤمنين آلهة قومه . وأخذ أبو عبيدة يحيد عنه . فلما أكثر الوالد المشرك قصده الابن المؤمن فقتله . ونزل قوله تعالى : ﴿ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۚ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ۚ أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ ۚ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (١) .

تميز حزب الله عن حزب الشيطان : حزب الله رابطته حب الله ورسوله والولاية الجامعة بين المؤمنين ، وحزب الشيطان جامعتهم ورباطتهم العصبية القومية

(١) سورة المجادلة الآية : ٢٢ .

والولاء الجامع للأصنام ينعنونها ويزينونها للأبناء المؤمنين حتى في ساحة القتال .
﴿ استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله . أولئك حزب الشيطان . ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون ﴾ (١) .

أمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح كان من أحب الصحابة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو أحد العشرة المبشرين بالجنة . رأيناه يقتل الجراح لما لم يجد مَجِيْدًا عنه . أثبت بذلك في أي جهة كانت محبته وولاؤه . غلب حب الله وحب رسوله المكتسب حب الفطرة والإلف . الحب الفطري حق إن انسجم مع مقتضيات الإيمان ، فإن قاومها وعارضها أصبح باطلا يدحضه الحق .

حب النفس والحفاظ على الحياة فطرة ، فإذا غلب حب الله ورسوله في القلب الفطرة الأنانية رأيت في غزوة أحد أم عمارة رضي الله عنها تضرب بسيفها الجابرة وتعرض نحرها للطعن دفاعا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

مرتبة عالية في الإيمان والإحسان هي هذه الفدائية . لا ندرى في أية سنة ، وفي أية مرحلة ، امتحن رسول الله صلى الله عليه وسلم عمر بن الخطاب حين أخذ بيده فقال عمر : والله يا رسول الله لأنت أحب إلي من كل شيء إلا نفسي ! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه » . فقال عمر : فأنت الآن والله أحب إلي من نفسي ! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الآن يا عمر ! » . رواه الإمام أحمد . وعند البخاري قوله صلى الله عليه وسلم الذي رواه أبو هريرة : « فوالذي نفسي بيده لا يومن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده » . وعنده أيضا من حديث أنس قوله صلى الله عليه وسلم : « لا يومن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين » .

هذه كانت محبة الصحابة رضي الله عنهم تمتحن في ساحات القتال . لم تكن محبة عُدْرِيَّة لَفْظِيَّة حاملة . فلتنظر فلانة من المؤمنات أين هي من أمثال أم عمارة . فإن

امتنحت نفسها فوجدت أنها لا تبذل في سبيل الله دعماً للدعوة وفداء للحق حتى أبسط وسائل راحتها ، فلتراجع الحساب ، ولتدير الحيلة لتفطم نفسها عن أنانيتها ، ولتستعين بأخواتها على ذلك القظام . أين يباع حب الله ورسوله ؟ وما ثمنه ؟ وما القنوات القلبية الموصولة به ؟

إن حبل المودة والمحبة يريده الله ورسوله رباطاً ممتداً بين أجيال المؤمنين ، موصولاً من قلب لقلب إلى منبع النور . الآصرة النبوية تضم إليها الأمة من قنوات الحب في الله ، تخص بالوصية قنوات آل البيت وقنوات الصحابة ، وتنعتهما نعتاً . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في خطبة له بغدير خم بعد أن حمد الله وأثنى عليه وذكر ووعظ : « أما بعد ، ألا أيها الناس ! إنما أنا بشر ، يوشك أن يأتي رسول ربي فأجيب . وإني تارك فيكم ثقلين : أولهما كتاب الله ، فيه الهدى والنور ، فخذوا بكتاب الله ، واستمسكوا به » . قال الراوي : فحث على كتاب الله ورغب فيه ، ثم قال : « وأهل بيتي ! أذكركم الله في أهل بيتي ! أذكركم الله في أهل بيتي ! أذكركم الله في أهل بيتي ! » . الحديث رواه مسلم عن زيد بن أرقم رضي الله عنه . سأل حصين - وهو ممن حضر حديث زيد بن أرقم - : ومن أهله يا زيد ؟ أليس نساؤه من أهل بيته ؟ قال زيد : نساؤه من أهل بيته . ولكن أهل بيته من حرم الصدقة بعده . قال : ومن هم ؟ قال : هم آل علي ، وآل عقيل ، وآل جعفر ، وآل عباس .

هل في تمسكنا بالكتاب والسنة ما يناقض محبة آل البيت عليهم السلام ؟

فعلت الفتنة فعلها فشقت الأمة شقين : شيعة ذكرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم في أهل بيته فتذكروا ، وأجج حيهم لآل البيت مذابح آل البيت في كربلاء . وسنة سلّوا مقتل حسين رضي الله عنه ونسوا مخازي يزيد بن معاوية حين سيق إليه رأس حسين والظاهرات من آل البيت سبايا .

جرح مؤلم عميق في جسم الأمة . ليس هنا مكان الإفاضة في التذكير به .

الواجب هنا أن نعبر عن كراهيتنا لمن لا يقيم وزناً لوصية رسول الله صلى الله

عليه وسلم ، كراهية يتساوى فيها الروافض الذين يعميهم الحب المتعصب الجاهل الحاقدا لآل البيت فيسبون الصحابة ، والنواصب الذين أعمتهم الدنيا عن فضيلة آل البيت .

لم يسلم من ثلب الصحابة وتنقيصهم والخط عليهم إلا أربعة أو ستة . أسقط الروافض شهادة الله وشهادة رسوله للصحابة . فهو خزري وبوار . والعياذ بالله .

وأمر ملوك بني أمية بسب علي كرم الله وجهه على المنابر ، فسب خمسين سنة بوار وخزى . والعياذ بالله .

هل يضمّد الزمّن ذلك الجرح العميق في جسم الأمة ، أم يزيده الزمّن تفاقمًا ؟ متى يجلس علماء المسلمين سنة وشيعة ليجمعوا على الحق ، وهو حب آل الصّحب معا ، حبا إن انفصم بعضه عن بعض ، أو أعمى بعضه عن بعض ، فقد انفصمت عرى دين من فرق بين ما جمعه رسول الله صلى الله عليه وسلم في وصيته : الآل والصّحب . الثقلان الكتاب والعترة الطاهرة . الكتاب والسنة الطاهرة التي قاتل عنها وبلغها الصّحب الكرام .

بئس ما خلّفنا رسول الله صلى الله عليه وسلم إن أصررنا على مضغ المآسي التاريخية فكرهنا الصحابة ، وثلبنا الصحابة ، ونقصنا الصحابة ، وطعنّا في شهادة الله ورسوله للصحابة .

وبئس ما خلّفناه صلى الله عليه وسلم إن تركنا رواصب التّصّب الأموي ، وآثار الدعاية الرسمية الأموية التي قتلت حرمة آل البيت بعد أن ذبحت في كربلاء آل البيت .

أخرج الترمذي عن زيد بن أرقم رضي الله عنه حديثاً حسناً غريباً قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إني تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي . أحدهما أعظم من الآخر ، وهو كتاب الله ، حبل مشدود من السماء إلى

الأرض . وعِترتي أهل بيتي ، لن يفترقا حتى يردا علي الحوض . فانظروا كيف تخلفوني فيهما » .

أُريْتُنَّ معاشرَ المؤمنات لو كان من أهل البيت عصاة وظالمون شذّوا عن القاعدة فانحرفوا عن الطريق ، وافترقوا عن حبل الله الممدود من السماء إلى الأرض ؟

الشاذون والشاذات على رؤسهم ورؤوسهن تهديد رسول الله صلى الله عليه وسلم حين مثل بأعز الأحباب فاطمة ابنته ليؤكد أن شرع الله لا يحايي أحدا فقال « إن بني إسرائيل كان إذا سرق فيهم للشريف تركوه ، (...) . لو كانت فاطمة لقطعت يدها » . الحديث عند البخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما .

فاطمة التي دعاها رسول الله صلى الله عليه وسلم ودعا عليا وحسنا وحسينا فقال : « اللهم هؤلاء أهلي » . رواه الترمذي عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما بسند صحيح . فاطمة التي أدخلها رسول الله صلى الله عليه وسلم في مِرْطٍ مَرَحَلٍ (كساء منقوش) كان عليه ، أدخلها هي والحسن والحسين وعلياً ثم قرأ : « إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس ويظهركم تطهيرا » . رواه مسلم عن عائشة رضي الله عنها .

حب فاطمة وعلي وحسن وحسين وآل البيت من صميم الدين .

و حب الصحابة أيضا . جاء جبريل عليه السلام فسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما تعدون أهل بدر فيكم ؟ قال صلى الله عليه وسلم : « من أفضل المسلمين - أو كلمة نحوها - . قال جبريل : وكذلك من حضر بدرا من الملائكة » . رواه البخاري عن رفاعة بن رافع الزرقني وكان من أهل بدر رضي الله عنه .

أين ذهب باقي الصحابة من أهل بدر وهم ثلاثمائة وأربعة عشر رجلا . لم يَسْلَمْ من الثلب إلا أربعة أو ستة . شهد لهم الله ورسوله وجبريل والملائكة . وطعن فيهم الروافض . مرفوض والله مخزي مطعون في دينه من يثلب الصحابة .

حديث صحيح عند أبي داود من طريق أبي هريرة يقول فيه الرسول صلى الله عليه وسلم : « اِطَّلَعَ الله على أهل بدر فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم » .

سيفُ عليٍّ له على الأمة فضل كبير . لكن ما كان يفعل علي لولا المهاجرون البواسل والأنصار الأخيار ؟ حب الأنصار من الإيمان . حب الأنصار آية الإيمان وعلامته . روى الشيخان والنسائي عن أنس رضي الله عنه قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « آية الإيمان حب الأنصار ، وآية النفاق بغض الأنصار » .

الأنصار لهم مكانة عالية في كتاب الله ، يُشْرَفُونَ فيه ويشكر جهادهم ويُشهد لهم بالفلاح . أهم أربعة أو ستة أولئك الذين بايعوا في العقبة وحاربوا الكفر وآووا ونصروا ؟ في أي وادٍ من وديان الضلال يسلك المبغضون الثالوثون لمن قال فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لو أن الأنصار سلكوا وادياً أو شِعْباً لسلكتُ وادي الأنصار . ولولا الهجرة لكنت امرءاً من الأنصار » . رواه البخاري عن أبي هريرة . بأي وجه يلقي الله من يبغض أنصارياً واحداً فأحرى يبغضهم جميعاً ، وأحرى بغض الصحابة كافة ؟ عند الشيخين والترمذي حديث عن النبي صلى الله عليه وسلم من طريق البراء بن عازب يقول فيه عن الأنصار : « لا يحبهم إلا مومن ، ولا يبغضهم إلا منافق . فمن أحبهم أحبه الله ، ومن أبغضهم أبغضه الله » .

اللهم ارزقنا حبك وحب من ينفعنا حبه عندك .

صَحْبَةُ مَنْ صَحِبَ وَصَحْبَةُ مَنْ أَحَبَ

هل هناك أفصح وأوضح في مشروعية الحب في الله من دعائه صلى الله عليه وسلم ربه أن يرزقه الله حب من ينفعه حبه عنده ؟

هل فهم أحد مقاصد رسول الله صلى الله عليه وسلم كما فهمها الصحابة ، وهذا أنس يرجو أن يلحقه الله بأبي بكر وعمر ببركة حبه لأبي بكر وعمر ؟ هل جاءنا الدين من الأوراق والكتب ، أم من قنوات القلوب المؤمنة : من أبوين ريسا علي الإيمان ، ومعلم صالح ، وواعظ متقي ، وعالم عامل ، ونموذج حي ماثل يُحتذى حذوه ويقتدى به ، ويحب ؟

هل هي سلسلة من أصحاب ، والمصاحبة انقطعت ، أم الأمر لا يزال مستمرا من قلب لقلوب ؟ نقف ونبحث ونتساءل ونعود للكيفية التي أوتي بها الصحابة الإيمان قبل القرآن ، فتلَقُوا القرآن بتعظيم وطاعة ، بينما آخرون ينشرونه نثر الدقل . نعود ونتساءل لتتربى المؤمنات التربية الكاملة المتكاملة عقلا وقلبا وخلقا . قلبا قبل كل شيء ، ليتأهلن بالأنوار المقتبسة المشعة من جيل مؤمن لجيل مؤمن ، ولينشئن أجيالا مؤمنة يرضعهم مع لبن الجسم لبن الإيمان .

ذاق الصحابة حلاوة الإيمان ، وطعموا طعمه ، فحصل لهم اليقين . ذوقوا طعم الإيمان تابعيهم ، وذوق تابعوهم تابعيهم ، والجداول النورانية حية لا تزال ، متدفقة ينور الله بها عباده ، ويحيي بها أرض القلوب كما يحيي بغيث السحاب أرض الزرع .

ما الأمر معلومات تُدرج في الطروس ، ولا مجرد إقناع فكري وإن كان للعقل مكانه . للعقل القلبي مكانه الذي لا مدخل إليه ينفذ منه العقل المعاشي المشترك بين البشر . ما الأمر معلومات وإقناع فكري ، بل هو إقناع قلبي عقلي وجداني أفاضه جيل على جيل ، وجلس على جلساء ، ومحبوب في الله على محبين في الله .

على هذا المستوى من أهمية الاقتباس القلبي والعناية بمصادره نفهم وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم بآل بيته وبصحبه . روى الترمذي عن عبد الله بن مغفل رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « الله الله في أصحابي لا تتخذوهم غرضاً (هدفاً يرمى بالنبل) بعدي . فمن أحبهم فبحبي أحبهم . ومن أبغضهم فببغضي أبغضهم . ومن آذاهم فقد آذاني ، ومن آذاني فقد آذى الله » . ورواه الإمام أحمد أيضاً . وعن الشيخين عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لا تسبوا أصحابي ، فلو أن أحداً أنفق مثل أحد ذهباً ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه » .

كان الصحابة رضي الله عنهم أوعية للعلم بلغونا ديننا ، كانوا فقهاء مجتهدين أناروا لنا الطريق . كانوا أئمة هدى وتقى . كانوا قبل ذلك ومعهم مجالي لنور الإيمان ، من قلوبهم سطع على من بعدهم . حبهم من حب رسول الله ، وحب رسول الله من حب الله . فالهدى هداه سبحانه ، والنور نوره ، والوصلة قلبية كما هي علمية ، تربية كما هي تعليمية . إذا غاب هذا عن العلاقات بين أجيال المؤمنين جف معين الإيمان ، وأوتي من أوتي القرآن لا إيمان في قلبه ، فهو ينثره نثر الدقل .

الرابطة القلبية الحماسية الغاضبة على خصوم آل البيت قوة هائلة حية عند إخواننا الشيعة . وعندنا سرعان ما غلبت الرابطة التعليمية ، فأنحسرت العلاقة مع الصحابة وتابعيهم في دائرة التلقي العلمي رواية ودراية . من جيل لجيل خمدت جذوة المحبة وانزوت . وكدرتها بغضاء الصحابة ، وخلافات الصحابة ، وأخطاء بعض الصحابة . عاشت أمنا عائشة رضي الله عنها سبع سنوات من حكم معاوية . أخبر عروة خالته عائشة بأن الإمام علياً يسب ويشتتم ويلعن على المنابر . قالت عائشة : « يا ابن أختي ، أمروا أن يستغفروا لأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فسبوهم » . أخرجه مسلم عن عائشة رضي الله عنها .

كان شتم علي ولعنه على المنابر مما فعله وأمر به معاوية . ثار بالفئة الباغية وقادها

حتى استولى على الحكم . قال المسلمون السنة : اجتهد فأخطأ . ثم أخطأ حين أمر بلعن علي ، أمراً استمر خمسين سنة . ثم أخطأ غفر الله لنا وله حين جيء إليه بحجر بن عدي الصحابي الجليل الزاهد العابد الفاضل فقتله وسبعة من أصحابه . ذنب حجر رضي الله عنه أنه قام ورد على زياد بن أبيه والي معاوية على العراق حين سمعه يلعن عليا على المنبر .

وأخطأ معاوية خطأه الأعظم لما أرغم المسلمين تحت طائلة السيف على بيعه ابنه يزيد الفتي اللعوب . وفعلها يزيد بعد أن ورث الملك عن أبيه كما يورث قطيع من النعم ، فقتل حسينا ، واستباح جنده المدينة ثلاثة أيام لما قام عليه علماؤها من الصحابة قتل منهم أكثر من ثلاثمائة ، وأكثر من عشرة آلاف من المسلمين ، وحملت ألف امرأة من سطو العساكر الأموية .

لا يحب الإخوان الشيعة أن يسمعوا كلمة « اجتهد فأخطأ فله أجر واحد » . وسيطر الغضب على ما فعله بنو أمية بآل البيت منذئذ على العقول فلا يعترف الشيعة بحديث نقله غيرهم ، وعلى القلوب فتتجرع الأجيال مقتل حسين وحجر ولعن آل البيت على المنابر . وسيطر الغضب الرافضي على الأفئدة فيبغض الصحابة لخطأ صدر من بعض الصحابة . نسمي ذلك خطأ لنستظل بستر رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي ناشد أمته : الله الله في أصحابي !

ومن جانبنا يتناقل الإخباريون آراء للأئمة ترفع معاوية إلى عنان السماء ، كأن مناشدة النبي صلى الله عليه وسلم في الصحابة براءة جميعهم من الخطأ والعيب . ينقل العِمَادُ الحنبلي في كتابه « شذرات الذهب » أن الإمام أحمد سئل أيهما أفضل : معاوية أو عمر بن عبد العزيز . فيزعم الإخباري أن الإمام قال : « لَغَبَارٌ لِحَقِّ بَأْنَفِ جَوَادِ مَعَاوِيَةَ بَيْنَ يَدَي رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَيْرٌ مِنْ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ » كلمة يشم منها رائحة السيف ودعاية الإسلام الرسمي ، فيترجح أن نسبتها للإمام أحمد ، الجبل الشامخ رضي الله عنه ، زور مما يُلَفِّقه الإخباريون . وتبقى مزية الصحبة خارج المعارك .

لا جرمَ أن يدعى الشيعة العصمة لآل البيت إن كان السنة يسيغون مثل هذه الأحكام الغالية والأخبار التالية . أية تفاهة وسخرية بالعقل والدين : غبار في أنف فرس خير من علم من أعلام الملة ! لكنه فرس ملكي .

نعود ، والعودُ أحمدُ ، نستمع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يوصي بأصحابه ، ويوصي أصحابه . روى مسلم عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال : « صلينا المغرب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قلنا : لو جلسنا حتى نصلي معه العشاء . قال : فجلسنا فخرج إلينا ، فقال : ما زلتُم ها هنا ؟ قلنا : يا رسول الله ! صلينا معك المغرب ، ثم قلنا : نجلس حتى نصلي معك العشاء . قال : أحسنتم - أو أصبتم - . قال : فرفع رأسه إلى السماء - وكان كثيرا ما يرفع رأسه إلى السماء - فقال : النجوم أمانة السماء ، فإذا ذهب النجوم أتى السماء ما توعد . وأنا أمانة لأصحابي فإذا ذهب أتى أصحابي ما يوعدون . وأصحابي أمانة لأمتي ، فإذا ذهب أصحابي أتى أمتي ما يوعدون .

قال ابن الأثير الجزري في كتاب « جامع الأصول » تعليقا على هذا الحديث : « أتى أصحابي ما يوعدون » إشارة إلى وقوع الفتن ومجيء الشر عند ذهاب أهل الخير . فإنه لما كان صلى الله عليه وسلم بين أظهرهم كان يبين لهم ما يختلفون فيه . فلما فقدت جالت الآراء واختلفت ، فكان الصحابة يُسندون الأمر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم في قول أو فعل أو دلالة حال . فلما فقد الصحابة قل النور وقويت الظلمة .

تتبع مواقع النجوم الهادية ومجالس النور ، كيف كان التابعيون يرتادونها . روى الشيخان عن علقمة رحمه الله قال : قدمت الشام ، فصليت ركعتين ، ثم قلت : اللهم يسر لي جليسا صالحا . فأتيت قوما فجلست إليهم ، فإذا شيخ قد جاء ، جلس إلى جانبي . قلت : من هذا ؟ قالوا : أبو الدرداء (وهو من جلة الصحابة وعلمائهم) فقلت : إني دعوت الله أن يسر لي جليسا صالحا ، فيسرك لي . قال : من أنت ؟

قلت : من أهل الكوفة . قال : أوليس فيكم ابن أم عبد صاحبُ النعلين والوسادة والمِطهرة ؟ - يعني ابن مسعود - ، وفيكم الذي أجاره الله من الشيطان على لسان نبيه - يعني عَمَّاراً - أوليس فيكم صاحبُ سرِّ رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي لا يعلمه أحد غيره ؟ - يعني حذيفة - ثم قال : كيف يقرأ عبد الله ﴿ والليل إذا يغشى ﴾ ؟ فقرأت : ﴿ والليل إذا يغشى والذكر والأنثى ﴾ . قال : والله لقد أقرأنيها رسول الله صلى الله عليه وسلم من فيه إلى في . هكذا كان يلتقي جيل بجيل ، وهكذا كان يبحث اللاحق عن صحبه السابق ومجالسته ، وفي هذا كانوا يتذاكرون ، وعنه يتساءلون . وفيما يلي وصف للمناجاة القلبية الحبية بينهم .

روى الإمام مالك في الموطأ والحاكم وابن عبد البر بسند صحيح عن أبي إدريس الخولاني عائدُ الله ، وهو من كبار التابعين ، قال : « دخلت مسجدَ دمشق ، فإذا فتى براقُ الثنايا ، والناس حوله . فإذا اختلفوا في شيء أسندوه إليه ، وصدروا عن رأيه . فسألت عنه ، فقالوا : هذا معاذ بن جبل . فلما كان الغد هجرتُ إليه (ذهبت إليه قبل الظهر) ، فوجدته قد سبقني بالتهجير ، ووجدته يصلي . فانتظرتُه حتى قضى صلاته ، ثم جئته من قبل وجهه ، فسلمت عليه ثم قلت : والله إني لأحبك في الله ! فقال : آله ! فقلت : آله ! فقال آله ! فقلت آله ! فأخذ بحبوة رائي إليه وقال : أبشر ! فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : قال الله تبارك وتعالى : وجبت محبتي للمتحابين فيَّ ، والمتجالسين فيَّ ، والمتزاورين فيَّ ، والمتبادلين فيَّ » . أُسمي هذا الحديث دستوراً للصحبة . لا غنى للمؤمنات عن التحاب بينهن في الله ، وعن التجالس والتزاور والتبادل في الله . قد يكون التحاب فاتراً في البداية ، فيسخنه التجالس ، ويمشي عراه التزاور ، ويقوي أواصره التبادل .

تتوصى الأجيال بهذا . حضر الموتُ معاذاً رضي الله عنه فطلب إليه أصحابه الوصية : فقال : أجلسوني . ففعلوا . فقال : « إن العلم والإيمان مكانهما ، من ابتغاهما وجدهما . يقول ذلك ثلاث مرات . التمسوا العلم عند أربعة رهط : عند عويمر أبي الدرداء ، وعند سلمان الفارسي ، وعند عبد الله بن مسعود ، وعند الله بن

سلام الذي كان يهوديا فأسلم . فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إنه عاشرُ عشرة في الجنة » . أخرجه الترمذي عن يزيد بن عميرة .

أن يتغني الجيل اللاحق العلم والإيمان عند أكابر الجيل قبله ، هذه وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم تسلسل بها القل كما تسلسل بالابتغاء والبحث والمحاسبة والصحبة والاقتباس .

يفلح من صحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومن أحبه ، ومن صحب من صحب ، ومن أحب من أحب ، ومن رأى ، ومن رأى من رأى . والخير في الأمة إلى يوم القيامة . روى الشيخان عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « يأتي على الناس زمان يغزو فيه فِئَامُ (جماعة) من الناس ، فيقولون : هل فيكم من صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فيقولون : نعم ، فيفتح لهم ثم يأتي على الناس زمان ، فيغزو فِئَام من الناس ، فيقال : هل فيكم من صاحب أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فيقولون : نعم ، فيفتح لهم . ثم يأتي على الناس زمان ، فيغزو فِئَام من الناس ، فيقال : هل فيكم من صاحب أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فيقولون : نعم ، فيفتح لهم » .

في رواية « هل فيكم من رأى من رأى ؟ » والمقصود دائما هذه الصحبة المباركة المتسلسلة بالتلمذة والمجالسة والتزاور والتحاب في الله . والله يحب الصادقين .

**مثل المؤمنين في توادهم
وتعاطفهم وقربهم من الله**

قال الله تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ . يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ . وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ . أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ . إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (١) وقال عز من قائل: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ . الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ . لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ . لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (٢)

الولاية والولاية قرب وتناصر وصداقة وصحبة . وشيختها العظمى حب المؤمنين والمؤمنات مولا هم عز وجل حبا غير مفصول عن حب بعضهم بعضا .

ذكرت ولاية المؤمنين في الآية ومشاركتهم الأصيلة الصميمة في الولاية العامة للأمة . ولم ينقل إلينا كيف كانت التابعيات يصحبن أمهات المؤمنين والعالمات من الصحابيات . نقلت إلينا مجالس التابعين إلى معاذ وأبي الدرداء .

وأمثالهم من علماء الصحابة يأخذون العلم والإيمان حيث العلم والإيمان مكانهما في عقول الرجال وقلوبهم . لم ينقل إلينا جلوس المؤمنات في البيوت إلى فاطمة وعائشة وفضليات الصحابة مثلما نقلت المجالس في المساجد والعلم والإيمان مكانهما في عقول المؤمنات وقلوبهن مثلما هما في عقول المؤمنين وقلوبهم .

من قالت منهن لصاحبتها: اجلسي بنا نؤمن ساعة ، كما قال معاذ لصاحبه ؟

هل قرأ سورة « والعصر » إثر كل لقاء ليضربن موعدا بعد موعدا تصديقا لما في سورة « والعصر » من الحث على التواصي الدائم بالحق والصبر ؟ هل كن يقرأنها كما يقرأها الصحابة في آخر الجلسة ؟ أم تراهن يجلسن للقليل والقال وشقشقة اللسان ؟ هل كن يتحابين في الله ؟

(١) سورة التوبة الآية : ٧١ .

(٢) سورة يونس الآيات : ٦٢ — ٦٤ .

أقسم لهن ولنا رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « والذي نفسي بيده لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا ! ولا تؤمنوا حتى تحابوا ! أولا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم ؟ أفشوا السلام بينكم » . أخرجه مسلم والترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه .

وضرب لنا صلى الله عليه وسلم مثلاً جسيماً ليعلمنا أن المحبة في الله لا تقف عند السلام ، بل هي مؤاخاة وتآزر وتكافل . قال : « مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى » . رواه الشيخان عن النعمان بن بشير رضي الله عنه .

ثم لم يقتصر تعليمه صلى الله عليه وسلم على الوصية ، بل ترجم وصاياه إلى عمل حين آخى بين المهاجرين الذين غادروا المال والديار والعشيرة وبين الأنصار الذين آووا ونصروا وأوسعوا لإخوانهم . ما كان الأنصار الرجال أن تسع بيوتهم غرباء عن البلد لو لم تكن الأنصاريات ربات البيوت قد تصارعت في قلوبهن دواعي الأناية والخصوصية مع دواعي الإيثار حتى غلبت المحبة في الله وطردت الخصوصية الشحيحة ففتحن قلوبهن للمهاجرات يقاسمنهن السقف والدثار والماعون والحياة .

عن سيدنا عبد الرحمن بن عوف قال : « آخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بيني وبين سعد بن الربيع . فقال لي سعد : إني أكثر الأنصار مالاً ، فأقاسمك مالي شطرين . ولي امرأتان ، فانظر أيتهما شئت حتى أنزل لك عنها . فإذا حلت (بعد عدة طلاقها) تزوجتها . فقلت : لا حاجة لي في ذلك . دلوني على السوق . فدلوني على سوق بني قينقاع . فما رحت حتى استفضلت أقطاً (جبناً) وسمناً » . الحديث أخرجه البخاري .

هل من الإيمان أن يحب الرجل أخاه في الله وفي عقد رسول الله أكثر مما يحب زوجه ؟ تلك كانت ظروف استثنائية . ولكلت المحبتين مكانها .

ولتوطد المحبة بين المؤمن والمؤمن وبين المؤمنة وأختها في الله يأتي التعبير اللفظي

بعد التعبير العملي الذي يشاطر ماله ومأواه . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
« إذا أحبَّ الرجل أخاه فليُخبره أنه يحبه » . أخرجه أبو داود والترمذي عن المقدم
بن معدٍ كَرِب رضي الله عنه بسند صحيح .

كلمة « أحبك في الله » كلمة فارغة جوفاء إن لم يكن عمارتها البذل والعطاء
والوقوفُ الساهر عند الشدة والحاجة .

لا مفهومَ لقوله : إذا أحبَّ الرجل أخاه . لا مفهوم له كما يقول الفقهاء . أي لا
مفهومٌ مُخالَفة . فكذلك إذا أحببت المؤمنة أختها فيستحب لها أن تخبرها بعد أن
تأكد أنها محبة في الله خالصة و لا مجرد إعجاب طارئ أو عاطفة طائفة .

ولا مفهوم للرجلين المتحابين في الله الذين يذكُران في الحديث النبوي القائل
« سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله : الإمام العادل ، وشاب نشأ في عبادة
الله ، ورجل قلبه معلق بالمسجد إذا خرج منه حتى يعودَ إليه ، ورجلان تحابا في الله
اجتمعوا على ذلك وتفرقا عليه ، ورجل دعت امرأته ذات منصب وجمال فقال : إني
أخاف الله ، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلمَ شِمَالُهُ ما تنفق يمينه ، ورجل
ذكر الله خاليا ففاضت عيناه » . أخرجه الشيخان وغيرهما عن أبي هريرة رضي الله
عنه .

ليس الإيمان وجوائز الإيمان وكمال الإيمان ومراتب الإحسان حكرا على
الرجال . فالشابة التي نشأت في عبادة الله كالشباب تُجزى بما يجزى به ، وكذلك
المؤمنتان إن تحابتا في الله اجتمعتا على ذلك وتفرقتا عليه . وكذلك المرأة إن دعاها
رجل إلى الحرام فقالت : إني أخاف الله . وكذلك المتصدقة ، والذاكرة الباكية .

يذكرك ربك أيتها المؤمنة الكاملة الإيمان ، المحبة لأخواتها في الله محبة مشتقة
من حب الله ورسوله . محبة أعطيتَ عليها براهين نصر دين الله حين خذله الناس ،
وأعطيتَ عليها شواهد الثبات حين تخاذل الناس ، وأعطيتَ عليها حجج البذل في
سبيل الله ، والجهاد في سبيل الله ، واحتضان أخواتك في الله في الضراء والسراء .

تُذكرين إن شاء الله وسمت بكِ همة ، وألحقتك بالسابقات سابقتك عند الله تعرفينها من يقين في قلبك، وإرادة فاعلة، واستقامة، ومواظبة في طلب كمالك.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يقول الله تعالى يوم القيامة : أين المتحابون بجلالي ؟ اليوم أظلمهم في ظلي يوم لا ظل إلا ظلي » . أخرجه مسلم والإمام مالك في الموطأ عن أبي هريرة رضي الله عنه .

وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « قال الله عز وجل : المتحابون بجلال الله يكونون يوم القيامة على منابر من نور ، يغطهم أهل الجمع » . أخرجه الترمذي بسند صحيح . وروى أحاديث في هذا المعنى أبو الدرداء ، وعبد الله بن مسعود ، وعبادة بن الصامت ، وأبو هريرة ، وأبو مالك الأشعري رضي الله عنهم . فالبشرى العظيمة كانت معروفة عند الصحابة مذكورة .

إن لله عز وجل أولياء يذكروهم كما يذكرونه ، ويتقربون إليه فيتقرب إليهم ، ولا يزالون على ذلك حتى يحبهم . مما يتقربون به إليه في الدنيا الحب فيه ، والبذل فيه ، والزياره فيه ، والتجالس فيه . ويحبهم تعالى فتحبهم لحبه ملائكته ، ويحبهم لحبه أهل السماء والأرض . روى البخاري عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إذا أحب الله العبد نادى جبريل : إن الله يحب فلانا فأحبوه . فيحبه أهل السماء ، ثم يوضع له القبول في الأرض » .

وروى مسلم عن سهيل بن أبي صالح قال : كنا بعرفة ، فمر عمر بن عبد العزيز وهو على الموسم (أي كان أمير الحج تلك السنة) . قال : فقام الناس ينظرون إليه . فقلت لأبي : يا أبت ! إني أرى الله يحب عمر بن عبد العزيز . قال : وما ذاك ؟ قلت : لما له من الحب في قلوب الناس . قال : فأنتك ؟ إني سمعت أبا هريرة يحدث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن الله إذا أحب عبدا دعا جبريل فقال : إني أحب فلانا فأحبه . قال : فيحبه جبريل ، ثم ينادى في السماء ،

فيقول : إن الله يحب فلانا فأحبوه . فيحبه أهل السماء ، ثم يوضع له القبول في الأرض . وإذا أبغض عبدا دعا جبريل عليه السلام ، فيقول : إني أبغض فلانا فأبغضه . قال : فيبغضه جبريل ، ثم ينادي في أهل السماء : إن الله يبغض فلانا فأبغضوه . ثم توضع له البغضاء في الأرض .

فلان ذكّر بخير وأحبّ ، و فلان ذكر بسوء وأبغض . فما حال فلانة وفلانة ؟ أما فلانة الناصية الكاذبة الخاطئة ، فعصت وناقضت وأعرضت عن ربها فأبغضت وغضب عليها وطُرحت حصباً للجهنم وخطبا ، نعوذ بالله .

وأما فلانة فقالت : كلنا أولياء الله مؤمنون متقون . لم تُصدق قول ربها عز وجل ﴿يَخْتَصِرُ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ﴾ ^(١) قالت هذه الفلانة : أولئك هم الأنبياء ، وقد انتهى الأمر .

وأما فلانة فصدقت بكلمات ربها وكتابه وكانت من القانتين كما صدقت مريم ابنة عمران التي ضربها الله لها مثلاً ، وسألت ربها أن يني لها بيتاً في الجنة كما سألت امرأة فرعون ، وآزرت الدعوة كما آزرتها خديجة ، وصبرت مع الدعوة كما صبرت فاطمة ، وحملت العلم كما حملت عائشة ، وفدت الإسلام كما فدت أم عِمارة . هذه الفلانة تطلب كمالها من ربها وهو كريم سبحانه .

ما هم أنبياء من اختصهم الله بولايته الخاصة . نقل إلينا وصفهم أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن من عباد الله لأناساً ما هم بأنبياء ولا شهداء ، يغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة بمكانتهم من الله » . قالوا : يا رسول الله ! تخبرنا من هم ؟ قال : « هم قوم تحابوا بروح الله على غير أرحام بينهم ولا أموال يتعاطونها . فوالله إن وجوههم لنور ، وإنهم لعلى نور . لا يخافون إذا خاف الناس ، ولا يحزنون إذا حزن الناس » . وقرأ هذه الآية : « ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون » . أخرجه أبو داود . وفي الباب أحاديث تُقوّيه

(١) سورة آل عمران الآية : ٧٤ .

رواها الإمام أحمد وأبو يعلى والحاكم .

أحسنن الظنَّ بربها عز وجل وبعباده فلانة فاستقامت وأطاعت واجتهدت وجاهدت حتى ارتاش فرخُ إيمانها وقويَ وطار إلى عالم الملكوت ، حيث ذكر اسمها مع المحبوبات .

أما فلانة المكذبة فخطبها لسان الشيخ عبد القادر الجيلاني في كتابه « الفتح الرباني » قائلا : « أراك قليلة المعرفة بالله عز وجل وبرسوله . قليلة المعرفة بأولياء الله عز وجل وأبدال أنبيائه وخلفائه في خلقه . أنت خالية من المعنى ! أنت قفص بلا طائر ! بيت فارغ خراب ! شجرة قد يبست وتناثر ورقها ! عِمارة قلب العبد بالإسلام ، ثم بالتحقيق في حقيقته وهى الاستسلام » .

أنا أثنتُ خطابه رحمه الله . فهو فى مسجده كان يخاطب حاضرين ، وفي هذا الكتاب نخاطب بالقصد الأول حاضرات .

قال رحمه الله : « يا غلام ! ما صحت إرادتك للحق عز وجل ولا أنت تريد له ... يريدو الدنيا فيهم كثرة ، ويريدو الآخرة فيهم قلة ، ومريدو الحق عز وجل الصادقون فى إرادته أقل من كل قليل (...) . ويحك تدعى أنك منهم ! ما علامتهم عندك ؟ ما علامة قرب الحق عز وجل ولطفه ؟ فى أى منزلة أنت عند الحق وفى أى مقام ؟ ما اسمك وما لقبك فى الملكوت الأعلى ؟ » .

وأنت يا أخت الإيمان هل تطمحين وتطمعين أن تذكرى فى الملا الأعلى ويكون لك ثم اسم ولقب ؟ إنها إرادة واستقامة وعمل صالح . فمن تسمع ومن تجيب ؟

الفقه المغيَّب

في هذه العصور النفضية غيَّب فقه ترقيق القلوب ، فقه المحبة في الله ، فقه حب الله ، فقه التقرب والسلوك إلى الله وكأنه بدعة طارئة في الدين لا أصل لها .

نتفقه في كتاب الله العزيز القائل : ﴿ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ۝ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ۝ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ۝ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ ^(١) ونتفقه على حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي علمنا أن هؤلاء الأولياء ما هم نكِرَات في السماء والأرض ، وإنما هم فلان وفلانة ممن أحبهم الله فقرَّبهم وأمر ملائكته أن يحبونهم .

بيد أننا نحتاج لمن يشرح لنا فقه السلوك كما نحتاج لمن يضبط لنا فقه الأحكام أصوله وفروعه ، وفقه الحلال والحرام ، وفقه الفرائض ، وفقه اللغة ، وفقه أصول الاعتقاد . سُمِّيَ فقه المحبة والتربية والتقرب من الله تصوفاً ، وعاش جنباً إلى جنب مع الفقه الآخر منكمشاً معه عن ساحة الحكم . اليوم كمَّم الحكم العاض أفواه فقهاء الفروع فلا ينطقون إلا بفتوى تكفر الشيعة وتبشِّر بأن الزُّرْق الكفار أحباب وأنصار . وكمَّم فقهاء الفروع فقه التصوف وبدعوا تاريخه ورمَّوه - بزعمهم - على هوامش الدين .

ننصح المؤمنين باتخاذ الشيخ عبد القادر الحنبلي المذهب الصوفي المشرب ، المرابي الجليل ، رفيقاً في الطريق ، خصوصاً في كتابه الفريد « الفتح الرباني » . لا يطعن النفطيون فيه ، وأنى للأقزام أن تطاول الجبال ، وقد مجده وقدسه أئمتهم المعترفون . ولا تجد المؤمنين مثله من يُوبَّخ ويحرك ويستنهض الهمم بأسلوبه المباشر الجراح . أسلوب في الوعظ فريد ، ومن رجل فريد أجمعت الأمة على محبته وتعظيمه .

(١) سورة يونس الآيات : ٦٢ - ٦٤ .

لا تكن المؤمنة مثل بعض السطحيين الذين خصصوا لهذا الموضوع الحيوي بضعة ساعات قرأوا فيها ما جمعه سطحيون قبلهم من أخطاء بعض الصوفية . إن كان حب إمام الله لربهن دينا ، وكان حب الله لإيمانه المتقربات المقربات غاية يوصل إليها ، فالشقيّة المحرومة من لا تخصص عمرها ، ليلها ونهارها ، لتتفقه أولا وتثبت ، ثم لتعمل وتجاهد وتصفي القلب . دعي الحيرة والسطحية لغيرك يا أخت الإيمان ، وعمقي البحث .

نقرأ في هذه الفقرة شهادات فقهية لأئمة أساتذة . أولهم الغزالي الفقيه الأصولي والمتكلم المجادل عن الدين ، والعلم البارز في تاريخ الإسلام .

يقول حجة الإسلام في « الإحياء » : « كتاب المحبة والشوق والأنس والرضى » .

ويقول : أما بعد ، فإن المحبة لله هي الغاية القصوى من المقامات ، والذروة العليا من الدرجات . فما بعد إدراك المحبة مقام إلا وهو ثمرة من ثمارها ، وتابع من توابعها ، كالشوق والأنس والرضى وأحوايتها . ولا قبل المحبة مقام إلا وهو مقدمة من مقدماتها ، كالطوبى ، والصبر ، والزهد وغيرها . وسائر المقامات إن عز وجودها فلم تخل القلوب عن الإيمان بإمكانها . وأما محبة الله تعالى فقد عز الإيمان بها حتى أنكر بعض العلماء إمكانها ، وقال : « لا معنى لها إلا المواظبة على طاعة الله تعالى . وأما حقيقة المحبة فمُحال إلا مع الجنس والمثال » .

أرأيت يا أخت الإيمان كيف يكذب « بعض العلماء » صريح ما جاء في الحديث القدسي والنبوي ! † لهذا كتب الغزالي كتاب « إحياء علوم الدين » منذ تسعمائة سنة لينهته من انحراف فقهاء الفروع ، وفقهاء الظاهر ، وفقهاء السطح ، ما نحاول نهنته في زمننا مع فقهاء النفط . تحتاج أخت الإيمان إلى وقت وإلى عقل كامل ورغبة مستميتة لكي تقرأ وتستوعب ما كتبه الغزالي ، ثم لتقرأ بعمق ما خالفه فيه ابن تيمية . تحتاج لدقة وشوق وصبر لكيلا تبقى مقلدة محرومة في قضية هي أم قضايا الدين . لا أرضى للمؤمنات أن يتلاعبن بدينهن .

قال حجة الإسلام رحمه الله : « ولا بد من كشف الغطاء عن هذا الأمر . ونحن نذكر في هذا الكتاب شواهد الشرع في المحبة ، ثم بيان حقيقتها وأسبابها ، ثم بيان أن لا مستحق للمحبة إلا الله تعالى ، ثم بيان أن أعظم اللذات لذة النظر إلى وجه الله تعالى ، ثم بيان سبب زيادة لذة النظر في الآخرة على المعرفة في الدنيا ، ثم بيان الأسباب المقوية لحب الله تعالى ، ثم بيان السبب في تفاوت الناس في الحب ، ثم بيان السبب في قصور الأفهام عن معرفة الله تعالى ، ثم بيان معنى الشوق ، ثم بيان محبة الله تعالى للعبد ، ثم القول في علامات محبة العبد لله تعالى ، ثم بيان معنى الأنس بالله تعالى ، ثم بيان معنى الانبساط في الأنس ، ثم القول في معنى الرضى وبيان فضيلته ، ثم بيان حقيقته ، ثم بيان أن الدعاء وكرهه المعاصي لا تناقضه ، وكذا الفرار من المعاصي » .

مصطلحات في فقه القلوب تبقى حروفا باردة إن كان المكان غير قابل لحرارة حب الله والشوق إليه . تعالى أخت الإيمان نستمع كلمات مُلهية من عبد القادر الجيلاني عسى وعسى تبيضُ فينا نبضة حياة . قال رحمه الله : « ويحك ادعيت محبة الله عز وجل أما علمت أن لها شرائط ؟ من شرائط محبته موافقته فيك وفي غيرك . ومن شرائطها أن لا تسكنُ إلى غيره ، وأن تستأنس به ، ولا تستوحش معه . إذا سكن حب الله قلب عبد أنس به وأبغض كل ما يشغل عنه . تبُ من دعواكَ الكاذبة هذا شيء لا يجيء بالتخلي (أي دخول الخلوة والابتعاد عن الناس وإظهار الزهد الكاذب في الدنيا) والتمني والكذب والنفاق والتصنع تُب واثبت على توبتك ، فليس الشأن في توبتك . الشأن في ثبوتك عليها . ليس الشأن في غرسك . الشأن في ثبوتك وتغصينه وثمرته » .

ويبحث الشيخ عبد القادر قدس الله سره على صحبة العارفين بالله والأكل من مائدتهم . يقول : « كلوا من بقايا القوم (كلمة قوم اصطلاح معناه الصوفية) ، اشربوا ما قد بقي في أوانيهم . يا من يدعي العلم لا عبرة بعلمك من غير عمل ولا عبرة بعلمك من غير إخلاص ، لأنه جسد بلا روح . علامة إخلاصك أنك لا تلتفت

إلى حمد الخلق ولا إلى ذمهم ، ولا تطمَعُ فيما في أيديهم . بل تعطي الربوبية حقها .
تعمل للمنعم لا للنعمة ، للمالك لا للملك ، للحق لا للباطل . (...) .

قال : تَنَعَّمُ المحبُّون لله عز وجل الذين هم خواصه من خلقه لا ابتلاء أجسادهم .
الشهداء الذين قُتِلُوا بسيف الكفار لا ابتلاء أجسادهم ، فكيف الشهداء الذين قُتِلُوا
بسيف المحبة (...) .

قال رحمه الله : إذا عصيت يجيئك الخراب إلى جسدك ، ثم إلى جسد دينك .
يجيئك العمى والزَّمَن والطَرَشُ وذهاب القوة . تجيئك الأمراض المختلفة . يجيئك
الفقر فيخرب بيت مالك ، ويحوجك إلى أصدقائك وأعدائك . ويلك يا منافق ! لا
تخادع الحق عز وجل تعمل عملاً وتُظهِرُ أنه له وهو للخلق ترائيهم وتنافقهم وتملق
لهم وتنسى ربك عز وجل عن قريب تخرج من الدنيا مفلساً

قال رحمه الله : « يا مريض القلب عليك بالدواء الدواء لا يكون إلا عند
الصالحين من عباد الله عز وجل . خذ الدواء منهم واستعمله وقد جاءتك العافية
الدائمة والصحة الأبدية لمعناك ولقلبك ولسرك ولخلوتك مع ربك عز وجل . تنفتح
عيننا قلبك ، فتنظر بهما إلى ربك عز وجل . تصير من المحبين على بابهِ الذين لا
ينظرون إلى ما سواه . قلب فيه بدعة كيف ينظر إلى الحق عز وجل » .

ونسمع لكلمة الإمام النووي المحدث العارف غير المنكر لما هي مقامات الإحسان
وصحبة الصالحين . قال رحمه الله معلقاً على حديث جبريل ، وعلى تعريفه
للإحسان بأنه : « أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك » : هذا القدر
من الحديث أصل عظيم من أصول الدين ، وقاعدة مهمة من قواعد المسلمين . وهو
عمدة الصديقين وبُغية السالكين وكثر العارفين ودأب الصالحين . وهو من جوامع
الكَلِمِ التي أوتيتها صلى الله عليه وسلم .

قال رحمه الله : « وقد ندب أهل التحقيق إلى مجالسة الصالحين ليكون ذلك
مانعاً من التلبس بشيء من النقائص احتراماً لهم واستحياء منهم ، فكيف بمن لا يزال

الله مطالعا عليه في سره وعلايته .

لم يزل علماء الأمة يجولون حول نقطة محبة الله لعبده وتوليه إياه ، يحوم بعضهم ويُلغِز ، ويصرحُ بعضهم بمواجيده وأنوار قلبه فيفتن ، وينسحب البعض إلى ساحل جاف يابس يرى فيه الأمان من الغرق ، فينكر أن الله يُحِب أو يُحِب .

من فقهاء الحجة الناكين عن مصطلحات الصوفية لكن المتمسكين أشد التمسك بفقهاء السلوك والحب والولاية شيخ الإسلام ابن القيم تلميذ شيخ الإسلام ابن تيمية . قال في كتابه « إغاثة اللهفان » : لا شيء أحب إلى القلوب من خالقها وفاطرها . فهو إلهها ومعبودها ، ووليها ومولاها ، وربها ومدبرها ورزقها ، ومُمتيتها ومحبيها . فمحبتته نعيم النفوس ، وحياة الأرواح ، وسرور النفس ، وقُوت القلوب ، ونور العقول ، وقُرة العيون ، وعِمارة الباطن . فليس عند القلوب السليمة والأرواح الطيبة والعقول الزاكية أحلى ، ولا ألد ، ولا أطيب ، ولا أَسَرَّ ، ولا أنعم من محبته والأنس به ، والشوق إلى لقائه .

قال رحمه الله : والحلاوة التي يجدها المؤمن في قلبه بذلك فوق كل حلاوة ، والنَّعيم الذي يحصل له بذلك أتم من كل نعيم ، واللذة التي تناله أعلى من كل لذة ، كما أخبر بعض الواجدين عن حاله بقوله : « إنه ليمُرُّ بالقلب أوقات أقول فيها : إن كان أهل الجنة في مثل هذا إنهم لفي عيش طيب » وقال آخر : « إنه ليمُرُّ بالقلب أوقات يهتز فيها طرباً بأنسه بالله وجهه له » . وقال آخر : « مساكين أهل الغفلة ! خرجوا من الدنيا وما ذاقوا أطيب ما فيها » وقال آخر : « لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه لجالدونا عليه بالسيوف » .

ها هو ذا الإمام ابن القيم الحنبلي يستشهد بمقالات الصوفية أصحاب المواجيد متحاشيا تسميتهم ، محاولا مع ذلك إحياء ما قضى شيخه عمره في محاربته ومناوشته . تلقى التلميذ النجيب آخر كتابات ابن تيمية من سجنه الذي مات فيه . كان مما كتبه إلى تلامذته رسالة تشبه التوبيخ الشديد ، يلومهم فيها فارس المنقول

والمعقول على أنهم ينقصهم الوجود . الوجود هو ما يجده الذاكرون الله كثيرا والذاكرات ، المحبون لله والمحبات ، من حلاوة الإيمان وطعمه ، ولذة المناجاة في القرب .

ما التحقيق في المسألة العظمى يا فقهاء الإسلام وعلماء الدين ؟ إن أمام الفضول الفكري وحب الاطلاع أسفارا وجدالا . لكن من يدلنا على الله ؟

الصبر مع الجماعة

من يدلنا على الله ؟ هل مثل هذا السؤال يطرح وبين أيدينا كتاب الله وسنة رسوله ؟

تقول إحداهن : يا أختي كنت في غفلة وجهل وإعراض عن الدين حتى لقيت من دللنتني على الإسلام بحماسهن . قلن إن الإسلام هويتنا وأصالتنا . وقزأت في كتابات بعض رواد الصحوّة الإسلامية أن الإسلام « قومية فكرية » . وألتقي بأخريات محجبات يقرآن القرآن ويصلين ، وهن منخرطات في حركة إسلامية تدعو إلى الله ، لا يطرحن هذا السؤال ، ولا خبر عندهن بإسلام يؤسس عليه إيمان ، فإحسان يتوج الإيمان ، ويرتفع بنا إلى ذرى الكمال .

فما هذا الفقه الغريب ؟ أبدة وخرافة وافتراء ؟

إن الفقه المكتوب المقرر المقروء يبقى عرضاً بارداً ، وتراثاً منسياً ، و « أصالة » تجاوزهها الركب ، وغربة وسط غربة . الجادون في دينهم بين العاشين غرباء ، والصاحون بين النائمين غرباء ، والسائلون والسائلات عن الإحسان وفقهه غرباء بين المنكرين لأصل وجود شيء يسمى إحساناً ، والقلوب الريا بحب الله ، المريدة لوجه الله بيعة غريبة بين غرباء الغرباء .

« اللهم ارزقني محبتك ومحبة من تنفعني محبته عندك » . على هذا الحديث وأمثاله نتفقه . وعلى حض حبيب الله صلى الله عليه وسلم المؤمنين والمؤمنات على البحث عن بيعة حية ورفقة منهضة . قال : « المرء على دين خليله ، فلينظر أحدكم من يخالل » . رواه أبو داود والترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه . أوصى حبيب الله أحدنا وإحدانا بالبحث والنظر عن خلة في الله ، وبيعة تربوية منهضة إلى الله . ما أوصى بأن يزيد أحدنا كتباً إلى مكتبته ، لأن القلوب إنما تقتبس من القلوب . اقرئي ما شئت ، واسمعي ما شئت من محاضرات تنير العقل وتشرح وتصف . لكن من

أين لنا بَلَمْسَة عُلْوِيَّة تسري إلى مجامع القلب ؟

أوصى الرب العليم الحكيم حبيبه صلى الله عليه وسلم أن يصبر نفسه مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه . وكذلك فعل صلى الله عليه وسلم ، لا ليكتسب هو من رفقتهم وختلتهم إيماناً . كيف وهو نجي الرحمن ، ومصدر أنوار الوحي ، وجليس الملائكة لكن أوصاه لتسمع فلانة وتتفقه وتطمئن إلى أن صحة جماعة حية بحياة الحب في الله شرط من شرائط السير إلى الله ، والقرب من الله . من كان رأس مالها سوء الظن بالله وعباد الله فحبَّتها ما انفتقت لأن الأرض قاحلة ، قاسية قسوة الصخر . قلب قفر ، قلب قبر .

وتذبل غرسة الثابتة ، وتموت يقظتها ، وتنطفئ جذوتها إن لم تصل قناة قلبها ببيئة روية .

غريبات من يطلبن الآخرة وسط بنات الدنيا ، غريبات من يطلبن درجات الآخرة بين من لا خبر عندهن بدرجات الآخرة ، غريبات بين كل أولئك من يطلبن وجه الله ويردن وجه الله ، ويدعونه بالغداة والعشي لينصقل القلب فيلقين ربهن بقلب سليم .

من لم تلسعها لواسع الشوق إلى الله وهي في مقتبل العمر فهي قفص بلا طائر . من لم يغمها الندم على شطر عمر انقضى لم تسع فيه للتحقق من أن الله عز وجل قريب مجيب يحب ويحب فهي أرض موات . من أشرفت على القبر دون أن تعلم وتتعلم أن الآخرة درجات ، وأن من إماء الله من اكتملن ، وأن العقلاء لا يلعبون بدينهم حين كتبوا « إحياء علوم الدين » ، وحين دعوا إلى مآذبة الله وباب القرب من الله ، فهي ورقة يابسة سقطت من شجرة الحياة .

أشرك هو أن ندعو الله كما دعاه حبيبه ورسوله المصطفى أن يرزقنا محبته ومحبة من تنفعنا محبته عنده ؟ أهو شرك رجاء أنس بن مالك أن يلحقه الله بأبي بكر وعمر ببركة محبته للنبي وأبي بكر وعمر ؟ أه ما فعل الفقه النفطي ، وما فعلت النضالية الحركية ، وما أطرا وما داسا بالأقدام من جوهر الدين ولبه وثمرته .

كان الصوفية رحمهم الله ، ولا يزالون ، يدعون الناس للدخول من أبواب التوبة إلى الله ، فالزهد في الدنيا ، فالتوكل ، فالرضى ، فالشوق ، فالحجة ، فالأنس . إلى آخر مقالات السلوك . كل ذلك بعيدا عن حمل عبء الجهاد لتكون كلمة الله هي العليا في الأرض .

ودعنا ذلك الانزواء . وجمع الفاحصون في الأوراق مثال متصوفة مخرفين ، وآخرين سُكَّارَى ، فهم يدعون لنبد « الشرك الصوفي » . يا ليتهم قرأوا فتاوي شيخ الإسلام ابن تيمية من الجزء الأول إلى دفة الجزء الخامس والثلاثين ليقروا من عجائب الاعتقاد في الحلول الجزئي السائغ ، وليقرأوا الفارس الصادق يؤنب إخوانه من داخل سجن موته على خصاصتهم في « الوجد » . ما هو الوجد يا أخت الإسلام ؟

تبحث المؤمنة عن جماعة المؤمنات يجمعهن حب الله وحب رسول الله ، تجمعهن رابطة القلب كما تجمعهن رابطة الفكر . تجمعهن رابطة العمل الجهادي كما تجمعهن رابطة العلم الجهادي .

ولا تنس المؤمنات في هذه الجماعة أو تلك أن من شرائط الإيمان ولَاية أهل الإيمان مهما اختلفت الآراء ، ومهما تفاوتت الفهم ، ومهما تخصصَّ التنظيم . حب الله ورسوله لا يُضيق الأفق بل يوسعه ، حتى نحب في الله كل من نطق بلا إله إلا الله فأحرى مَنْ تجند لنشر عقيدة لا إله إلا الله ، فأحرى من عرض أنفسهم للبلاء فداء لعقيدة لا إله إلا الله .

بعد هذا فالجمالة في الله اصطفاء واختيار . ولتنظر المؤمنة في قلبها لترى في أي مجلس يتنور . فإن من المجالس والتجمعات ما يلهب الحماس كما تلهب نار الحريق ، والنتيجة حُرَاقٌ وَسَوَادٌ في القلوب . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنما مثل المجلس الصالح والجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير . فحامل المسك إما أن يُحْذِيكَ (يُعْطِيكَ من مسكه) ، وإما أن تبتاع منه ، وإما أن تجد منه رائحة طيبة . ونافخ الكير إما أن يُحْرِقَ ثيابك ، وإما أن تجد منه رائحة خبيثة » . رواه الشيخان عن

أبي موسى الأشعري رضي الله عنه . الكبرُ منفاخ الحداد . وفي عصرنا يُضربُ المثل لبعض التجمعات السياسية النضالية بما تنفثه المداخل الملوثة .

إن حزب الله واحد ، عرفه القرآن الكريم في آخر آية من سورة المجادلة بأنهم:

١ - لا يوادُّون من حادَّ الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم .

٢ - كَتَبَ الله في قلوبهم الإيمان . فهم أهل قلوب خاشعة لله ، أهل مسجد وصلاة وقرآن .

٣- أيدهم الله بروح منه . وهو سبحانه لا يؤيد المنافقين في الدين .

٤- يدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار ، ويرضى عنهم ويرضون عنه .

إنها صفات لربانيين وربانيات لهم بالله عز وجل صلوات قلبية ، ولهم إليه طاعات ومنه إليهم رُوحٌ وتأيدٌ ونور . أولى سماتهم أنهم لا يوادون من حادَّ الله ورسوله . وإنك يا أخت الإيمان تجددين في الساحة النضالية متخمين ومتخحات بالفكر النفاقي النضالي المتمسلم . إن كان لك قلب ، وكان لك مع الله ساعات مناجاة ، وكان لك بالصادقات صلوات ، فستلمحين على وجوه المنافقات والمنافقين سُخَامَ نافخي الكبر . فإن لم تَلْمَحِي فتعجبي من الحلف الشيطاني بين أعداء الإسلام الأقحاح الوقاح الجريعين وبين المنافقين المتلبسين . عبرة لنا بما فعل « مجاهدو خلق » المنافقون بإيران .

إن للحب في الله حدودا . جليسات المسك الذاكرات لله كثيرا حزب واحد مع المؤمنات المسلمات الصادقات المصليات . والمُبعَداتُ والمُبعدون يعرفون بسيماهم ، ويعرفون بمواقفهم وأحلافهم .

دعي وَعِلَّ النفطِ ينطَح في صخرة الغزالي ، واحذري من نافحات الكبر مدخنات إبليس وتعالين نسمع لبعض الوعظ القادري عسى أن يوقظ فينا حُشاشة

حب الله .

قال رحمه الله : « ويحك قد خرست ! استغث بالله ! ارجع إليه بأقدام الندم والاعتذار حتى يخلصك من أيدي أعدائك ويُنجيك من لجة بحر هلاكك (...). أنت مستظل بشجرة الغفلة اخرج من ظلها وقد رأيت الشمس وعرفت الطريق . شجرة الغفلة تُربى بماء الجهل ، وشجرة اليقظة والمعرفة تُربى بماء الفكر ، وشجرة التوبة تُربى بماء الندامة ، وشجرة المحبة تُربى بماء الموافقة . (...) . قد كان لك عذر وأنت صبي وشاب إلى الآن . قد قاربت الأربعين أو قد جاوزتها وأنت تلعب بما يلعب الصغار » .

وقال رحمه الله : « من أراد الفلاح فليصبر نفسه عن المحرمات والشبهات والشهوات . ويصبر على أداء أمر الله عز وجل والانتفاء عن نهيه ، وعلى الموافقة لِقَدْرِهِ . القوم صبروا مع الله عز وجل ولم يصبروا عنه . صبروا له وفيه . صبروا ليكونوا معه . طلبوا ليحصل لهم القرب منه . خرجوا من بيوت نفوسهم وأهويتهم وطباعهم ، واستصحبوا الشرع معهم ، وساروا إلى ربهم عز وجل ، فاستقبلتهم الآفات والأحوال والمصائب والغموم والهموم والجوع والعطش والعري والذل والمهانة فلم يبالوا بها ، ولم يرجعوا عن سيرهم . لا يزالون كذلك حتى يتحقق لهم بقاء القلب والقالب » .

قلت : هكذا صير الصوفية في صوامعهم وزواياهم . ساروا إلى الله وبحثوا عن صِقال لقلوبهم في رفقة مغلقة ، وعبر امتحانات فردية . وتلك طريق .

والجادة النبوية جهاد ، وصبر على بلاء مخالطة الناس ، ومجالدة الأعداء من الرّوّحِين والمنافقين ، ومساهمة في بناء كيان الأمة مساهمة تخدم بإخلاصها وسمو مرماها ، وتوجهها الدائم بالنية والدعاء والذكر ، قضية مصيري الآخرين ، وقضية عروحي القلبي ، وقضية صفائي الروحي . يامن تريدان تغيير المجتمع وقضية إيمانك منسية ، وقلبك لا تدرين صفا وسليم أم أظلم وعميم .

قال عبد القادر قدس الله سره : « الصبر سبب للرفعة والنصرة والمعزة . اللهم إنا نسألك الصبر ، ونسألك التقوى والكفاية والفراغ من الكل والاشتغال بك ورفع الحجب بيننا وبينك (...) . تَعْمَلُ ويكون قصدك رضى المستعمل وقربه . فالأجرة تكون رضاه عنك وقربك منه دنيا وآخره . في الدنيا لقلبك ، وفي الآخرة لقالبك (...) . ويحك خلق وخالق لا يجتمعان ، دنيا وآخره في القلب لا يجتمعان ، لا يتصور ، لا يصح ، لا يجيء منه شيء وإما الخلق وإما الخالق إما الدنيا وإما الآخرة » .

اللهم ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار .

إكرام المسلمين وصحبة الشعب

واحدة تزعم أنها تستمد من النفحات القدسية والأنوار الملكوتية ، وواحدة معتزة بثقافتها الإسلامية واطلاعها الواسع ، والأخرى حديثة عهد بستر شعرها وارتداء جلباب فضفاض ولبس جوارب سميقة .

وفي الأخلاق تيسر ، وجفاء ، وتكبر ، وجذبٌ ومسغبة في الآداب الإنسانية البسيطة . منفرات معسرات لا مبشرات ميسرات . كأن الإيمان يحملن طابعه ، من لم يدمغنها بميسمين فهي شاة جرباء ، فاسقة مارقة . وكأن الانصياع لهن والانضواء تحت لواء رئاستهن معيار تُعرف به الناجية من الهالكة .

لو كانت دعوى تلك صلاحا وهداية ، وكان علم الأخرى نافعا ، وكان احتجاب الثالثة من آثار التقوى ، لخفض الجناح للمسلمات ، ولما رأين لأنفسهن مزية على أخواتهن في الجنس والدين ، ولقدرن ظروف المسكينة التي يتناقض ظاهر ملبسها مع ما يعلم الله من صفاء قلبها . في قلبها ولأء لله ولشرعه ، ومن حولها أسرة لا تسعف ، وضغط اجتماعي لما تقو على تحديه ، وحكم ظالم يضطهد المحجبات .

لو كان الصلاح والعلم والتقوى حقائق إيمانية عند أولات الحجاب والمظهر المحتشم لوجهن اللوم العنيف لأنفسهن يجاهدنها لتتطهر ، ولكان حزنهن على قلة إيمانهن شاغلا عن سوء الظن بالمسلمات ، وعن سلق غيرهن بالسنة حداد .

تلك هي التربية القرآنية التي نقرأها في سورة الحجرات في قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَر قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ ، وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ ﴾ (١) من أدراني أنا الملتفة في ملبس الجسم أن تلك السافرة مقهورة تائبة في قلبها ، وأنها عند الله خير مني ؟ من أدراني أن ملبس تلك المتبرجة بلاء عابر يرفعه الله عنها يوما ويلبسها أروية الإيمان ويتوجهها بتاج

(١) سورة الحجرات الآية : ١١ .

الإحسان ؟ من أدراني ؟ من أدراني ؟ ولعلني أكون السبب في هداية فلانة وفلانة فأنا لله عند الله المكانة .

إن الشخصية المعتزة بذاتها، المعجبة بأطرافها، المتشجعة سيئة الظن بغيرها لهي النموذج الكامل للإسلام الأعرابي. أخبر الله سبحانه وتعالى عن حال الأعراب في سورة الحجرات هذه المليحة الزاخرة بالآداب الإيمانية قال : ﴿ قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قَل لَمْ تَزْمِنَا ، وَلَكِنْ قَوْلُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ (١) كان أعراب عصر التنزيل بدءاً يسكنون الحيام ويرعون الإبل . جفاة لم تهذبهم هجرة إلى الله ورسوله ، غفلت من حلية الأدب الإيماني الذي تعلمه المهاجرون والأنصار في مدرسة محمد صلى الله عليه وسلم ، وفي الدروس الاستكمالية بمجالس : « تعال نؤمن ساعة » .

الأعرابية في الإسلام تبقى صفة بعد انقراض حضارة البدو رعاء الإبل، وعلماً على غلظة في الحس لم يرققها الإيمان ، وكثافة في الطبع لم تلطفها مجالسة أهل الإيمان ، وجفوة في الحس والمعاملة والشعور والكلام واللهجة لم تستأنسها ولم تمدنها آداب الإيمان . هذا إلى سطحية في الفكر وسوء ظن بالعالمين .

قد تكون المسلمة إسلاماً أعرايياً من صميم المدينيات المتحضرات . أسلمت ولما يدخل الإيمان في قلبها ففي القلب من قسوة الصخر ودخان الآثام الماضية . لما يدخل الإيمان . ﴿ وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ (٢) .

قل ما نفقه عن الله عز وجل وهو يضرب لنا الأمثال ويؤجسم لنا المعاني ليقربها إلى أفهامنا . علامة حزب الله التي قرأناها في آخر آية من سورة المجادلة هي أنهم لا يوادون من حاد الله ورسوله . هي مقاطعة لأعداء الدين ظاهرة يمكن رصدها وتتبعها والعلامة الثانية قلبية باطنية ، هي الموصوفة في قوله تعالى : ﴿ أُولَئِكَ كُتِبَ فِي قُلُوبِهِمُ

(١) سورة الحجرات الآية : ١٤ .

(٢) سورة الحجرات الآية : ١٤ .

الإيمان ﴿١﴾ الكُتُبُ في اللغة معناه ضم طرفي جلد بالخياطة . هل هناك أبلغ من هذا التعبير لتفهيم أن الإيمان نور يقذفه الله في القلوب فتتضم عليه ؟

اقرئي يا من تصفحت عَجَلِي فقرات سابقة تحدثنا فيها عن الكيف الذي جعله الله سنة لتلاقح القلوب وتقابسها أنوار الإيمان والإحسان .

إذا تنور القلب بأنوار الإيمان انسحبت منه الظلمة ، وانفتح السمع ليلتقى آداب الإيمان . نعرف أنك على هدى وصلاح وعلم وتقوى بما يظهر منك من تلك الآداب لا بالدعوى وفصاحة اللسان وسماكة الجورب والعُجبُ وحُب الرئاسة .

خاطب الله عز وجل المؤمنين والمؤمنات في سورة الحجرات يعلمهم الآداب العامة بين المؤمنين والمسلمين . علمهم أولاً أن لا يُقدِّموا بين يدي الله ورسوله ، أي أن لا يشترعوا من الدين ما لم يأذن به الله ورسوله ، وعلمهم أن يتقوا الله ، وأن يغيضوا أصواتهم عند النبي توقيراً وتعظيماً . وأن يُراعوا حرمة وحرمة بيته ؛ لأن من الأعراب الخفاة الغلاظ من كان يناديه من وراء الحجرات : اخرج إلينا يا محمد .

آداب مع الله ورسوله هي القاعدة والأساس . وعن هذه القاعدة تتفرع الآداب بين المؤمنين والمسلمين فصلتها السورة تفصيلاً ، وكمّلها التعليم النبوي والتربية النبوية . أمهات هذه الآداب في سورة الحجرات عشر :

١- أن لا تصدق فاسقاً أو فاسقة جاءتنا بنياً حتى نتبين صحته ، مخافة أن تؤذي أحداً عن جهل وسوء ظن .

٢- الاعتراف بمنة الله علينا إذ حبب إلينا الإيمان ، وكَرَّهُ إلينا الكفر والفسوق والعصيان .

٣- أن نصلح بين المؤمنين والمؤمنات في القتال والخصام . لا أن نوقد النيران .

٤- أن نرعى حق الأخوة الإيمانية . وهذا إزالة يوجبها الإيمان للحواجز التي تمنع

(١) سورة المجادلة الآية : ٢٢ .

المؤمنات من التواصل والتحاب والتعاون على البر والتقوى عبر الخصوصيات التنظيمية وغضاً للطرف عن الخلافات الجزئية .

٥- أن لا يسخر قوم من قوم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيراً منهن عند الله .

٦- أن لا يَلْمِزَ بعضنا بعضاً . اللّمْز أن يطعن بعض الناس على بعض ، وأن يغتابوهم وينقصوا من قدرهم . ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ ^(١) تهديد ووعيد . نعوذ بالله .

٧- أن لا تتنايز بالألقاب ، فيُسمى بعضنا بعضاً بأسماء لا يحبها .

٨- أن تتجنب كثيراً من الظن . فالمؤمنات الكاملات والمؤمنون يسبقون حسن الظن بالله وبعياده . مع الحذر . « لستُ بالخب ولا الخبّ يخدعني » كلمة لأمر المؤمنين عمر . وقال عمر رضي الله عنه : « لا تظن بكلمة خرجت من أخيك المؤمن إلا خيراً وأنت تجد لها في الخير محملاً » .

٩- أن لا نتجسس . بل نستتر المسلمين ونكتم أسرارهم ما لم يكن ضرر ذلك فادحاً على الغير .

١٠- أن لا يغتاب بعضنا بعضاً .

هذه هي أمهات الآداب التي جعلها الله سبحانه مقدمة في سورة الحجرات ليخاطب بعدها الإنسان ، من حيث هو إنسان ، يدعوهُ لرفق الإسلام وظل الإسلام الذي يؤوى في تلافه وتبشير وتيسيره وآدابه النّادّين عن الله الجاهلين برحمة الله . قال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ . إن أكرمكم عن الله أتقاكم . إن الله عليم خبير ^(٢)

ترتيب آي القرآن حكمة يكتشفها من يتفكر ويتدبر . جاءت آية الدعوة لتعارف

(١) بداية سورة الهزرة .

(٢) سورة الحجرات الآية : ١٣ .

الناس وتفاضلهم وتكاملهم بالتقوى بعد آيات الآداب العامة ، وقبل الإخبار عن حال الأعراب الذين قالوا آمنا ، وهم إنما أسلموا ولما يدخل الإيمان في قلوبهم . كأن ترتيب الآيات يشير إلينا من طرفٍ لطيفٍ لنستعد بأجمل ما فينا من آداب نستقبل بها الوافد علينا من بني الإنسان . وكأن الترتيب يقول للوافد : لا تحكم على خير أمة أخرجت للناس بتصرف الجفاة من المسلمين إسلاماً أعرابياً ، بل تخلق بالآداب الإسلامية الرفيعة مع المؤمنين كاملي الإيمان .

كَمَل رسول الله صلى الله عليه وسلم الآداب العامة فعَلَّمَ أن « حق المسلم على المسلم خمس : رد السلام ، وعبادة المريض ، واتباع الجنائزة ، وإجابة الدعوة ، وتشميت العاطس » . متفق عليه من حديث أبي هريرة . وفي حديث متفق عليه من طريق البراء بن عازب أن حق المسلم على المسلم سبع : عيادة المريض ، واتباع الجنائزة ، وتشميت العاطس ، وإبرار القسم ، ونصر المظلوم ، وإجابة الداعي ، وإفشاء السلام .

وعَلَّمَ صلى الله عليه وسلم احترام المسلمين وصَوْنُ كرامتهم . بل جعل حُرْمَتَهُم من حُرْمَةِ الله ، وإجلالهم من إجلاله . قَالَ عليه الصلاة والسلام : « إن من إجلال الله إكرامَ ذي الشيبة المقسط ، وحامل القرآن غير الغالي فيه ولا الجافي فيه ، وإكرامَ ذي السلطان المقسط » . رواه الترمذي عن أبي موسى الأشعري بسند حسن . يعني الحديث توقير المسلمين وتعظيمهم لسابقتهم في الإسلام شابوا فيه ، ولعلمهم ، ولعدلهم .

وشدد صلى الله عليه وسلم النكير على من يُخل بكرامة المسلمين ويتخلى عن واجبه في إكرامهم وبرّهم ، فقال : « ليس منا من لم يرحم صغيرنا ، ويوقر كبيرنا ، ويأمر بالمعروف وينه عن المنكر » . رواه الترمذي عن عبد الله بن عباس رضي الله عنه بسند حسن .

وأمر صلى الله عليه وسلم أن لا نُحْط من مكانة مسلم ومسلمة قولاً أو فعلاً ،

وَأَنْ نَفْسَحَ فِي الْمَجْلِسِ لِلْقَادِمِ ، وَأَنْ نَبْتَسِمَ فِي وَجْهِ النَّاسِ ، وَأَنْ نَقُولَ الْكَلِمَةَ الطَّيِّبَةَ ، وَأَنْ لَا نَحْقِرَ مِنَ الْمَعْرُوفِ شَيْئًا مِنْ خِدْمَةِ صَغِيرَةٍ نَقْدُمُهَا ، أَوْ شِفَاعَةٍ ، أَوْ قَضَاءِ حَاجَةٍ

كَانَ هُوَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَسْلَمُ عَلَى الصَّبِيَّانِ وَالنِّسَاءِ كَمَا يَسْلَمُ عَلَى الرِّجَالِ . وَيُسَمِّي النَّاسَ بِأَحَبِّ أَسْمَائِهِمْ إِلَيْهِمْ ، وَهِيَ الْكُنْيَةُ (أَبُو فَلَانٍ أَوْ أُمُّ فَلَانٍ) مَرَّ يَوْمًا عَلَى صَبِيٍّ كَانَ يَلْعَبُ بِطَيْرٍ يُسَمَّى نَعْرًا ، ثُمَّ مَرَّ عَلَيْهِ فَلَمْ يَجِدْ مَعَهُ النَّعْرَ فَسَأَلَهُ : يَا أَبَا عَمِيرٍ ، مَا فَعَلَ النَّعْرُ ؟

مَلَاظِفَةُ أَيْنَ مِنْهَا الْحَرْبُ الَّتِي أَعْلَنْتَهَا فَلَانَةُ عَلَى الْخَالَةِ وَالْعَمَّةِ يَوْمَ وَضَعْتَ عَلَى شَعْرِهَا رُقَاقَةً مِنْ ثَوْبٍ قَاطَعْتَ الْأَقَارِبَ وَنَفَرْتَ ، كَأَنَّ الْمُسْلِمِينَ نَجَسَ لَا يَطْهَرُ ، وَكَأَنَّ الْعَاصِيَاتِ لِرَبِّهِنَّ بِكَشْفِ مَا أَمَرَ بِسِتْرِهِ حَقَّقْنَ عَلَيْهَا فِي الْإِرْشَادِ وَالتَّنْبِيهِ اللَّطِيفِ وَالْوَعْظِ وَالتَّعْهَدِ الصَّابِرِ الْمَثَابِرَ غِيْبَهُ وَأَلْغَاهُ فَهَمُّهَا الْجَافِي الْعَنِيفُ لَوَاجِبِ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ . آدَابُ هِيَ وَجْهُ الْإِسْلَامِ . فَانْظُرِي يَا أُخْتُ كَيْفَ تَحْبِبِينَ جَمَالَهُ وَكَمَالَهُ لِلنَّاسِ .

اللهم ارزقنا الفهم عنك والتأدب معك ومع خلقك

الكمال الخلقى

أن تتخلفي بالأخلاق الطيبة مع قريباتك وصديقاتك في دعة وهناءة عيش ، هذا تمرين هين ، تجدين الباعث عليه والمساعد فيه في العرف والمألوف والسلوك المقبول اجتماعياً .

أما أن تخرجي عن المألوف وتعاملني مع الناس كافة بالهدوء واللين والتحمل الجميل دون أن يفتنوك ويستفزوك ، فهذا تتأكد أخلاقتك بأدلة الامتحان ، أو تظهر زائفة قشرية على محك التجربة .

إن حمل أمانة عظيمة مثل أمانة الدعوة وتبليغ كلمة الله عن رسول الله مهمة جليلة يلزمها من الحلم مثل ما يلزمها من العلم . حملها رسول الله صلى الله عليه وسلم وحيداً فريداً معه تأييد الله وتوقيفه . من تأييده له سبحانه وتهيبه له أن جعله على خلق عظيم أشاد بعظمته في كتابه العزيز ، وشهدت بعظمته أمانة عائشة حيث قالت : « كان خلقه القرآن » ، وعاش المسلمون والناس أجمعون في كنف هذا الكمال الخلقى .

من نقصت أخلاقاً وسعة صدر وحلما كانت في الدعوة كالجندي المبثور الأعضاء في ساحة القتال . مهما كان علمها فضيق خلقها يحطها عن درجة الأهلية . متدينة متبيلة عابدة قانتة صالحة في نفسها ضيقة بالناس ، هذه لا تنتظري منها أن تتجند معك لتطبيب أمراض المجتمع ، ونشر بشارة الإسلام ، والصبر على مخالطة الناس وأذاهم .

رأس الخلق الكامل امتلاك النفس ، وقمعها تحت طائلة التقوى . كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يغضب إلا إذا انتهكت حرّمات الله .

امتلاك النفس وحملها على الحق منزجرة أبداً محكومة . هذا يعني القدرة على

سياسة القوة الشهوانية ، وكبح جماع القوة الغضبية بالشرع لتكوني أنت المتصرفه
لا الهوى والنزوات ومزاج الساعة .

تنتقى المؤمنات لتعزيز صفهن أجود العناصر كما ينتقي رائد الجيش . لحمل
السلاح ينبغي عضلات ، ولياقة بدنية ، ومهارات فكرية ، وخضوع لتدريب .
للدعوة ينبغي مؤمنات بالله ورسوله ، مريدات لله وللدار الآخرة ، عاملات علي
ذلك محتسبات . تكون مؤمنة مريدة لله وللدار الآخرة ، لكن أهليتها للعمل تقصر
عن مجال الدعوة لثغرة في الخلق .

ترد على المؤمنات بدنيات تسوقهن الشهوة ، وسبعيات يغلبهن الغضب ،
ورخويات مريضات ، ومزاجيات حادات تقفز بهن نزوة الساعة . أصناف من النساء
تصلح التوبة منهن ما تصلح ، ويصلح الإسلام ، وتصلح العبادة ، وتصلح مجالسة
الخيرات . لكن التحزب لله ، وتعزيز صف العاملات في الدعوة ، يريد صلاحا
متكاملا . يريد دينا وخلقاً ، علماً وحلماً .

في النساء ، والرجال أيضاً ، طبائع ، وتطبعات . جئن من وسط اجتماعي ما ،
معهن تصورات ومعايير لما هو الخير والشر ، ولما هو الفسق والإيمان ، ولما هو الدين ،
ولما هو الحلال والحرام ، إلى آخر ما يصلحه التعليم ويقوم فهمه الاطلاع والدرس .
لكن معايير الذوق ، واللياقة ، والأدب ، والنظافة ، والكلمة الجارحة ، والملاحظة
المناسبة ، ودقائق السلوك الاجتماعي ورفائقه ، هذا لا يفيد فيه التعليم والاطلاع
والدرس إذا كان أصل الطبع شحيحاً . لا يفيد إلا كما يفيد الزرع في أرض صخرية
جافة .

لا نياس من تخليق الوافدة بالأخلاق الكريمة ، بل نحاول ونحاول ، إذ ربما كان
التكبر والجفاء والقسوة آثاراً قشرية للتربية أو عدمها ، وللبلاء الماضي . ربما يكون
تحت القشر الجاف لب كريم . فإذا تبين أن العنصر البشري خشب يابس ، رمل عقيم
مسغبة خلقية ، مربة في الآداب والذوق ، خشونة في أصل الطبع ، كففنا عن
تضييع جهودنا وارتدنا منبتا صالحا .

بالخلق الكريم أوصى رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه وأحبابه . قال عالم الصحابة معاذ بن جبل رضي الله عنه : كان آخر ما أوصاني به رسول الله صلى الله عليه وسلم حين وضعت رجلي في الغرز أن قال : « يا معاذ أحسن خُلقك للناس » . رواه الإمام مالك في الموطأ . وقال صلى الله عليه وسلم : « بُعثت لأتم حسن الأخلاق » . حديث صحيح في الموطأ عن مالك بن أنس رضي الله عنه . وروى أمنا عائشة رضي الله عنها ، عنه صلى الله عليه وسلم قال : « إن المؤمن ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم » . رواه أبو داود بسند صحيح . وروى الترمذي عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إن من أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقا ولطفهم بأهله » .

وبشر رسول الله صلى الله عليه وسلم الكاملين والكاملات في الأخلاق فقال : « إن من أحبكم إلي وأقربكم مني مجلسا يوم القيامة أحاسنكم أخلاقا . وإن أبغضكم إلي وأبعدكم مني مجلسا يوم القيامة الثرثارون والمتشدقون والمتفقهون » . قالوا : يا رسول الله ، قد علمنا الثرثارون والمتشدقون . فما المتفقهون ؟ قال : « المتكبرون » . رواه الترمذي عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه بسند حسن .

هذه هي الوصايا المباركة . ونزل إلى أرض الابتلاء والاختبار ليعلم الله تعالى مدى صدق ما ندعيه لأنفسنا من جهاد . قال تعالى : ﴿ وَلِنَبْلُوَكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ أَجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ ﴾ ^(١) هو سبحانه يعلم ، لكن قدره يظهر على أيدينا في أرض الواقع : إما أن نصبر ونواظب ونحمل الناس وأذاهم فيكون جهادنا حقا ، وإما أن يخوننا الصبر وتعوّزنا الأخلاق والمخالقة فنكون دعوانا اسما على غير مُسمى . من الآية نأخذ أن الصبر والجهاد متلازمان . ومن معنى الصبر نأخذ أنه امتلاك النفس . وامتلاك النفس وحملها على مكاره الشهوة والهوى ، ومحاب الله ورسوله ، رأس الأخلاق . وكمال الأخلاق كمال في الدين .

(١) سورة محمد الآية : ٣١ .

سنة الله تعالى أن يمتحن المؤمنين والمؤمنات ، قال جل وعلا : ﴿ لَتُبْلَوْنَ فِي
أُمُورِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا
أَذَى كَثِيرًا ۖ وَإِنْ تَصَبَرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ (١) .

ونقرأ من الآية التاسعة من سورة إبراهيم كيف آذى الأقوام رسلكم ،
وكيف قالت لهم رسلكم : ﴿ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا ۖ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ
الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ (٢) .

ونقرأ كيف يربط الله على قلب رسوله محمد صلى الله عليه وسلم بضرب
الأمثال وقص تاريخ الرسل عليهم السلام ، ويقول له : ﴿ وَلَقَدْ كَذَبْتَ رَسُولًا مِنْ
قَبْلِكَ فَصَبِرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا ۖ وَلَا مَبْدَلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ۖ
وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبِيِّ الْمُرْسَلِينَ ﴾ (٣) .

أذى وصبر نقرأهما في سيرة المصطفى صلى الله عليه وسلم. وتوكل على الله
لا بد منه ، ونصر من عنده سبحانه يأتي مع التوكل . والتوكل ، ما هو التوكل .

نطرح هنا مسألة جوهرية في الحركة الإسلامية والاستراتيجية الإسلامية .
نطرحها باقتضاب ، ثم نمضي إلى ما يخص المؤمنات من صبر على مخالطة الناس
ومخالقتهم .

نال المؤمنات في الحركة الإسلامية على يد عبد الناصر ، وعلى يد حافظ الأسد ،
وعلى يد بورقيبة وخليفته بن علي ، خطأ مما نال المؤمنين من الأذى . هذا الأذى
المسلط على المؤمنين والمؤمنات هل هو من سنة الله وكلمته التي لا تبدل في الدعاة
من رسل ومبلغين ؟ هل هو سنة نزلت قدراً مقدوراً فوق ما يفقهه المؤمنون والمؤمنات ،
أم هي أخطاء من عند أنفسنا نزل عليها القدر المقدور والسنة الإلهية تمحيصاً وعقاباً

(١) سورة آل عمران الآية : ١٨٦

(٢) سورة إبراهيم الآية : ١٥

(٣) سورة الأنعام الآية : ٣٥

وتأدياً وتعليماً لكيلا تتكرر منا الأخطاء . سؤال طويل عريض ، ما تكفي الصفحات من كتاب للجواب عنه ، ولا هو من البساطة ووحدة الظروف بحيث يجاب عنه جواباً موحداً .

جاء أعرابي عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وله ناقة بالباب ، فسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم هل يطلق ناقته ويتوكل ، فقال له المعلم الكامل : « اعقلها وتوكل » . عقل الناقة عبارة عن اتخاذ الأسباب ، وتدبير المسيرة ، وإتقان خدعة الحرب إذ الحرب خدعة كما قال نبينا .

في كتاب الأدب من صحيح البخاري كلمة لسيدنا عبد الله بن مسعود تقول : « خالط الناس ، ودينك لا تكلمنه » . الدين يصيبه جرح إن أنت خالطت الوافدات بالنية الغرة الكريمة لا تعلمين أن المؤمنة مع طيبوبتها يلزمها الحذر لكيلا تلدغ من جحر مرتين . يلزمها التعلم من التجربة وتصنيف المتقربات من الدعوة الراغبات في المشاركة تصنيفاً خاصاً غير التصنيف العام للمسلمات والمسلمين الذين يسعهم حسن الظن ، والستر ، والبر ، والخلق الحسن المحسن ، والكلمة المحبة .

ويصيب الدين كلّم وجرح إن فهم المؤمنون المخططون للحركة الإسلامية التوكل ، وسنة البلاء ، وفضيلة الصبر ، ومبدأ الأذى ، فهما منفصلاً عن مسؤولية أنفسنا ، وأخطاء أنفسنا .

فات الذين هربوا بدينهم بعيداً عن معارك الجهاد خيرية من دخل المعركة . يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « المسلم الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم خير من الذي لا يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم » . أخرجه الترمذي وابن ماجه والإمام أحمد .

لا تخطئ من هربت بدينها ، وشلّها الجبن ، وأغلق عليها باب سجنها الجهل بأفضلية الدخول في المعارك الجهادية .

ومن دفعه حب الدرجات عند الله إلى ارتكاب أخطاء أردته شهيداً فأجره على الله ، فإنما الأعمال بالنيات . ويغفر الله إن شاء ما يصيب الدين من كلّم ، فصوابنا وخطأنا وجهان لقدره . سبحانه لا إله إلا هو . نرجع للتوحيد والرضى .

أما الواجب على المؤمنين والمؤمنات فهو الصبر على الشدائد بعد استفادنا وجوه الاجتهاد ، والخدعة ، والسياسة ، ومصانعة الواقع ، واحترام سنة التدرج . وبعد استفتاح أبواب رحمة الله ، واستمطار نصر الله ، ومدد الله .

بعد استفاد الاجتهاد والملاينة والمخالقة والأدب ، تخون المؤمنة دينها إن نزلت بمجاملة الوافدة على الدعوة إلى الترخّص المبدئي . ويخون دينه المؤمن إن لم يصبر على الشدائد تنزل عليه قدراً بعد اجتهاد .

عن خباب بن الأرت رضي الله عنه ، وكان من الصحابة المستضعفين بمكة ، قال شكونا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو متوسد بردة له في ظل الكعبة . فقلنا : ألا تستنصر لنا ؟ ألا تدعو الله لنا ؟ فقال : « كان من قبلكم يوحّد الرجل ، فيحفر له في الأرض ، فيجعل فيها ، ثم يؤتى بالمنشار ، فيوضع على رأسه ، فيجعل نصفين (يقطع الرجل نصفين) ، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه ، ما يصده ذلك عن دينه . والله ليتمنّ الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت ، لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه . ولكنكم تستعجلون » . رواه البخاري وأبو داود والنسائي .

ربنا أفرغ علينا صبراً وتوفنا مسلمين .

الإحسان إلى الخلق

دخلت امرأة النار في هرة ربطتها ، فلا هي أطعمتها وسقته ، ولا هي سرحتها لتأكل من خشاش الأرض . ودخل رجل الجنة في كلب عطشان سقاه بفلاة فأنقذه من الموت .

هاتان القصةان نقرأهما في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ونمر . كلا بل فيهما توجيه لنعم رحمتنا وإحساننا الخلق أجمعين ، لا نحقر من المعروف والإحسان شيئا . فالنفس التي تشفق على حيوان ملهوف في الصحراء نفس رحيمة ، يشكر الله صنيعها فيجزئها الجنة . والنفس الشريرة التي تمارس عدوانها على الحيوان الضعيف مثل الهرة نفس جهنمية . نعوذ بالله .

هذا جزاء الله عز وجل ثواباً وعقاباً للمحسن والمسيء في حق الحيوانات العجماء ، فكيف ثوابه وجزاؤه ، وعذابه وعقابه ، للمحسن إلى الناس والمسيء ؟

روى الإمام مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن الله عز وجل يقول يوم القيامة : يا ابن آدم ، مرضت فلم تعدني قال : يا رب ! كيف أعودك وأنت رب العالمين ؟ قال : أما علمت أن عبدي فلانا مرض فلم تعده ؟ أما علمت أنك لو عدته لوجدتني عنده ؟ يا ابن آدم ، استطعمتك فلم تطعمني قال : يا رب ! وكيف أطعمك وأنت رب العالمين ؟ قال : أما علمت أنه استطعمك عبدي فلان فلم تطعمه ؟ أما علمت أنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندي ؟ يا ابن آدم استطعنتك فلم تسقني ! قال : يا رب ! كيف أسقيك وأنت رب العالمين ؟ قال : استطعنتك عبدي فلان فلم تسقه ، أما علمت أنك لو سقيته وجدت ذلك عندي ؟ » .

هل هنالك أبلغ من هذا البيان للدلالة على الأهمية القصوى لإسداء الخير إلى الناس ، وعلو مرتبة الإحسان إلى الخلق عند الله ؟ وهل ترك لنا القرآن الكريم مطلباً

من مطالب البرِّ إلا بينه في قوله عز وجل : ﴿ ليس البرُّ أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب . ولكن البرُّ من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبين وآتى المال على حبه ذوى انقربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة ﴾ والموفون بعهدهم إذا عاهدوا * والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس * أولئك الذين صدقوا * وأولئك هم المتقون ﴾ (١) .

أرأيتِ أختَ الإيمان كيف ذكرت أعمال البر مباشرة بعد الإيمان القلبي بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبين ، وقبل الصلاة والزكاة ؟ من صلت صلاتها وزكت فرضها فهي مؤدية لواجب عيني تحاسب عليه . أما من تبرعت بمالها وحنان قلبها على المحتاج من قريب ومسكين وسائل فقد أسهمت فى القيام بفرض كِفائي متعلق بدمَّة الأمة ، فارتفعت بذلك مرتبة عملها إلى أعلى . المصلية الزكية فرضها ما عدت أن بنت أركان بيت إسلامها . أما المحسنة إلى الخلق المجاهدة بمالها وحنانها فهي تبني فى صرح دين الأمة . بذلك كان لها الفضل .

غرسة الرحمة فى قلب المؤمنة يُعرف تغصينها وإزهارها وإثمارها مما تشييعه حولها ، الأقرب فالأقرب ، من أنواع البر والإحسان والألطف والأرفاق . ما بينها وبين ربها عز وجل لا سبيل إلى الاطلاع عليه ، ونعرف الرحمة بأثارها . تصلح فى الأرض حين يفسد فيها المفسدون . تبذر بذور الحب والرحمة فى مجتمع الكراهية . تتفرغ لسماع شكوى المعانى . تتصح المتخبطات فى المشاكل وتشفع النصيحة بالبدل والعطاء والسعى لدى من بيدهم مفاتيح المشاكل . تحوط برعايتها وعنايتها المنبذات والمحرومات والمفوظين من أطفال البؤس .

تشكر ربها على نعمه أن هداها للإيمان ، فتفجر ينابيع الخير فى قلبها ، تترجم الشكر والخير عطاء من مالها وحنانها ووقتها واهتمامها ووقوفها بجانب اليتيم ،

(١) سورة البقرة الآية : ١٧٧ .

والمسكين ، والمقهور ، والأسرة المكسرة أو المهدة بكسر ، تصلح ذات البين ، وتأسو الجراح ، وتحتضن النوائب ، وتَجْمَع مع أخواتها العون المادي والعاطفي لرأب الصدع في البيوت ، والتخفيف مما في البيوت من مأس وما في الشوارع من حطام بشري .

أمومة حانية لمن جفتهن الأمهات ، صدور محبة لمن يستغثن ، ذمة موثوقة لمن لدغتهن أفاعي مجتمع الظلم والكرامية . أي معدن هو معدنك يا أخت الإيمان ؟ أنانية وشح أنت أم عين تفيض برأ ؟ ما قدرك عند الله مولاك ؟ انظري ما قدر مريض عندك عدته في الله ، واشتريت غلب الدواء بعد أن أحضرت الطبيب . انظري ما قدر جائعات وجائعين أطعمتهم في الله . وراقبي نفسك ليكون كل ذلك في الله ولله لا يدخل نفسك رياء فيبطل عملك .

تصلحين في الأرض يا أخت الإيمان اقترابا من ربك عز وجل وتقديما لآخرتك ، وحسن صحبة للشعب ، وتأليفا للقلوب على الدين ، وتهييئا لإقامة دولة الإسلام ، دولة العدل الذي يعيد إلى نصاب الاستقامة ما اعوج من شؤون الناس . ثم هي مسيرة لا تقف بك وبأجيال المؤنات من بعدك . لا يأسو عدل الدولة الجراح الشخصية ، ولا للدولة قلب متفرغ للحالات الخاصة ، ولا تملأ القسمة العادلة مهما بلغ تحريرها فجوات اجتماعية ، وفراغات طارئة ، ومصائب نازلة عينية مكانية زمانية ضحيتها فلانة وآل فلانة من الناس .

تصلحين في الأرض أخت الإيمان قبل الحكم الإسلامي وبعده . أي قبل وأي بعد أحوج إلى مساهمتك مع أخواتك ؟

نحن الآن في « قبل » ملبد بغيوم البلاء . المفسدون في الأرض يغتصبون بنات الإسلام في البوسنة ، ويذبحون الأبناء . يفعل ذلك الأرثوذكس الصرب ، ويفعل مثله في أثنع منه منذ سنوات المشركون الهنود في الكاشمير وغير الكاشمير ، ويفعل أبشع من كل ذلك بنو جلدتنا من حكام الجزائر ومصر وتونس وسوريا والعراق ،

وغيرها من الآفاق . نساء يزني بهن أمام أزواجهن ، ومؤمنون مجاهدون تبتر أعضاؤهم . ويد الكافر المحلي الذي يهجم بعساكره على المساجد يقتل فيها المصلين مبسوطة بالود والتآمر للكافر الخارجي . وفلسطين ما فلسطين ؟ !

أجَبُوا فتنة العنف على الإسلاميين وسَمَوْا ذلك أَمْنًا . فلما دافع المؤمنون عن أنفسهم قامت الضجة العالمية الكافرة تندد بالإرهاب ، وتخطط لخنق الحركة الإسلامية ، ويُمَد بعض الكافرين بعضا بالعون الاقتصادي والسلاح لتستمر دولة الفسوق والعصيان والظلم قائمة موالية لأعداء الإسلام .

إحسانك إلى الخلق تأسيس « للبعد » المرغوب ، ومساهمة في إبطال هذا « القبل » المكذوب المشبوب . والخلافة الثانية الموعد . والله عز وجل الموعد .

أما بعد ، فإن المجتمع الإسلامي المثالي هو الذي تسوده بواعث ﴿ أشداء على الكفار رحماء بينهم ﴾ ^(١) قطبُ الشدة على أعداء الدين مغناطيسية معطلة بدون قطب الرحمة . أنتِ يا أختَ الإيمان قطب الرحمة إن كان لبأس الرجال مجال . ثم تراحمينهم هناك كما زاحمت أم عمارة بضرباتها في أحد أبطال الإسلام .

وذلك المجتمع لا يرتجل ، ولا تمطره السماء بمجرد إعلان الحكم الإسلامي . إنما يُبْنَى لِبْنَةً لِبْنَةً ، ويتألف عضوا عضوا ، وينشأ جيلا أفضل من جيل . وإلى المؤمنات وكل رب الخلق سبحانه تربية الأجيال . فأحسنمت محسنة إلى نفسها ، وبنت آخرتها وخطت خطوات قرب من ربها بإحسان ما وكل إليها . ما بناء المجتمع الإسلامي خطية قولية يكذب بها الناس على نفوسهم وعلى الناس ، بل هي خطوة عملية إثر خطوات خطوات على أرض الحياة لا في خيال المعنى .

تعجَّب ربنا جل وعلا من صنيع الأنصارية التي أطعمت ضيف الدعوة ، ضيف رسول الله صلى الله عليه وسلم عشاء أطفالها ، واحتالت ليشبع ، وتلطفت ليهداً باله كذلك قبل الحكم الإسلامي وبعده يلزم المؤمنات أن يوسعن بيوتهن لاستضافة المؤمنين

(١) سورة الفتح الآية : ٢٩ .

والمؤمنات . تنظر المؤمنة هل ترتيب فراشها وأناقة أثاثها أحب إليها أم أن يكون بيتها معقلاً من معاقل الإسلام ، ومهداً لإنشاء أخوة ، وجنةً من جنات ذكر الله ، ومدرسة يتعلم فيها المؤمنون والمؤمنات دينهم ، وموعداً لمجالس « تعالي نؤمن ساعة » ؟

قرى الضيف عابر السبيل فرض ، وليلته حق على كل مسلم . فإن كان الضيف ضيف دعوة فقراه أكد ، وحقه أوجب على من تفقه في دينها .

هؤلاء الثابون والثابتات منهم غرباء في بيوت الآباء والأمهات . الآباء والأمهات على إسلامهم الموروث المهادن المسالم النائم . فلا تعرف الأمهات والآباء ما تفعله البنات والأبناء من التعرض لنقمة الحاكمين . يجد الغرباء عندك ملجأ وموعداً ومدرسة ، ويجدون في بيتك الوصية الإلهية بالوالدين ، مهما كان موقف الوالدين ما دون دعوتهما الذرية للشرك بالله . ما وصى الله الإنسان ببر أسبق من بر الوالدين ، ولا طاعة أحب إليه من طاعتهما في المعروف ، ولا إحساناً أمس بدمه الإنسان من الإحسان إليهما . والبر حسن الخلق كما جاء في الحديث ، فالمؤمنات ينتظر منهن أن يدرن باللطف واللباقة والدوق حسن العلاقة بين الوالدين والمولودين بما يصلح الدعوة دون أن يفسد ما أمر الله به من البر ، ودون أن يقطع من صلوات الرحيم والقرابة ما أمر الله به أن يوصل .

نقرأ ما جاء من ترغيب في النفقة في سبيل الله ، والجهاد بالمال قبل النفس في سبيل الله . في سبيل الله إعانة الأفراد من بني الإنسان ، وحتى من ذرية الحيوان . إطعام مبرور ، وضيافة واجبة ، وقرى مفروض ، وزكاة للبائس والمحروم . كل ذلك بر وصدقة ونفقة . ويتحول كل ذلك جهاداً ترتقى به المؤمنة إلى ذروة سنام الدين إن وظفت الأموال ، ورصدت النفقة ، ودبرت المبرات ، ونظمت الإسعافات بفعالية العمل الجماعي ، وفي مد الدعوة ونصر مسيرتها .

عبادة تقرب إلى الله من طريق المعاملة معه سبحانه في خلقه . معبدة هي الطريق مهيأة من إعانة النفس المؤمنة إلى حضرة قدس الجماعة الذاكرة المجاهدة ، تغشى

الرحمة ، وتنزل الملائكة .

روى الأئمة مسلم وأبو داود والترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من نَفَسَ عن مؤمن كُرْبَةً من كُرْبِ الدنيا نفَسَ الله عنه كُرْبَةً من كُرْبِ يوم القيامة . ومن يسر على مُعسرٍ يَسِّرَ الله عليه في الدنيا والآخرة . ومن ستر مسلماً ستره الله في الدنيا والآخرة . والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه . ومن سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له به طريقاً إلى الجنة . وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله تعالى ، ويتدارسونه بينهم ، إلا نزلت عليهم السكينة ، وغشيتهم الرحمة ، وحفَّتْهم الملائكة ، وذكرهم الله فيمن عنده . ومن بطأ به عمله لم يُسرع به نسبه » .

تُصدقين ، وترين الرحمة والسكينة بعين قلبك وتعملين . وإذا أنت من المحسنات

الكمال العلمي

صبحنا العلم القرآني النبوي من أول هذا الكتاب منذ قرأنا في كتاب الله تعالى صفات عباد الرحمن الذين يدعون ربهم ليهب لهم من أزواجهم وذرياتهم قرّة أعين ويجعلهم للمتقين إماما . فسر المفسرون إمامة المتقين بأنها إنجاب أجيال مؤمنة صالحة . قرّة أعين يكون الزوج لزوجته ، وإمامة للمتقين يرتدي جلباب كرامتها الزوجان إن كانت الأم مدرسة صالحة . الأم مدرسة . الأم منبع . الأم الجاهلة سُخْنة عين وإمامة ضياع ، وامتداد لبؤس الأمة . نرجع إن شاء الله لوظيفة الأمهات وسائر المؤنات التعليمية التربوية في الفصل التاسع من هذا الكتاب . هناك بحول الله نستعرض الكفاءات الإيمانية الخلقية العلمية الضرورية لتكون الأم إماما للمتقين وصانعة لأجيال حية فاعلة .

في هذه الفقرة ، ونحن نودع فصل طلب الكمالات ، ننظر في البنية العقلية النفسية للمؤمنة المتعلمة طالبة العلم من المهد إلى اللحد . العلم وطلبه واستكمالها هو نور العقل الذي به تكون المؤمنة متحركة بين ساكنين ، متوهجة بين باهتين ، مشمرة بين مترهلين ، حية بين أموات . إن لم تكن تأسست بِنِيَّتِهَا النفسية العقلية منذ صباها وطفولتها على قاعدة طلب العلم من المهد إلى اللحد ، فمن كمال توبتها أن تنزع عن نفسها رذيلة الجهل ، وعطالة الجهل ، وأن تتحلى وتتجمل بالمعارف الشريفة .

ما هي المعارف الشريفة القمينة أن تقبل عليها المؤمنة إقبال النهم على المورد العذب ؟ انعلوم في عصرنا بحر زخار ، كتب وكتب ، مجلات وجرائد ، تلفزيون يبسط المعارف ويوضحها بالألوان والصور والرسم البياني والإخراج . في عصرنا علوم منها المُشْرِفُ المحتكر المحتفظ بأسراره في بلاد المتعلمين من يابان وألمانيين . ومنها الدارج المتجر جر التابع التلميذ في جامعاتها ومدارسنا .

ما مكان هذه المعارف الكونية المحتكرة هناك المشرفة ، الغائبة هنا الغريبة ، من اهتمام المؤمنات والمؤمنين ؟ هي معارف ضرورية لا مسكن للأمة على وجه الأرض ولا مستقبل لها إن لم تجاهد الأمة - وفيها عبقریات المؤمنات - لاكتسابها وترويضها والتسلح بها . عريانة أمة ليس لها قدم تراحم الأقدام في هذه المَواطِن ، جوعانة ، عزلاء ، نكرة ، بلهاء ، غشاء .

بعد أن يستقر هذا في ذهننا ، فالعلم علمان : علم بالله ، وبغيب الله ، وبرسل الله ، وبكتب الله ، وملائكة الله ، وقدر الله ، ومصير الإنسان في الدار الآخرة إلى الله . وعلم آخر عن كون الله ، وخلق الله ، وما أودعه الله في أرضه وسمائه من أسرار ، ومارتب سبحانه من أسباب ، وما سخر سبحانه للإنسان تسخيرا طبيعيا ، وما جعل لتسخيره أسبابا على الإنسان أن يرادف التجارب ، ويجمع المعارف ، ويخترع المناهج ، ويصطنع الآلات لتوفيرها .

علم بالله وبغيب الله مصدره الوحي لا مصدر له غيره . وآلة تلقيه القلب المؤمن ينير العقل الراجع من تأملاته كليلا يتعلمذ على الوحي . وعلم بكون الله آتته العقل المشاع بين بني الإنسان مؤمنهم وكافرهم .

تنفع الأمة في الدنيا علوم الكون لأنها قوة ، وجهاد المؤمنات لاكتساب هذه العلوم مساهمة في الجهاد . لكن السعي باطل ضال إن انقطعت منقطعة عن الوحي ، وكانت قسمتها من العلم الشريف حقا ، ومن الإيمان بالله واليوم الآخر ، صفرا . مهما كان تحصيلها من علوم الكون ومهارات الدنيا ، وصناعات التقنية ، كبيرة ، فنفع ذلك لها في الدنيا إن ترقى في السلم الاجتماعي وكسبت مالا وشهرة لا يزن عند الله شيئا .

تنهل المؤمنات من علم الآخرة في جلساتهم ، ويشجع بعضهن بعضا على اقتناء الكتب ، ومعاشرة الكتاب . فإن هذه الثقافة الإسلامية العامة التي تنشر في المجلات الإسلامية إن كانت مهمة في تنوير عامة المسلمات والمسلمين ، لا تكفي لتفقيه المؤمنات بدينهن .

وليكن علم المؤمنين علم خطوة لا علم خطبة . علما يشرق في القلوب إيمانا وتصديقا ، وفي العقول تدييرا وتطبيقا . علما جامعا لمصلحة جامعة : الأمة ممزقة الأوصال كيف نجمعها . الخلاف مفرق كيف نضع حق الخلاف في الفروع مكانه دون أن نُصلِّت اللسان فيصلت الآخر الحُسام . مقالات المتكلمين الأوَّل لا نرفعها ألوية لنكفر ونبدع ونثير الخصام والقتال . تراث لا نحمله على ظهورنا أسفارا ، بل نتبع كما اتبع من قبلنا ، مجتهدين كما اجتهدوا ، مستفيدين من صوابهم كما نستفيد من خطيئهم . لا نصغرُ من قيمة اجتهاد من سبقونا ولا ننضمه ، بل نضعه على سلم الخطأ والصواب حيث بلغ به الاجتهاد ، وحيث أوقفه التقليد ، وحيث ألجمته الضرورة .

علم خطوة لا علم خطبة . علم يقربنا إلى الله تعريفا بالطريق . يكون العلم خطوة إن تلا التعريف تصديق ، وتلا التصديق عمل وجهاد . قال الله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ﴾ ^(١) وفي الحديث « العلم إمام العمل » . أول خطوة أن نصحح المفاهيم ونظهرها مما علق بها من الفهم المادي الديني . ضللنا وخسرنا إن اتبعنا الفهم المادي الديني ، أو سحبتنا إلى التمثل به ثم تمثله المحاولات التي تقارن وتجاوز من مبدأ : القرآن سبق إلى هذا بأربعة عشر قرنا .

العلم ، الحكمة ، الفقه ، العقل ، الرشد ، التفكير ، التدبر ، النظر . هذه مفاهيم قرآنية نبوية نفرغها من محتواها الإيماني ولبها الإحساني إن نحن قرأناها على ضوء القاموس الفكري العام . هذه المفاهيم المفاتيح تحمل شحنات قلبية ، ما منها كلمة إلا ومدلولها الإيمان ، ودلالاتها على الله ، وعلى حكمة وجود الإنسان ، وعلى مصيره إلى الجنة والسعادة الأبدية إن رشد ، أو النار والشقاء الأبدى إن غوى . تصير هذه الكلمات الشريفة حقا ، القدسية مصدرا ، قوِّعات هوائية إن قرأناها بفكر ممسوح من الإيمان ، وبآليات فكرية لسنية تصب علينا مساميرها صبا الشقافة العالمية

(١) سورة الإمراء الآية : ٣٦ .

الأكاديمية الجاهلة بربها ، المدججة بالأبحاث ، المؤتقة ، المتخمة بإفرازاتها حوانيت الأدمغة المغربية .

هنالك مجال لجهاد المؤنات يتعين عليهن المزاخمة فيه : ألا وهو مجال التعليم . مستكبرات بدبلوماتهن ومستكبرون ليست القومة لإذلال غوايتهم بأقل أهمية من القومة السياسية لهدم صرح باطل الظلم وإقامة دولة الإسلام . في جامعاتنا مسارح للعراك الفكري ومداومة الثقافة المادية الإلحادية في عقر دارها . جامعاتنا عقر دارها كما أن أجهزة الدولة عقر دار الظالمين . على المؤنات التي حباهن الله بالذهن الوقاد والصبر على التعلم وعلى متابعة التعلم من المهد إلى اللحد أن يتخصصن في أداء الفرض الكفائي في التعليم العام بما لا يتناقض مع فرضهن العيني في تربية بناتهن وأبنائهن في البيت .

مستكبرات ومستكبرون في الجامعات يُنادون من مكان بعيد حين يخاطبون بالإيمان والعلم الهادي للإيمان . من ينزل الجبارين من بروج الاستعلاء الثقافي إلا عقول أمنت بالله وباليوم الآخر فأوقفت جهودها للتصدي لهذه المعركة الحاسمة . النشء من بنات المسلمين وأبنائهم أثنى ما تملك الأمة ، والقتال العلمي لكسبه من أولويات الجهاد . وللمؤنات في هذه النازلة ثغرة لا يسدها غيرهن ، وفقه ما له سواهن .

مستكبرات ومستكبرون روى البخاري في صحيحه في كتاب العلم أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب قال : « تفقهوا قبل أن تسودوا » . ذلك أن التي عرفت بعلمها حتى لُقبت دكتورة واعتلت منصة الأستاذية لا ترجع عن ضلالها الثقافي وغرورها بالمكدرات من المراجع في خزائنها ، والمنشورات من مؤلفاتها إلا راغمة مفحمة . تقوم الحكومة الإسلامية فتعفي المرتدين عن دينهم والمرتدات ، ومروجي البضاعة العلمية المغشوشة والمروجات ، لكن الهزيمة الفكرية لطروحاتهن وطروحاتهم وحدها تقطع دابر الجاهلية الحاضرة أذرعها في مدارسنا وجامعاتنا .

قال الإمام مالك عن عيب القضاء : « إن القاضي إذا عَزَلَ لا يرجع إلى مجلسه الذي كان يتعلم فيه » . قلت : بمنعه ذلك كبرياؤه ، تمنعه رئاسة وسمعة اكتسبها ، وكُرسى نفوذ اعتلاه ، لا ينزل عنه . وقال الشافعي : « إذا تصدَّرَ الحَدَّثُ فاتته علم كثير » . وفسر أبو عبيدة حديث عمر ، قال : « معناه تفقهوا وأنتم صغار قبل أن تصيروا سادة فتمنعكم الأنفة عن الأخذِ عمن هو دونكم ، فتبقوا جهالا » .

كبيرات كاملات كاملا وهما لما معهن من بضاعة لها قيمة في دار الأساتذة الغربيين . يُحاضِرُنَ في السربون وبوسطون . ويخدمن المخابرات العدو ما لم يخدمه الاستشراق . ويحطمن من دين النشء وأخلاقه ما لا تحطمه مساعداتهن الهوائيات المقعرات .

الكمال العلمي الحق هو : « من يرد الله به خيرا يفقه في الدين » . رواه الترمذی عن سيدنا عبد الله بن عباس رضي الله عنهما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . الكمال العلمي في طلب علم الوحي ليكون إماما وسيدا ومرشداً لعلوم الكون ، وليكون السعي إلى تحصيله جهادا ، ولتكون المنشقة والصبر على امتلاكه وسيلة وطريقا إلى الجنة . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله له طريقا إلى الجنة » . رواه أبو داود والترمذی عن أبي هريرة رضي الله عنه .

الكمال العلمي تعلم القرآن وتعليمه وتفريع كل علم سواه عنه من علوم الدين والدنيا . « خيركم من تعلم القرآن وعلمه » . حديث نبوي رواه البخاري وأبو داود والترمذی عن مولانا عثمان بن عفان رضي الله عنه .

خير وكمال حرص رسول الله صلى الله عليه وسلم على إنالة النساء المؤمنات حفظهن منه . جئنه يوما فقلن : « غلبنا عليك الرجال ! فاجعل لنا يوما من نفسك ! فوعدهن يوما لقيهن فيه فوعظهن وأمرهن » . الحديث رواه البخاري عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه .

يمنع شيطان الكبرُ ووسواس الخجل من طلب العلم وتلقيه . ثلاثة نفر حضروا مجلسا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فتقدم أحدهم ، وتأخر الآخر ، وتردد الثالث . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أما أحدهم فأوى إلى الله عز وجل فأواه الله ، وأما الآخر فاستحى فاستحى الله منه ، وأما الآخر فأعرض فأعرض الله عنه » . أخرجه الشيخان والترمذي والموطأ عن أبي واقد الليثي رضي الله عنه .

الفصل الثانى

المؤمنة فى بيتها وحجابها

- * . . ليسكن إليها
- * لا تخرجوهن من بيوتهن
- * حضرة الحافظة
- * ولا تقربوا الزنى
- * شغل بلا عطله
- * هوس الاختلاط
- * روح المسجد
- * الحجاب إذن ورمز
- * أدب اللقاء
- * خدمة البيت

ليسكن إليها

قال الله تعالى يَمُنْ عَلَيْنَا إْحْدَى نَعْمَةِ الْعَظْمَى : ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ﴾ (١) . الزوج الرجل ، والزوج المرأة . وكلمة « زوجة » لغة رديئة . وقال عز من قائل : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾ (٢) .

منة عظمى وآية كبرى من منته المشكورة وآياته المذكورة . سكون شطر هذه النفس الإنسانية إلى الشطر المكمل راحة واطمئنان وألفة واستئناس واستيطان ، لولاه لكانت الحياة وحشة وغربة وقلقا . فالحمد لله رب العالمين ، وله الحمد في الأولى والآخرة .

تضعنا الآيتان على قدَم العبودية لله عز وجل ، لا نستغرق في منن الدنيا ناسين آيات الله الدالة على الإيمان ، لا ننفخس في المعاش لاهين عن المعاد . من قرأت في منة سكون الزوج لزوجته مجرد متعة دنيوية منفصلة عن دلالة خلق الله الذكر والأنثى فهي غافلة .

ذكر الله سبحانه آية خلقنا أزواجا نسكن إليها بمودة ورحمة من بين آيات أخرَ تُطْلَعُنا إِنْ كُنَّا جَاهِلِينَ ، وَتُذَكِّرُنا إِنْ نَسِينَا أَنَّنَا مُدْرَجُونَ فِي سِيَاقِ الْحَيَاةِ ، مَقْهُورُونَ ، مَخْلُوقُونَ ، عِبِيدًا وَإِمَاءَ لِمَنْ لَهُ الْحَوْلُ وَالطُّولُ سُبْحَانَهُ . فِي الْآيَاتِ مِنْ سُورَةِ الرُّومِ تَسْبِيحُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ الَّذِي يَكُونُ بِنَا اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ، فَنُمْسِي وَنُصْبِحُ لَا نَمْلِكُ أَنْ نَتَمَرَّدَ عَلَى قَانُونِ دَوْرَانِ الشَّمْسِ ، وَلَا نَسْتَطِيعُ الْخُرُوجَ مِنْ قَيْدِ الزَّمَنِ . لَهُ الْحَمْدُ سُبْحَانَهُ .

من آياته المذكورة تمهيداً لِذِكْرِ الْمَزَاجَةِ وَالْمَسَاكِنَةِ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ يَخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيَخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا . مِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقْنَا

(١) سورة الأعراف الآية : ١٨٩ .

(٢) سورة الروم الآية : ٢١ .

من تراب ونشرنا في الأرض بشرا كثيرا . ثم تجسيء الآيات لقوم يتفكرون المتمثلة في خلق النفس زوجين بينهما مودة ورحمة . آيات هي ، ليست آية واحدة . عُدَّيْهَا إِنْ استطعت يا أخت الإسلام ، إِنْ أَحْصَيْتِ ، وإلا فاشكري نعمه ، وآمني مع المؤمنين والمؤمنات بياهر آياته ، منها ما كشف ومنها ما لم يكشف .

آيات في المزاوجة والتساكن والمودة والرحمة . ما هي الذكورة ؟ ما هي الأنوثة ؟ أى إبداع وأى اختراع فى الخلق تُعْمِنَا العادة فيبطل فينا حس التعجب مما حولنا ، ومما فينا ، ومما هو من صميم كياننا الجسدي النفسي الوظيفي . تبارك الله أحسن الخالقين .

ثم تأتني بقية السياق من سورة الروم على آيات للعالمين في خلق السماوات والأرض واختلاف ألسنتنا وألواننا ، وآيات لقوم يسمعون سماع القلب والإيمان في منامنا ويقظتنا وخضوعنا تحت قهر دورة الليل والنهار ، وآيات لقوم يعقلون في ظواهر البرق ونزول المطر وحياة الأرض بعد موتها ، وآيات في طاعة الأرض والسمااء ومن فيهن لأمره سبحانه ، وآيات في بَدْئِهِ سبحانه للخلق من عدم ثم إعادتهم إلى الحياة الأبدية بعد الحياة الأولى .

أمر الله سبحانه المؤمنين والمؤمنات بحفظ فروجهن ليكون التساكن بين الزوجين اطمئنانا مبنيًا على الثقة ، ولتكون العفة فضيلة أساسية في خلق الرجل والمرأة وذعامة اجتماعية لدينهما . أثنى سبحانه على الحافظين فروجهن والحافظات في سياق متكامل أعز فيه سبحانه المسلمين والمسلمات ، والمؤمنين والمؤمنات ، والقانتين والقانتات ، والصادقين والصادقات ، والصابرين والصابرات ، والخاشعين والخاشعات ، والمتصدقين والمتصدقات ، والصائمين والصائمات . كل هذه المزايا القلبية جعلها سبحانه في سورة الأحزاب قرْشًا للثناء على الحافظين فروجهن والحافظات والذاكرين الله كثيرا والذاكرات الذين أعد لهم سبحانه مغفرة وأجرًا عظيمًا .

ما المودة والرحمة الجسديين العاطفيين بين الأزواج المؤمنين شأن منفصل عن الدين . الزواج والرحمة والمودة مُدغمَةٌ في الإيمان إدغام الجسد في الروح . أو هو إدغام الروح في الجسد ؟

نهانا الله سبحانه عن تلوث ديننا بالقبيحة العظمى : الزنى . قال عز وجل : ﴿ ولا تقربوا الزنى إنه كان فاحشة وساء سبيلاً ﴾ (١) . ومدح سبحانه مريم ابنة عمران التي أحصنت فرجها فنفخ فيها سبحانه من روحه كما نفخ في آدم عليه وعليها السلام . المحصنات عِفَّةٌ قبل الزواج لهن من الطهارة نصيب مَرِيَمِي . والمحصنات بعد الزواج العفيفات عن غير أزواجهن هن معين الطهارة في مجتمع اليوم وصَيِّبُ السلامة والخلق وشرف النسب للأجيال اللاحقة .

وقد اعتبر الشرع من أعظم الخبائث أن يكدر مكدر ما بين الزوجين من صفاء ، وأن يفسد ما بينهما من صلاح . من يفعل ذلك لص في الأعراض يستحق من مزيد الوزر ما بين شناعة التلصص على المال والمتاع وشناعة اللصوصية في الأنفس والعواطف والمودة والرحمة .

روى مسلم وغيره عن جابر رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن إبليس يضع عرشه على الماء ، ثم يبعث سراياه . فإدناهم منه منزلة أعظمهم فتنة . يجيء أحدهم فيقول : فعلت كذا وكذا . فيقول : ما صنعت شيئاً ! ثم يجيء أحدهم فيقول : ما تركته حتى فرقت بينه وبين امرأته » فيُدنيه منه ويقول : نعم أنت « فيلتزمه » . يلتزمه : يعانقه .

وروى أبو داود والنسائي عن أبي هريرة أنه صلى الله عليه وسلم قال : « ليس منا من خُيِّبَ امرأة على زوجها ، أو عبداً على سيده » .

زواج قارة للدفاع عن حصن الزوجية لكيلا يعدو عليه عادٍ من خارج . ذلك له صلاح تكميلي ومنعة . أما صلاحه من حيث المتانة الإيمانية ومن حيث تمام الرحمة

(١) سورة الإسراء الآية : ٣٢ .

والمودة بالرضى المتبادل بين الزوجين عاطفة وجسما فمرَّدهُ إلى صلاح النيات وإسعاد الغريزة . وذلك من فعل الزوجين ومسؤوليتهما . لا تُسمع الشكوى من خراب الحصن إن كان ساكناه لم يصونا ركائز بنيانه من داخل .

معاول من داخل البناء تهدد الحصن . هي هيجان الشهوة يخرّب جدرانها ، وفساد النية يهدِّم حرْمته . للإمام الغزالي في هذه النقطة كلام جميل يقول فيه : « اعلم أن هذه الشهوة (شهوة الفرج) هي أغلب الشهوات على الإنسان ، وأعصاها عند الهيجان على العقل . إلا أن مقتضاها قبيح يُستحى منه ، ويُخشى من اقتحامه . وامتناع الناس عن مقتضاها إما لعجز أو لخوف أو لحياء أو لمحافظة على جسمه » .

قلت : رحمك الله يا أبا حامد لو عشت لترى كيف تطور العقل بمسلماته الدوائية حتى أصبح الهيجان فضيلة ، واقتحام « المقتضى الشَّهْوي » حقا من حقوق الإنسان لا ينبغي لخوف ولا لحياء أن يعرقل حريته . أما المحافظة على الجسم ، ومقاومة الوباء الذي سلطه الله على الفاسقين والفساسات من معاصرينا ، فلا تنطبقُ ناطقة بهذه التقاليد البالية المتخلفة التي تسمى عفة . ما للعفة وللِفِروسات .

قال الإمام : « إن من ترك الزنى اندفع عنه إثم بهأى سبب كان تركه . وإنما الفضل والثواب الجزيل في تركه خوفا من الله تعالى مع القدرة وارتفاع الموانع وتيسر الأسباب ، لاسيما عند صدق الشهوة . وهذه درجة الصديقين » .

في حديث عند الشيخين قص رسول الله صلى الله عليه وسلم قصة ثلاثة نفر أووا إلى غار ، فانحدرت عليهم صخرة أطبقت باب الغار عليهم . تشفع أول الثلاثة بير والديه ففرج الله عليهم شيئا من الصخرة ، واستشفع الثالث بأمانته على أموال الناس فانفرجت الصخرة بعد أن دعا الثاني قال : « اللهم كانت لي ابنة عم ، كانت أحب الناس إلي . فأردتها على نفسها ، وامتنعت مني . حتى أَلَمْتُ بها سنة من السنين (عام مجاعة) فجاءتني ، فأعطيتها عشرين ومائة دينار على أن تخلي بيني وبين نفسها

ففعَلْتُ . حتى إذا قَدَرْتُ عليها قالت : لَا أَحِلُّ لَكَ أَنْ تُفُضَّ الْخَاتَمُ إِلَّا بِحَقِّهِ . فتحرَّجت من الوقوع عليها . فانصَرَفْتُ عنها وهي أحبُّ النَّاسِ إليَّ ، وتركتُ الذهب الذي أعطيتها . اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فأفْرِجْ عَنَّا مَا نَحْنُ فِيهِ » .

عفة تكاد تكون يوسفية صديقية . رفعتها النية وابتغاء وجه الله . لو كان المانع عجزاً أو خوفاً من الناس أو حفظاً للصحة لكانت دابة عجزت عن دابة .

هذا مكان النية والباعث الإيماني في إصلاح العلاقة الزوجية إصلاحاً يصونها في الدنيا عن الهلك والفتك ويدخر فضلها وثوابها لآخرة الزوجين العَفِين .

تحدث الغرباء في الدين الجاهلون فيه عن واقعية الإسلام في الشؤون الجسدية بين الزوجين ، الواقعية مفهوم محايد أرضي . نتحدث نحن عن قِقه الإحصان والعفة وما أحلَّ الله للزوجين من متاع جزاء معجلاً لعفتها ، ومساعداً أساسياً لعفتها .

قال العلامة ابن الحاج في كتابه « المدخل » : « وهو (أي الزوج) مخيرٌ في فعل ذلك (أي الجماع) أولَ الليل أو آخره . لكن أولَ الليل أولى لأن وقت الغسل يبقى زمنه متسعاً ، بخلاف آخر الليل ، فإنه قد يضيق عليه ، وقد يؤول إلى تفويت الصبح في جماعة أو إلى إخراج الصلاة عن وقتها المختار » .

قلت : في واقعية جسمية نحن غريزية أم في عبادة متكاملة ؟ « في بُضْعٍ أَحَدُكُمْ صَدَقَةٌ » قالها المصطفى المعلم صلى الله عليه وسلم .

قال ابن الحاج رحمه الله : « وينبغي له إذا عزم على الجماع بأهله أن يتحرَّزَ مما يفعله بعض العوام وهو منهي عنه . وهو أن يأتي زوجته وهي على غفلة : بل حتى يلاعِبها ويمارَحها بما هو مباح ، مثل الجَسَّة والقُبلة وما شاكل ذلك . حتى إذا رأى أنها قد انبعثت لما هو يريد منها ، وانشرحت لذلك ، وأقبلت عليه ، فحينئذ يأتيها » .

قال : « وحكمة الشرع في ذلك بينة : وذلك أن المرأة تحب من الرجل ما يحب منها . فإذا أتاها على غفلة قد يقضي هو حاجته ، وتبقى هي . فقد يشوش عليها ذلك وقد لا ينصان دينها . فإذا فعل ذلك تيسر لها الأمر وانصان دينها . ثم إذا أتاها يمثّل السنة في ذلك وهي أن يقول ما جاء في الحديث : بسم الله . اللهم جنبنا الشيطان ، وجنب الشيطان ما رزقنا » .

قال رحمه الله : « وينبغي له إذا قضى وطّره أن لا يعجل بالقيام ، لأن ذلك مما يشوش عليها ، بل يبقى هنيهة حتى يعلم أنها قد قضت حاجتها . والمقصود مراعاة أمرها ، لأن النبي صلى الله عليه وسلم كان يوصي بهن ويحض على الإحسان إليهن وهذا موضع لا يمكن الإحسان إليها من غيره » .

قلت : من كمال فقه المؤمنة أن تقتني كتابا مما يضعه الأطباء والعلماء في الموضوع .

اللهم ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار

لا تخرجوهن من بيوتهن

﴿واتقوا الله ربكم﴾ لا تخرجوهن من بيوتهن ﴿١﴾ الآية من سورة الطلاق
نزلت في المطلقات وحقهن في السكنى والنفقة أثناء العدة . وفي السورة بعد هذه
الآية آية أخرى فيها : ﴿أسكنوهن من حيث سكنتم من وجدكم . ولا تضاروهن
لضيقت عليهن﴾ ﴿٢﴾ .

أخذ الفقيه حكم الطلاق وما يجب للمطلقة من حقوق أثناء العدة . فسر إضافة
البيوت إلى النساء بأنها إسكان لا إضافة تمليك ، ثم نفى يده من القضية . وحكم
القاضي للمطلقة بسكنى مؤقتة ونفقة يقرّها القانون تقديراً . ونفى يده من القضية .

هذا وجه سافر من وجوه الفقه المنحسب الذي لم يعتبر في أخذ الأحكام إلا ما
اعتبره الفقهاء الأقدمون وما حكم به القضاة الأولون ، في زمن غير هذا الزمان ،
ومكان غير هذا المكان ، وأحوال غير ما يتقلب به الليل والنهار من أسوأ وأدواء
اجتماعية اقتصادية كلها تنزل على الزوجة المطلقة لتلقي بها في أسفل سلم البؤس
والتشرد .

الحاكم الإسلامي غدا القريب بحول الله سيواجه آلاماً من أهمها سكنى
المطلقات ، وإيواء الأزواج والبنين والبنات . فماذا يجد الحاكم المسلم في كتاب الله
وسنة رسوله مما يعطي الإضافة في « بيوتهن » مدلولاً أعم وأرفق بالمرأة من الحكم
الشرعي المجرد الذي أعطى المطلقة حداً أدنى واجباً من السكنى المؤقتة والنفقة
اللازمة أثناء العدة ؟ نستعمل كلمة « إسلامي » تارة ، وكلمة « مسلم » أخرى في
هذه الفترات الانتقالية التي اشتبه فيها « المسلم » اللايكي الذي يحكم بغير ما أنزل
الله ، وتشبهه .

(١) سورة الطلاق الآية : ١ .

(٢) سورة الطلاق الآية : ٦ .

في الفقرة السابقة تحدثنا عن البيت المسلم كيف تُشيد أركان بنائه الإنساني العاطفي ، وكيف يتساكن الزوجان في كنف المحبة والمودة والرحمة . وذكرنا شروط السكون القلبية الإيمانية ، وشروط المعاشرة والملابسة ، وذكرنا شروط تحصين بيت الزوجية من مقتحمات العدوان الخارجي ومفسدات النفوس ونزعات الشيطان .

كل ذلك لا يقرُّ له قرار ، ولا يتصور له وجود واستمرار ، إن لم تكن الماديات معتبرة « حق » اعتبار . الماديات أساسا سقف وجدران . البيت الإسلامي المنشود ما هو قصيدة شعرية متمايسة بجمال تأليفها في سماء الأحلام . البيت السكني هو الأرض التي لا منبت للبيت السكون إلا فيها .

هل السكون والمودة والرحمة بين الأزواج مقصد شرعي ؟ هل هي منة من الله عز وجل على عباده تكمل في فضاء مجرد أثيري ؟ هل هي وعدٌ مرجأ إلى جنة الآخرة ، أم هي مطلب في الدنيا المكتظة بدواعي ظلم الضعيف ، وأثقال المعاش وضروراته ؟

هل المشردة التي لا مأوى لها ولا أمان على غدها تجد متسعاً لتأمل في آيات الله فيكمل إيمانها ؟ هل المشردة التي لا مأوى لها تُربي نشأً صالحاً أو قِطعاً مشردة مثلها ؟ نطعم المومنات مثاليات ووعظيات إن رسمنا أفق المطلوب المقصود في روح القرآن وكلمة الإسلام للمرأة دون أن نرسم خريطة المسافات بين وضعية النساء في مجتمع الفتنة والتخلف والفقر والتظالم والكرهية وبين وضعية يكون فيها عنصر الاستقرار في البيت المسلم - وهي الزوج الأم - متمتعاً بوسائل الاستقرار المادي وفي مقدمتها السكنى .

ضمن الإضافة في « بيوتهن » يكمن حق المرأة في الأمن السكني . وضمن حكم توقيت السكنى والنفقة للمعتدة يكمن أمن النساء في المجتمع المسلم السوي . ذلك أن الإسلام أقرَّ مروءة التضامن والتكافل بين الأقارب ، وألح في ذلك إلحاحاً ، وأوصى به إيصاء في مثل قوله تعالى : ﴿ واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً ﴾

وبالوالدين إحساناً وبذي القربى واليتامى والمساكين ﴿١﴾ . فالمرأة في المجتمع الإسلامي السوي مكفولة بحقوق على الأب والزوج والأخ ، ثم سائر ذوي القربى وفصل الله سبحانه في كتابه المبين أمن السكنى والمأوى والملجأ في سورة النور المتضمنة لكثير من أحكام البيت وآدابه . قال تعالى : ﴿ ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج ولا على أنفسكم أن تأكلوا من بيوتكم أو بيوت آبائكم أو بيوت أمهاتكم أو بيوت إخوانكم أو بيوت أخواتكم أو بيوت أعمامكم أو بيوت عماتكم أو بيوت أخوالكم . أو بيوت خالاتكم أو ما ملكتم مفاتحه أو صديقيكم ﴾ (٢) .

سياق متكامل تقرأ فيه آيات الله وما أوجب من حق وأمر به من بر . نفهم ديننا نفا مزقة إن غفلنا عن المقاصد العليا للشرعية وأخذنا الأحكام منفصلة بعضها من بعض ، مستقلة كأنها جزرٌ منعزلة لا وصل بينها .

لا مجال لمراجعة حكم الله النهائي في حق المطلقات وسكناهن ونفقتهن ، إنما المراجعة في ملاءمة واقعنا الكلي لأمر الله الكلي . حينئذ تأخذ الأحكام المفردة مكانها وأهميتها ونسبيتها في دعم المقاصد الكلية . انتقضت عرا التضامن بين البنات والخالات والعمات منذ القرون الفاضلة التي كانت المسلمة تغشى بلا حرج ، وتأكل بلا حرج ، وتلجأ بلا حرج إلى تلك البيوت القرآنية التي كررها الله سبحانه تسع مرات في سورة النور ، وأردفها بإمكانية الأكل من عند ما نملك مفاتحه ، ومن عند الصديق .

إمكانيات و ضمانات انعدمت واندثر كثير منها إلا بقايا في المجتمعات الريفية البدوية القريبة ، لا تزال ، من الفطرة .

(١) سورة النساء الآية : ٣٦ .

(٢) سورة النور الآية : ٦١ .

كيف يُعوّض الحاكم المسلم غداً ، الراعي لمقاصد شريعة الله ، ما انحل من روابط بين البنات والخالات والعمات ؟

إن المثل الرائع الذي يُخيّل إلى بعض الإسلاميين أنه البديل القريب ليس إلا مثلاً ، نصل إلى تحقيقه إن شاء الله يوماً ، لكنه ليس البديل الجاهز ولا القريب . هذا المثل يتصور أن للمسلمة الحق في تقاضي راتب يكافئ أمومتها لتتفرغ لتربية أطفالها . لها الحق نعم ، لكن أين الإمكانات ؟

لكي تنكح المودة والرحمة الزوجية على مقومات مادية ضامنة ، ولكي تأمن المرأة زوجاً ومطلقة على غدها وغد أبنائها لا بديل في الأفق القريب عن تمكينها من استقلالها الاقتصادي . يعني هذا أنها تشتغل خارج بيتها تخطيطاً في ملفات الحاكم الإسلامي كما هي تشتغل فعلاً في واقع المجتمع المخلوط الممزق الأواصل ، القاسي على المرأة ، الذي يتكفل بإدارته الإسلاميون غداً القريب إن شاء الله .

تخطيط واسع بأن تحويل علاقات الناس من تدابر وتنافر وأنانية وكراهية إلى مثال الجسد الواحد الذي إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحُمى والسهر ليس مما تهب به الريح على جناح الارتجال . تخطيط يضع نُصب عينيه أن التضامن بين البنات والخالات والعمات وسائر البيوتات ليس مما يفرزه الفقر ، وأن الرخاء والتنمية والإعمار مطالب أساسية للنهوض بماديات المرأة والرجل ومعنوياتهما . لا تنبت الفضائل في رمال الفقر والعوز والبؤس المادي .

ريشاً يلجِمُ الفقه الإسلامي المسؤول عن تطبيق الشريعة في منظور مقاصدها العليا الطلاق ومزاجية الرجل باللجام الشرعي للحد من عوامل تشرد المرأة عن بيتها لا مناص من أن تعاني المرأة في العقود الأولى من الحكم الإسلامي معاناتها اليوم . معاناتها اليوم ناتجة عن ضرورات المعاش وفشو الفقر ، واللجام الشرعي يحد من المعاناة ، لا يُعدها . هذا اللجام هو التمتع بإحسان عند الطلاق . نعود إلى عرضه إن شاء الله في الفصل المقبل .

معاناة المرأة الكاسبة ضرورةً من بين الفقيرات الأميات ساكنات أكواخ القصدير شبيهة نوعياً لا كيفياً بمعاناة المشتغلات من الطبقة الوسطى والأعلى منها : تمزق بين البيت والمعمل أو المكتب أو المدرسة ، وضياح الأطفال .

هذا يُبعدنا ، لا يقربنا ، من المثال الذي خاطب الله عز وجل به نساء النبي أمهات المؤمنين في قوله الحكيم : ﴿ وَقرن في بيوتكن ﴾ (١) . ويبعدنا بعدا أقصى من الاستقرار القلبي الإيماني الذي قيل عنه في القرآن الكريم لأمهات المؤمنين : ﴿ واذكرن ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة * إن الله كان لطيفاً خبيراً ﴾ (٢)

أمر الله عز وجل بالأرحام أن توصل . ويلعن سبحانه المفسدين في الأرض الذين يقطعون ما أمر الله به أن يوصل . لهم اللعنة ولهم سوء الدار والمُنْقَلَب في الآخرة بما أضاعوا من حسن الصلوات في الدنيا .

إن كان من شأن القاضي والمفتي المقلد أن ينفذ يده من هم المشرّدات عن بيوتهن ، والمُعْدِمات ما لهن بيوت ، فإن الحاكم المسلم حقّ الإسلام غداً من واجبه أن يعمل وهو سلطان على تحقيق ما بشر به في أمس الدعوة من مثاليات القرآن . يعمل ويُقارب . وما للسلطان الحاكم سلطان على القلوب يلينها حتى تصل الأرحام ولا ترى حرجاً في إيواء بنت الأخ والأخت والقريب والصديق . ذلك إلى الله الرحمن الرحيم ، يقذف الرحمة في صدر من يشاء من عباده . وللدعوة والتربية الشأن الأول في ذلك بعد رحمته تعالى . وحقوق المرأة في بيت ومأوى هي الأصل تضمنه الدولة ، والتكافل وصلة الرحم شاطئاً أمان .

يوسع الإسلام هذا الشاطئ ليقطع من أرض الجوار مساحةً تلحقها بأرض القربة . في سورة النساء وصية مؤكدة بالإحسان للجار ذي القربى والجار الجنب

(١) سورة الأحزاب الآية : ٣٣ .

(٢) سورة الأحزاب الآية : ٣٤ .

والصاحب بالجنب . وفي حديث نبوي رواه الشيخان وأبو داود والترمذي عن عائشة رضي الله عنها يقول المصطفى صلى الله عليه وسلم : « ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه » .

كان الصحابة رضي الله عنهم يهدون للجار لحق جواره وإن كان كافرا . روى أبو داود والترمذي أن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما ذبح شاة وأهدى جاره اليهودي . ذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أكد الوصية للمؤمنات ربات البيوت أن لا يدعن الجارة في الأمر الجليل والصغير . قال صلى الله عليه وسلم : « يا نساء المؤمنات لا تحقرن جارة لجارتها ولو فرسن شاة » . رواه الشيخان والترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه . الفرسن ظلف رجل الشاة ، عبارة عن إسداد المعروف لجارة من كثير أو قليل . وأوصى رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا ذر قال : « يا أبا ذر إذا طبخت مرقة فأكثر ماءها ، وتعاهد جيرانك منها » . رواه مسلم .

خير الأقارب عند الله أوصلهم لرحمه ، وخير الجيران عند الله خيرهم لجاره . روى الترمذي بسند صحيح عن عبد الله بن عمرو المحسن إلى جاره اليهودي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « خير الأصحاب عند الله خيرهم لصاحبه ، وخير الجيران عند الله خيرهم لجاره » .

اللهم ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار

حضرة الحافظة

كلف الله سبحانه الرجال بمهمة القوامه ، والنساء بمهمة الحافظة في قوله جل وعلا : ﴿ الرجال قوامون على النساء بما فضل الله به بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم ﴾ فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله ﴿ (١)

في الفصل المُقبل إن شاء الله نتحدث عن القوامه . ونبدأ هنا في استكشاف وظيفة المرأة من خلال هذه الآية الكريمة ، ومن خلال التكليف العام الشامل للزوجين الرجل والمرأة في خطابه تعالى العام : ﴿ أيها الذين آمنوا ﴾ . في الخطاب العربي يُغلب التذكير في الحديث عن الجمع .

أول ما نتبين من وظيفة المرأة في الآية الكريمة أنها حافظة للغيب . كلمتان توحى إحداهما بمفهومها أن هناك ما يضيع إن لم تحفظه ، وتوحى الثانية بأن هناك غيبا وحضورا . لهذا وضعنا للفقرة عنوان « حضرة الحافظة » إشارة للمفهومين الأساسيين في المسألة .

الحفظ استمرار واستقرار هما قطب السكون في الحياة الزوجية وحياة المجتمع النساء بفطرتهن يحفظن استمرار الجنس البشري بما هن محضن للأجنة ، وحنن للتربية ، ومطعمات ، وكاسيات ومدبرات لضرورات معاش الأسرة . هن المحضن لأجسام الأنام ، والراعات لحياتهم ، والوصلة الفطرية بين أطراف البشرية ، والواسطة بين جيل وجيل .

قرأنا في الفقرة السابقة ما ينغص سكون المرأة بالخصاص في مادياتها ، وفي الفقرة قبلها قرأنا ما لا يكون بدونه استقرار من تواد وتحاب وتواصل. هنا ننظر إن شاء الله في الأهداف والمقاصد والوظيفة ، لتعرف المؤمنات ما هو الحفظ وما هو الضياع ، وليعرفن ما هو الغيب الذي إن حفظنه بما حفظ الله كن من الصالحات القانتات ، ولنن بذلك رضى الله عز وجل .

(١) سورة النساء الآية : ٣٤ .

حفظ إذاً وغيب . الحفظ وجَد ، والضيا ع تلف . ما هو أثن شيء في حياة الأمة استحق أن ينه الله تعالى عليه في كتابه الحكيم وينيط المراقبة عليه بشطر الإنسانية ، بشطر الأمة ، بشطر البيت المسلم ؟ لا شك أنها مهمة كبيرة تلك التي تعدل بين قوامه الرجل وحافظية المرأة ليحمل الرجل والمرأة عبئها . هذه المهمة هي عبادة الله تعالى ، تلك العبادة المعلولة بخوف العقاب الأخروي ورجاء الجنة ورضى المولى وقربه . هي رحلة الرجل والمرأة في دنياهما ، ومن دنياهما ، وعبر دنياهما إلى ما يرجوان من صلاح آخرتهما .

في أداء هذه المهمة ، وفي التعاون على تمام الرحلة وسلامتها ، يتكامل حضور أحد الرفيقين وغياهما . حضوره هو الفطري في مجالات الكسب والمدافعة والسعي على العيال يغيبه عن مجالات إن لم تحفظها المرأة ضاعت .

قبل أن ننظر في مجالات غيايه وحضورها نقف عند كلمات قرآنية هي المفتاح والدليل إلى توزيع المهام وتكاملها وشمولها . قال تعالى : ﴿ حافظات للغيب بما حفظ الله ﴾ (١) . ما حفظ الله . ما هنا سواء اعتبرناها موصولية أو مصدرية تؤدنا إلى قراءة : بما حفظ الله ، أي بحفظ الله ، ، بالذي حفظ الله . أي أن حافظية المرأة هي تحمل ما كلفها به الشرع ، وما حفظه الله من آياته العاصمة للشرع : ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾ (٢) .

حافظيتها إذا لا تقصر على حفظ حقوق الزوج بل تشمل كل حقوق الله المكلفة بها الزوج . حافظية الصالحات القانتات في المجتمع المسلم لا تقتصر على شغل بيوتهن وإرضاء أزواجهن ، بل تنطلق أولاً من إرضاء الله عز وجل وترجع إليه . نأخذ من حديث نبوي شريف إشارة الانطلاق . يقف المفسر والفقهاء والمحدث عند نص الحديث ودلالته المباشرة . ونتخذ نحن مفتاحاً لفهم أشمل . روى ابن جرير الطبري بسنده إلى أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « خير النساء امرأة إذا نظرت إليها سرتك ، وإذا أمرتها أطاعتك ، وإذا غبت عنها حفظتك في

(١) سورة النساء الآية : ٣٤ .

(٢) سورة الحجر الآية : ٩ .

نفسها ومالك» .

في الحديث الشريف تتميز ملامح الحافظة ، ويظهر لفظها ، في نطاق الحياة الزوجية . استقرار البيت المسلم الذي ينظر فيه الزوج إلى زوجته فستره . يعني ذلك أنه يحبها ويسكن إليها ، لأن شرطها أن تكون فاتنة الجمال الجسدي . ذلك يذبل ويبقى جمال الخلق وكمال الحافظة . البيت المسلم الذي يمارس فيه الزوج « درجة » قائد السفينة ، هو هناك مع خرائطه ، ومخططات الإبحار ، ومواجهة أهوال الموج ، وهي حافظة لما به تتغذى السفينة وتتحرك من دواليب خفية ووقود وصيانة . تطيع الربان إذا أمرها ، وتحفظ غيبه في نفسها وماله .

وها نحن على مدرجة استكمال سهام الحافظة ، ولجنا بفضل المفتاح النبوي الباب ، فنقرأ على لائحة أولويات الحافظة حفظ الأنساب ، ويقرر أولويته قوله صلى الله عليه وسلم : « من ادعى إلى غير أبيه ، أو اتحمى إلى غير مواليه فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، لا يقبل الله منه يوم القيامة صرفا ولا عدلا » . الحديث أخرجه الشيخان عن الإمام علي كرم الله وجهه . وفي حديث متفق عليه من رواية سيدنا سعد بن أبي وقاص يقول صلى الله عليه وسلم : « من ادعى أبا في الإسلام غير أبيه ، وهو يعلم أنه غير أبيه ، فالجنة عليه حرام » .

أنفس ما تحفظه نساء الأمة أنساب الأمة . لأن لفيقا من اللقطاء لا يسمى أمة ، إذ لا جامع بين مخلوقات فيه منفصلة الروابط . لهذا استحق اللعنة وحرمت عليه الجنة من استهان بحرمة النسب ، فطعن بذلك في ولاء القرابة ، وتلصص على بر القرابة ، وزور صلوات الأرحام . وكلها روابط مقدسة ، الحفاظ عليها ، والعفة ، وحفظ الفروج ، والتحصن من فاحشة الزنى ، واجب مقدس في مقدمة واجبات الحافظة .

« إذا غاب حفظته في نفسها وماله » . في نفسها عفة وشرف . في ماله تدبير للنفقة واقتصاد . وها هي المرأة دخلت على مقاصد الشريعة العليا من باب واسع .

ويعبرُ فقيه المقاصد الإمام الشاطبي رحمه الله بكلمة « حفظ » عن واجب المسلم والمسلمة ، وعن واجب الأمة ، في تحقيق ما كلفوا به . ضروريات خمس قرأنا منها

ثلاثاً. قرأنا حافظية المرأة على النسب وعلى نفسها، وهما متلازمان. ثم حافظيتها على مال زوجها. بقيت ضرورتان مما عند إمام فقه المقاصد: حفظ الدين، وحفظ العقل. هل ينحفظ شيء من أمانات النساء إن لم يكن إيمانهن باعثاً، وعقلهن مدبراً؟ وهكذا نقرأ الحافظية بمفتاح الفهم النبوي، فنجدها شاملة، مسؤولية لا تنحس في جدران بيت الزوجية، وفي هموم المعاش اليومي. الدين الذي هو رأس المقاصد وغاية الغايات، يُرَضَّع من ثدي الأمهات الصالحات القانتات الحافظات. وتعهدهن لجسوم الأطفال ونباتها وغذاها وصحتها كتعهدهن للعقل الناشئ، يأمرن بالحسن، ويزجرن عن القبيح، ويجبن عن الأسئلة، ويلقن اللغة.

ويتحدث فقيه المقاصد الإمام رحمه الله عن الحاجيات «التي يُفتقر إليها من حيث التوسعة ورفع الضيق المؤدي في الغالب إلى الحرج والمشقة». من زاويتنا لا من زاوية الأصولي الكبير نلمح ما يمكن للصالحات القانتات الكاملات عقلاً وديناً أن يساهمن به في التوسعة ورفع الحرج والمشقة. يعني أن الجانب العاطفي الإنساني الإحساني البري الذي فطرت المرأة عليه مقصد سام من مقاصد الدين.

ينظر الأصولي الإمام إلى رخص العبادات والعادات ليستدل على سعة الدين ورفع الحرج، وينظر إلى تفاصيل الأحكام ليرى كيف تحيط الشريعة حياة المسلمين بسياج من التسهيلات تضمن المصالح الحياتية، وتنظمها، وتخدم الضروريات الخمس. ونقرأ نحن من زاويتنا ما يمكن للصالحات القانتات أن يمهذهن من وعرفهن الحياة، وما يمكن أن يخدمن به من جانب لباقتهن ما لا تحققة قوة الرجل وخشونته.

ويتحدث الأصولي الإمام عن مقاصد الشريعة التحسينية فتنبه عندما يعرفها بأنها «الأخذ بما يليق من محاسن العادات، وتجنب الأحوال المدنسات، التي تأنفها العقول الراجحات. ويجمع ذلك قسم مكارم الأخلاق». نلتقي معه ونتبعه لأن الصالحات القانتات أرق من عرف الأليف، وميز الحسن والأحسن، وأورث العادات الحسنة، وترفع عن المدنسات الملوّثات، وأنف مما تأنف منه العقول الراجحات.

نودع أستاذ الفقهاء العظيم. وملتفت إلى همومنا الحالية والمستقبلية، وحاجة المسلمين إلى اجتهد يُشرك الصالحات القانتات في الجهاد العام للأمة، جهادا يخرجها من قمم قعيدة البيت الأمية غير المسؤولة، ومن يؤس الكادحة المكدودة الكاسبة قهرا وحاجة ويتما من كفالة الأقارب المشتتين بين بادية وحاضرة، ومن عناية أزواج يرمون في الشارع من بلغت الأربعين ليجدوا الفراش.

يجتهد الفقيه الأصولي فيجد في زمانه ومكانه وأحواله أشياء يحب الاحتفاظ بها ضرورة. كان دين يرضى عنه المسلمون، وأنفس يُدافع عنها حكام مسلمون، ونسل مصون لعفة المومنات وعموم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر - ولو في حدود - . وكان الوضع المالي في تلك العصور الزاهرة على كل حال وضعا متكافئا يؤتي الناس الزكاة، ويتكافل الأقرباء. وكان العقل المسلم في مأمن من غزو عقل أعنى منه وأقوى. كان العقل الأوروبي الذي نراه طاغيا في زماننا في سبات عميق.

نحتاج إلى اجتهد مشفوع بجهاد يُنصر الأمور في شمولها، ويستنبط الأحكام من أصولها. من لنا بفقهاء يستفيد من ذخائر أئمتنا دون أن يقف معها، وينحس في أفقها، ويقلد طرائقها في التفريع وتفرع التفريع إلى أن يغيب عن المنظر المشهد الكلي والأهداف الكلية، والغاية النهائية من لنا بفقهاء واجتهد بجهاد يتتلمذ مباشرة لاجتهد الصحابة رضي الله عنهم، وخاصة اجتهد الخلفاء الراشدين أبي بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم « إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران . وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر » . حديث عند البخاري. الحاكم السلطان يجتهد لأفق مفتوح، ولأهداف شاملة، ومن موقع مسؤولية، واستجابة لحاجات أب الأسرة وعائلها. وكذلك كان اجتهد الخلفاء الراشدين. فلما تقائل السلطان والقرآن، صُرف المفتي والقاضي من المجال العام السياسي، فنقلص الفقه تحت رادعين اثنين: ضغط السلطان الحاكم بأمره، وبعْد المفتي والقاضي عن المشهد العام. لهذا تقلصت الفتوى الخاصة بالمرأة مع التقلص العام والانحباس. وتلك محافظة على الموروث وتقليد، هما مما يشغل كاهل النساء ويعرقلهن عن ممارسة حافظيتهن كاملة. والحمد لله رب العالمين.

ولا تقربوا الزنى

الغناء الماجن حُداء الزنى . والنظرة المتلصصة الوقحة رسول إبليس ، والاختلاط دخول في حوزة الفتنة ، والخلو طامة .

وقد نهى الله عز وجل عباده وإماءه عن القرب من الزنى ، إذ من حرام حول الحمى يوشك أن يقع فيه . واستباحة شيء من هذه المقاربات الآثمة تورط وخطو نحو الفاحشة . فما السبيل الأقرب إلى درء هذه المفاسد المحرّبة من الزنى لنسد الثغرات التي تُفضي بالرجل والمرأة إلى مسلسل « نظرة فابتسامة إلخ » ؟

إن اللقاء بين الرجال والنساء على العهد النبوي مع البراءة والعفة والصون كان عماده الخشية من الله تعالى ، وأدبه غض البصر ، وكماله صفاء القلوب ، والشاغل عن الإسفاف فيه الجهاد الدائم للنفس والعدو .

ويعضي ذلك العهد الشريف الذي لم يكن بأي حال ملائكية ، لكن الفاحشة كانت شذوذا محاصرا بجند التبعة العامة للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . مضى العهد الحي اليقظ ، واختلطت الأقوام ، ومسلمات الفتوح وجواربها ، فانهدر الوازع الإيماني . ولم تستقر العلاقة بين الرجال والنساء في حدود العفة والصون إلا على سدّ الجدران والأبواب ، خلف الجدران النساء سجينات ، ومن ورائها الرجال طلقاء .

ما كان من براءة وحرية على عهد النبوة تحول سوء ظن وحيسا . في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت حتى المرأة المعتدة من طلاق أو موت بعل تنفس نسائم الحرية مع أن فرضها وواجبها أن لا تخرج من بيتها . أمسكها القرآن وأطلقها السنة . عند الإمام مسلم حديث فاطمة بنت قيس التي أذن لها رسول الله صلى الله عليه وسلم بالخروج من بيتها لما اثبتت إليه خوفها أن يقتحم عليها بيتها . خافت أن يدخل عليها من يسمعها كلاما بذيئا . وعند البخاري الإمام عن عائشة رضي الله عنها

أن يبيتها كان موحشا . وعند مسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أذن في الخروج لحالة جابر المطلقة لكي تشتغل في جِداد نخلها ، أي قِطافه .

يقول الفقيه القاضي أبو بكر بن العربي : « وجاء من هذا أن لزوم البيت للمعتدة شرع لازم ، وأن الخروج للحدِّث والبيِّدِ والحاجة إلى المعاش وخوف العورة من المسكن (أي الخوف من تعرض البيت للسطو) جائز بالسنة . أما الخروج لخوف البيِّدِ والتوحش والحاجة إلى المعاش فيكون انتقالا محضاً (أي انتقالا من بيت لبيت) وأما الخروج للتصرف في الحاجات فيكون بالنهار دون الليل ، إذ لا سبيل لها إلى المبيت عن منزلها . وإنما تخرج بالإسفار (الصبح الباكر) وترجع قبل الإغطاش (الظلام) وتمكِّن فحمة الليل . »

هذا هو الفقه الذي كتبه الفقيه المالكي في أول القرن السادس . وهو فقه متمسك بأذيال الكتاب والسنة . فقه أعطى المرأة في أقصى أحوالها الشرعية تشديدا على المكث في البيت حق الخروج من الإسفار بشرط الرجوع قبل تمكِّن « فحمة الليل » .

هذا الفقه المستنير بنور الشريعة هل حكَمَ الواقع أم الواقع أقصاه وأبعده لتسود العادة والعُرف وسوء الظن بالمرأة وسجنها وهي أمة خلف جدران مضاعفة ؟

الواقع يعطينا القاضي المالكي لقطعة عنه في كتابه « أحكام القرآن » فيقول : « ولقد دخلتُ نيفاً على ألف قرية من برية ، فما رأيتُ أصون عيالا ولا أعفُ نساء من نساء نابلس التي رُمي فيها الخليل عليه السلام في النار . فإني أقمتُ فيها أشهراً ، فما رأيتُ امرأة في طريق ، نهازاً ، إلا يوم الجمعة . فإنهن يخرجن إليها حتى يمتلئ المسجد منهن . فإذا قضيت الصلاة وانقلبن إلى منازلهن لم تقع عيني على واحدة منهن إلى الجمعة الأخرى . وسائر القرى ترى نساؤها متبرجات بزينة وعُطلة ، منصرفات في كل فتن وعُضلة (داهية) . وقد رأيتُ بالمسجد الأقصى عفاف ما خرجن من معتكفهن حتى استشهدن فيه . »

لم يذكر القاضي رحمه الله السنة التي زار فيها الشام ورأى استشهاده العفائف في المسجد الأقصى . والعصر كان عصر اضطراب وسيف وإحراق وملوك يثور بعضها على بعض من ترك وديلم وقبائل عجم . أم كانت هجمة من هجمات الفرنج الصليبيين ؟ التحقيق في ذلك خارج عن نطاقنا .

لا ندري بأي معيار حكم قاضينا على نيف وألف قرية بأن نساءها « متبرجات بزينة وعطلة ، منصرفات في كل فتن وعضلة » . الذي نقرأه ما بين فتوى الفقيه المتمسك بأذيال الشريعة ومشاهدة الحاج الزائر المتزعج من القرى المتبرجة المعجب أشد الإعجاب بعفاف نابلس والقدس هو أن الواقع السائب لا يرى له الفقيه المشاهد علاجاً إلا إغلاق الأبواب من الجمعة إلى الجمعة .

واقع القرى المتبرجة أفرع الفقيه فلم يجد في الإمكان صلاحاً للمرأة إلا في سجن المرأة ، ولا ضمناً لعفتها إلا تغييبها عن الأنظار . وهكذا لا حاجة لغض بصر ، ولا مدخل بين الرجال والنساء لرسل الشيطان .

ويتذكر فقيهنا رحمه الله الأمر الأول على عهد النبوة وفعل الصحابيات ، فيجادل الروافض الذين قالوا عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها : « إنها خالفت أمر الله وأمر رسوله صلى الله عليه وسلم ، وخرجت تقود الجيوش ، وتقتحم مآزق الحرب والضرب (في واقعة الجمل) فيما لم يفرض عليها ولا يجوز لها » .

قال رحمه الله : « وقال علماؤنا رحمة الله عليهم : إن عائشة كانت نذرت الحج قبل الفتنة ، فلم ترَ التخلف عن نذرها . ولو خرجت عن تلك الشائنة (على الإمام علي) لكان صواباً لها .

وأما خروجها إلى حرب الجمل ، فما خرجت لحرب ، ولكن تعلق الناس بها ، وشكوا إليها ما صاروا إليه من عظيم الفتنة ، وتهارج الناس . ورجوا بركتها في الإصلاح ، وطمعوا في الاستحياء منها إذا وقفت إلى الخلف وظنت هي كذلك . فخرجت مقتدية بالله في قوله : ﴿ لا خير في كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو

معروف أو إصلاح بين الناس ﴿١﴾ . ويقوله : ﴿ وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما ﴾ ﴿٢﴾ .

قال رحمه الله : « والأمر بالإصلاح مخاطب به جميع الناس من ذكر أو أنثى، حر أو عبد . فلم يرد الله بسابق قضائه ونافذ حكمه أن يقع إصلاح . ولكن جرت مُطاعنات وجراحات حتى كاد يفنئ الفريقان . فعمد بعضهم إلى الجمل (الذي كان يحمل عائشة رضي الله عنها) فعرقبه . فلما سقط الجمل لجنبه أدرك محمد بن أبي بكر عائشة ، فاحتملها إلى البصرة . وخرجت في ثلاثين امرأة ، قرنهن علي بها ، حتى أوصلوها إلى المدينة برة تقية مجتهدة ، مصيبة ثابتة فيما تأولت ، مأجورة فيما تأولت وفعلت ، إذ كل مجتهد في الأحكام مصيب » . انتهى المقصود من كلامه رحمه الله .

نزلنا من عالية المصَّب . من المنيع النبوي الصحابي الذي كانت المرأة فيه عالمة مجتهدة مصلحة بين الناس متحركة فاعلة برة تقية مباركة . نزلنا إلى نصف المنحدر في عصر أبي بكر القاضي الذي أعجبه شوارع نابلس التي لا تُرى فيها امرأة ولا يسمع لها فيها حس . نصف المنحدر كان فيه معيار البر والفجور ، ومعيار العفة والغرور لزوم المرأة بيتها إلا أيام الجمع . وفي الألف قرية ونيف التي زارها القاضي متهتكات لا يرى لهن صلاح إلا بالعودة كما قعدت متنسكات الشام . في تلك القرى لم يعوض بناء الجدران ما تقوض من راسخ بناء الإيمان . في تلك القرى زينة بلا حشمة ، وعطلة بلا شغل ، وفتن وعضلة . لا شغل للحرائر في بيوت تلك العهود لأن من يجرون الرحي حتى تدمى أيديهن ،

ويكنسن حتى تغبر ثيابهن لم يكن فاطمة بنت النبي وأسماء بنت أبي بكر . إنما كن وخشاً من الإماماء المعذبات في الأرض .

(١) سورة النساء الآية : ١١٤ .

(٢) سورة الحجرات الآية : ٩ .

ونُحضر شاهداً آخرَ غيورا ليصورَ لنا مشاهد من سافلة المَصَبِّ في عصرنا ،
عصر قاسم أمين وبورقيبة والثَّورة الجنسية والعهر المكشوف . كان في منتصف
الانحدار عِفَّةٌ تُقدَّرُ وتعجب . كان نهبي النفس عن الهوى ونهي الآخرين عن المنكر
فضيلة أساسية وحقا وواجبا لم يُحرزه السيف المتسلط ما دام المنكر المنهي عنه لا
يقرب من حِمَى السلطان .

نستشهد مجاهدا من أدياء عصرنا وروادهم مصطفى صادق الرافعي رحمه الله
الذي يصف المتبرجات في كتابه « وحي القلم » فيقول : « إن للثياب أخلاقاً تتغير
بتغيرها . فالتّي تُفرِّغُ الثوب على أعضائها إفراغ الهندسة ، وتُبسّ وجهها ألوان
التصوير ، لا تفعل ذلك إلا وهي قد تغير فهمها للفضائل ، فتغيرت بذلك فضائلها ،
وتحولت من آيات دينية إلى آيات شعرية . وروح المسجد غيرُ روح الحانة ، وهذه غيرُ
روح المراقص ، وهذه غيرُ روح المخدع (...) وأين أخلاق الثياب العصرية في امرأة
اليوم من تلك الأخلاق التي كانت لها من الحجاب « تبدلت بمشاعر الطاعة ، والصبر
والاستقرار ، والعناية بالنسل ، والتفرغ لإسعاد أهلها وذويها مشاعر أخرى : أولها
كراهية الدار والطاعة والنسل ، وحسبك من شرِّ هذا أوله وأخفه »

ويقول رحمه الله : « كان الحجاب معنىً لصعوبة المرأة واعتزازها ، فصار
الشارع معنىً لسهولةها ورخصها . وكان مع تحقق الصعوبة أو توهمها أخلاق وطباع
في الرجل ، فصار مع توهم السهولة أو تحقيقها أخلاق وطباع أخرى على العكس من
تلك .

« وتختَّ الشباب والرجال ضروبا من التخنُّت بهذا الاختلاط وهذا الابتذال .
وتحللت فيهم طباع الغيرة فكان هذا سريعا في تغيير نظرتهم إلى النساء ، وسريعا في
إفساد اعتقادهم ، وفي نقض احترامهم . فأقبلوا بالجسم على المرأة وأعرضوا عنها
بالقلب . وأخذوها بمعنى الأنوثة ، وتركوها بمعنى الأمومة . ومن هذا قلُّ طُلابِ
الزواج ، وكثُرُ رُؤادِ الحنا . انتهى المقصود .

ماذا نرى إن تتبعنا الخط الانحداري في تدهور شأن المرأة ؟ نرى الانحلال من ذاك الانجماع الأول . نساء الإسلام وفي مقدمتهن أمهات المؤمنين كنّ في خندق جهادي واحد مع رجال الإسلام . في منتصف المنحدر حزبان : نساء أفضل وأروع أحوالهن عفة الجدران ، ورجال أتقياء يثلج صدورهم مشاهدة نابلس وقد أصبحت قفراً من كل ما يجرح الطرف من عورات . وتنزل قرون لنشهد مع الرافعي روح الحانة والمرقص والحناء قد طردت روح المسجد من الساحة . نحن بحمد الله في بداية الصعود من الحضيض . فكيف السبيل إلى التمام ؟

شغل بلا عطله

قعيده البيت ناسكه المسجد في الجمع التي كانت تثليج صدر الفقيه السائح ماذا كان يملأ وقتها ويشتغل فراغها؟ ما وظيفتها في الحياة بصفتها مسلمة تنتمي إلى خير أمة أخرجت للناس؟ إسعاد أهلها وذويها من فرائض فطرتها وأمومتها، لكن ماذا تقدم من خدمة لأمتها؟ أن تغشى المسجد وتسمع الوعظ شيء حسن، مطر رحمة يحيي القلوب وينعش الإيمان من جمعة لجمعة، لكن أين هي من مجالس العلم ومدارس التفقه في الدين؟ أين هي من المشاركة الفعالة في الحياة الاجتماعية وفي الجهاد وفي الاقتصاد كما كانت الصحابيات يشاركن؟

في كتاب الله وسنة الرسول كُلفت المؤمنات بأمانة الحافظة، وينحدر الزمن بالمرأة فإذا هي أمانة تحفظها الجدران. وتمر القرون من انحطاط لانحطاط ومن ضعف لضعف حتى تغزونا الجاهلية غزوتها الشاملة ويحتل ديارنا الاستعمار الأوربي فيجد المسلمة مقهورة مغلقة عنها أبواب العلم، موصدة عليها أبواب البيت. ويجد الرجل لا يتصور للمرأة ولا يريد لها ومنها إلا عفة وقائية فلسفتها سوء الظن وضامنها القفل. ولا يلبث الاحتكاك بالغرب وثقافته ونسائه العاريات الكاسيات في عواصم المسلمين أن يخرج المسلمة من البيت بمباركة أمثال قاسم أمين وإمامة أمثال بورقيبة ويلقى بها في الشارع متهتكة أشد ما كان التهتك.

فما السبيل اليوم لكشف الغمة عن الأمة في شأن المسلمة؟ كيف نخرجها من سجن الجهل والأمية والعطلة والفراغ والزينة التبرجية والفتن والعصلة؟ إن جعلنا مثلنا الأعلى ناسكات نابلس كما شاهدن الفقيه منذ ثمانية قرون فلنأمن نعمل على شل شطر الأمة، وبتجزء متكامل من جسم خير أمة أخرجت للناس. جزء كامل في ذاته لولا البلى الذي أصاب الإيمان في قلب الرجل والمرأة، فلم تنفعهما خطبة الجمعة، ولم تحيى فيهما ولم تجدد معاني الحياة والمشاركة والتعاون البريء في

ميادين الجهاد والاقتصاد كما كانت التربية النبوية صنعت بالمؤمنين والمؤمنات .

حبس المرأة تعطيل ، وتجهيلها تمكين لأعدى عدو - وهو الجهل - من مقوماتنا . على المدى القريب تسمع المرأة ويسمع الرجل نداء الضرورة الحياتية ، ونداء استقلال المرأة الاقتصادي لتأمين غوائل الرجل في مجتمع الكراهية الذي كادت تنفصم فيه عرى التكامل والتراحم والتلاحم بين ذوى القربى والنسب والدين . وعلى المدى الإصلاحى لا بد أن نهى البيئة المناسبة ، ونبرمج التربية الملائمة لتضطلع المرأة المسلمة بما يكلفها به نداء الضرورات الكسبية ، وما يدعوها إليه نداء سعادتها الأخروية ، مندمجاً كل ذلك متكاملاً .

والنموذج الصحابى هو القبله لا العفة الوقائية العاطلة .

نستعرض مشاهد من حياة الصحابييات رضى الله عنهن . ونستفيد من كتاب « تحرير المرأة » للأستاذ أبي شقة ، فقد قرب فيه الشقة جزاء الله خيراً . ولا غنى للمؤمنات عن الاطلاع على حياة الصحابييات لتطمئن قلوبهن وعقولهن إلى أن النموذج الذى ينبغي أن يحتذى هو ذاك الذى رعته تربية رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وشارك فيه بنفسه ، وحضرته أمهات المؤمنين . ليس النموذج الفقهي المتشدد الذى بقي حائراً بين نصوص محررة واضحة وبين واقع الألف قرية التي سادتها الزينة والعطلة والفتن والعُضلة . حار الفقه ، فتشدد ، وسد الذرائع ، وأغلق الأبواب ، وحجّر على العقول ، وغم القلوب ، وأمات في الأجيال الناشئة في حضن السجينات ما أحيتته أمهات الجيل الأول في الفاتحين المجاهدين . مجاهدات ريين مجاهدين . ولا تربي السجينات إلا صورة من عطاتهن .

أم سليم زوج أبى طلحة جاءت بابنها أنس وهو طفل ليخدم رسول الله صلى الله عليه وسلم . فكان بعد أنساً الذي تعلم في المدرسة المحمدية ، وعلم الأمة بما رواه من أحاديث جزءاً مهماً من دينها . كان النبي صلى الله عليه وسلم يحفظ لأم سليم فضلها أن أخدمته ابنها ، فكان إذا مر بجنبات بيتها دخل عليها فسلم عليها

(رواه البخاري) . ويقول أنس : « تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم فدخل بأهله ، فصنعت أُمِّي أم سليم حيساً (جبن مصنوع بسمن وتمر) فجعلته في تَوْرٍ (إناء من حجر) فقالت : يا أنس اذهب بهذا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقل له : بعثت بهذا إليك أُمِّي ، وهى تُقرئك السلام وتقول : إن هذا لك منا قليل يا رسول الله . » (رواه مسلم) . واستضافت أم سليم رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيتها ومعه سبعون أو ثمانون رجلاً ، فأنتهم بالخبز ففتته وعَصَرَتْ عُكْتَهَا (إناء من جلد) ، تخدمُ ضيفها لا ترى في ذلك حرجاً ، ويقر ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم . وفي دواوين الحديث كثير من أخبار المؤمنين وخدمتهن لضيفهن الكريم وأصحابه .

ويخبر أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يغزو بأُم سليم ونسوة من الأنصار معه إذا غزا فيسقين الماء ويداوين الجرحى . (رواه مسلم) . ويخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه قائلاً : « رأيتنى دخلت الجنة فإذا أنا بالرميصاء امرأة أبي طلحة » . (رواه الشيخان) . الرميصاء بصيغة التصغير هي العُمِيشاء . هل هذه الكلمة من فيه الشريف صلى الله عليه وسلم عيبٌ وتحقير وتصغير ؟ كلا بل الكلمة بصيغتها التصغيرية ودلالاتها اللغوية كأنها تقول : هذه المرأة قليلة الحظ من جمال الجسم انظروا أين أو صلها إيمانها .

ونقف مع شخصية أخرى هي أسماء بنت عميس رضي الله عنها ، من ذوات الهجرتين : هاجرت مع زوجها إلى الحبشة ثم إلى المدينة . دخلت أسماء على حفصة أم المؤمنين زائرة ، فدخل عمر بن الخطاب على ابنته حفصة وعندها أسماء ، فسأل : مَنْ هذه ؟ قالت : أسماء بنت عميس . قال عمر : الحبشية هذه البحريةُ هذه قالت أسماء : نعم قال عمر : سبقناكم بالهجرة ، فنحن أحق برسول الله صلى الله عليه وسلم منكم وجاء النبي صلى الله عليه وسلم فقالت له أسماء : يا نبي الله إن عمر قال كذا وكذا ، سألتها النبي صلى الله عليه وسلم : ما قُلْتَ له ؟ قالت : قلت له كذا

وكذا قال : ليس بأحق بي منكم ، وله ولأصحابه هجرة واحدة ، ولكم أنتم أهل السفينة هجرتان . قالت أسماء بعد ذلك : فَلَقَدْ رَأَيْتُ أَبَا مُوسَى وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ يَأْتُونِي أَرْسَالاً (أفواجاً) يسألوني عن هذا الحديث ... (رواه الشيخان) .

هل كن منعزلات حبيسات بيوت تلك الأمهات العظيمات ؟ هل كان المجتمع معسكرين ، رجال هنا ونساء مغيبات ؟ يأتونها أرسالاً يتعلمون . جمعهم العلم بعد أن جمعتهم السفينة ، وجمعتهم الهجرة ، وجمعهم الإيمان .

ماذا قالت أسماء لعمر حينما تعزز عليها بالأسبقية والأحقية ؟ قالت غاضبة : كلا والله كنتم مع رسول الله يطعم جائعكم ، ويعظ جاهلكم . وكنا في دار البُعْدَاءِ البُعْضَاءِ بالحِشَّةِ . وذلك في الله وفي رسول الله . وإيمُ الله ! لأطعم طعاماً ولا أشرب شراباً حتى أذكر ما قلت لرسول الله صلى الله عليه وسلم . ونحن كنا نؤذَى ونخاف . وسأذكر ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم وأسأله . والله لا أكذب ولا أزيغ ولا أزيد عليه ...

قال الفقيه المتشدد ، ولا دليل معه : صوت المرأة عورة المرأة المثالية إذا هي الحجر الصامت ، لا يغضب ولا يرفع الصوت ! أم ترى أن أسماء حين غضبت على عمر كانت نهمس وتضع قطناً في فمها لكيلا يُعرف صوتها كما يفتي بذلك بعض بلهاء الوُعَاظِ .

أسماء بنت عميس المهاجرة المجادلة الغاضبة كيف كانت في بيتها وإسعاد ذويها ؟ عاتلة كانت عالة مُعْطَلَةٌ يُطْعَمُهَا غَيْرُهَا ؟ قال ابن هشام في السيرة بسند ابن إسحاق إلى أسماء قالت : لما أُصِيبَ جَعْفَرُ (بن أبي طالب زوجها) وأصحابه ، دخل عليّ رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد دبغتُ أربعين منّا (رطلاً) ، وعجنت عجيني ، وغَسَلْتُ بُنَيَّ وَدَهْنَتُهُمْ وَنَظَفْتُهُمْ . قالت : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اثْنَيْنِ بَيْنِي وَجَعْفَرٍ . قالت : فَأَتَيْتُهُ بِهِمْ ، فَشَمَمْتُهُمْ وَذَرَقْتُ عَيْنَاهُ (دَمَعْتُ) . فقلت : يا رسول الله بأيّ أنت وأُمِّي ما يُبْكِيكَ ؟ أبلغك عن جعفر وأصحابه شيء ؟ قال : نعم

أصيبوا هذا اليوم . (وهي معجزة أن يطلع على ذلك يومه وهم في غزوة مؤتة في الشام) . قالت : فقامت أصبح واجتمعت إلى النساء . وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أهله فقال : لا تغفلوا آل جعفر من أن تصنعوا لهم طعاماً ، فإنهم قد شغلوا بأمر صاحبهم .

هل صاحبت ورسول الله صلى الله عليه وسلم يسمع ويرفُق ويواسي ، أم أرعد وأبرق وزمجر ؟

وتزوج أبو بكر أسماء بنت عميس بعد ذلك ، فيروي مسلم أن نقرأ من بني هاشم دخلوا عليها فدخل أبو بكر الصديق وجدهم . زيارة وبراءة .

ونقرأ عن أسماء أخرى ، وهي أسماء بنت أبي بكر أخت عائشة أم المؤمنين . قالت : كنت أنقل النوى من أرض الزبير (زوجها) التي أقطعه رسول الله صلى الله عليه وسلم على رأسي ، وهي مني على ثلثي فرسخ (نحو كيلومترين) . فجئت يوماً والنوى على رأسي ، فلقيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه نفر من الأنصار . فدعاني ليحملني خلفه ، فاستحييت أن أسير مع الرجال ... الحديث رواه الشيخان .

مشتغلة لأ عاطلة . النوى علف فرس الفارس المجاهد الزبير رضي الله عنه . والمسافة بعيدة . ورفق رسول الله صلى الله عليه وسلم وتواضعة حاضران . والحياء شعبة من الإيمان ، منعها الحياء من رفقة الرجال والركوب خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم . ما منعها الشرع .

نقرأ عن أسماء الصديقية رضي الله عنها حرصها على العلم بعد أن قرأنا حرصها على جمع النوى لعلف فرس الجهاد ، وبعد أن قرأنا حياءها الذي صانها عما لا تصون عنه الجدران . قالت الصديقية : قام رسول الله صلى الله عليه وسلم خطيباً (بعد صلاة الكسوف) فذكر فتنة القبر الذي يفتتن فيه المرء . فلما ذكر ذلك ضج المسلمون ضجّة حالت بيني وبين أن أفهم آخر كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما سكث ضجيجهم قلت لرجل قريب مني : أي بارك الله فيك ، ماذا قال رسول

الله صلى الله عليه وسلم في آخر كلامه ؟ قال الرجل : قال : قد أوجي إلي أنكم في القبور قريباً من فتنة الدجال ... الحديث رواه البخاري إلى كلمة « ضجة » وروى النسائي والإسماعيلي بقيته .

وروى الشيخان أن أم الفضل بنت الحارث كان عندها ناس تَمَارَوْا يَوْمَ عرفة في صوم النبي صلى الله عليه وسلم . فاعلم كان مطلباً مشتركاً ، تسأل المؤمنة جاراها في المسجد ، ويتناقش المسلمون في بيت المسلمة . بيتها مدرسة .

وتفتح أم شريك بيتها للأضياف والإحسان . قال النبي صلى الله عليه وسلم لفاطمة بنت قيس وهي في عدة طلاقها : انتقلي إلى أم شريك - وأم شريك امرأة غنية من الأنصار عظيمة النفقة في سبيل الله ينزل عليها الضيفان - فقالت فاطمة : سأفعل ! فقال : لا تفعل ! إن أم شريك امرأة كثيرة الضيفان . وفي رواية : يأتيها المهاجرون والأنصار .

ما خلّف الرجال والنساء عن الإسلام وأحكام الإسلام وآداب الإسلام وسعة الإسلام إلا الجهل بتاريخ الإسلام وتقليد المتشددين بغير حق في الإسلام .

هَوَسُ الاختلاط

كان المسلمون الذين تتجاوز المؤمنة والمؤمن في مساجدهم ، وتسألهم عن مفردة من مفردات العلم ، قوماً نزل عليهم قوله تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى ﴾ ^(١) . وقوله : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ﴾ ^(٢) ، وبعث فيهم سبحانه النبي الأمي يزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة . كانوا من صفاء نفوسهم وزكاتها وخوفهم من الله عز وجل وَوَجَلَّ قلوبهم إذا ذُكر يضحجون فزعاً وحضوراً قلبياً مع حقائق الموت وما بعده إذا أنذروا بعذاب القبر .

كان ذلك المجتمع الذي يفد فيه الرجال أرسالاً على بيت امرأة ليسمعوا منها ، وليلتقوا العلم عنها مجتمعاً يتأمر فيه الرجال والنساء بالمعروف ويتناهون عن المنكر . لم يكن مجتمعاً ملعوناً تشيع فيه الفاحشة فيسكت العلماء ويتملصون من واجبه . في ذلك المجتمع كانت تغضب المؤمنة ، وتحتج ، وترفع شكواها إلى المقام العالي إن زعم أحد أنه أولى بالفضل منها ، وأنها أحط منه درجة في الإيمان والجهاد .

كانت روح المسجد لا روح المراقص والحانات والشواطئ معارض اللحم الأثوية هي السائدة . فحَوْفاً من أن يستعمل الإباحيون والإباحيات ما كان من لقاء وتعارف وتزاور ومذاكرة بين الصحابة رضي الله عنهم والصحابيات استعلاءً مضللاً نُسرِع إلى التأكيد أن اجتماع المؤمنين والمؤمنات في ذلك القرن الخَيْرِ عَالَمٌ آخر غير العالم الذي يتخذه الإباحيون مرجعاً ، ويتبنون فلسفته مذهباً . البؤس شاسع بين جاهلية وإسلام . الإسلام هو ذاك الذي نقرأه في السيرة النبوية حياً ، والجاهلية المعاصرة هي النموذج الأتم لما تنحط بالإنسان غرائزه لَمَّا طوى صفحة البحث عن معنى وجوده ، وجَهِلَ الله ، وكفر به ، وبالدار الآخرة .

(١) سورة الأعلى الآية : ١٤ .

(٢) سورة الشمس الآية : ٩ .

ما مقارنة اللقاء بين المؤمنين والمؤمنات في قرن النور مع لقاء الفواسق والفاسقين في هوس الاختلاط الإباحي إلا كمقارنة بهائم ترعى الأخضر واليابس مع الملائكة ، كاد طهر تلك القلوب أن يلحق الصحايات بالملائكة . كانت الملائكة تسلم على أحدهم ، وينزل جبريل عليه السلام بالتحية من عند الله لأمة أم المؤمنين خديجة .

شئان ما بين مؤمنات تغذت عقولهن وقلوبهن بالقرآن ، وتزكت نفوسهن بترية من ينزل عليه القرآن ، وما بين من ابتلعتن الفلسفة الدوائية هذه الفلسفة تقول : إن البنات يُغرغر في ضميرهن الكبت ومركبات النقص بسبب انزعاجهن عن الأولاد . تأيسن الصحة النفسية ، والعافية السكولوجية ، والعفوية والبراءة ، إن اختلطن برُفقاءهن .

فلسفة دوائية زاحفة تحتل ديار المسلمين موقعاً موقعاً . أصبح ذلك الهوس واقعاً أصبح الاختلاط أمراً مألوفاً لا تنفر منه إلا النفوس المتخلفة عن العصر المتشعبة بشيء عتيق اسمه الدين . في المؤسسات التعليمية والإدارية والاقتصادية اختلاط ينتج عنه هبوط في مردودية التعليم والإنتاج ، وفي صحة العلاقات الاجتماعية . نتج الاختلاط عن تدن في الأخلاق وانكساف في الدين ، ونتج عنه اشتغال الرجال بالنساء ، واشتغال النساء بالرجال . فلا الدنيا أفلحنا فيها ولا الآخرة نرجوها .

تبخر الحياء القطري بعد اندثار الوازع الديني . فالغرائز تقود القيم . والمستمسكات بدينهن كالعابضات على الجمر في وسائل النقل والحافلات المكتظة والقطارات . لا تشع إلا بارتياح تلك التي جرّدها من الدين ومن الحياء جو الفساد العام ، فهي في تماس جسمها مع جسوم الرجال كالسمكة تنتعش في الماء . حط في شأنها ، وإهدار لكرامتها وخنق لحريتها أن تعزلها أو تحدّثها عن حياء وحشمة .

إن نداء تحرير المرأة التحرير الدوائبي يعبئ النسوة لأن معه شاهدين اثنين ، وحجتين اثنتين . أولاهما اليأس الذي تعاني منه المرأة في بلاد المسلمين والظلم الذي يجب تغييره بالنضال الحزبي النقابي النسوي المنضوي تحت لواء عالمية المرأة المناضلة

قبل كل دين ، ودون أي دين ، ورغم كل دين . الشاهد الثاني والحجة المنعجة ضد الدين هي تزلت فقهاء الحصر والسجن في البيت ، والتجميد في الفكر ، والتكسر للعصر .

وللنضال النسوي ، والتبرج والاختلاط ، زعيمات لا يفصل في فلسفتهن وسلوكهن فاصل بين السياسة والأخلاق . فضيلة واحدة هي أم الفضائل : حرية المرأة في امتلاك جسمها ، تفعل به وفيه ما تشاء . فهي تعتني بعالم بدنها ، وتنفق مالها لتزيين ساقبها ، وتصفيف شعرها عند أشهر حلاق مختلط ، واصطفاء آخر الموضوعات ، ومنافسة الرفيقة في المكتب ، والزميلة في المهنة ، والجارة والقرية . نضال ، وحرية ، ورغد عيش ، وثقافة أمريكانية ، والإسلام العدو .

أما الكاسبة البائسة الأمية – أرملة ومطلقة وبائرة – فهمها في تحسين أوضاعها المعيشية ، كأحق ما تكون المعيشة . بوائس خادلات في بيت التبرجة المترفة ، يقدمن للضيقات المختلطين أنواع الحلال والحرام ، ويتعلمن من مشاهد الانحلال ، وكوامن الفحشاء ، ما يأتي على إسلامهن الموروث ، وما يقضى على بقايا الحياء وحواجز العفة مما تربين عليه في حضن الأم النازحة من البادية ، ومما حافظت عليه الجدة الفلاحية . وهكذا يسري فساد الاختلاط وهوسه من طبقة اجتماعية إلى طبقة . المترفات والمترفون يحسونه خمرة رائقة ، والبائسات يتجرعن علقماً انتحارياً .

يوضع السؤال على المتحجبات المتعففات ، ويستغرب مظهرهن ، ويسخر من عقليتهن المتخلفة . تسأل وتستغرب وتسخر المشغوفة بجسمها ومظهرها ، المجنون بها الرجل لماً جنته ، المفتون بها لماً فنتته ، ولماً نضب في شرايين نفسيته ونفسيته الإيمان ، ولما تغرب هو عن المسجد ، وتغربت عنها هي روح المسجد . بعدت الثقة النفسية بين مجانين الاختلاط ومجنوناته ، وبين الأبواب والأواوين الذين كانوا يضحجون في المسجد فرعاً إذا ذكروا بعذاب القبر .

مختلطات ومختلطون ، مجنونات هوس البدن وشيطان الزنى ومجنونون ،

أبهى ما تكون عند نفسها وعندهم المرأة حين تنزع عن نفسها ثيابها ملعونة بلعنة الله على شاطئ البحر . هناك يعرض الشيطان بضاعته : عرايا وعراة في وسطهم خيط لا يستر مما ثم ثيباً . أية عضلة هذه يا فقيها الجليل وبأى عارض أو سد من خرسانة نسد هذه الذريعة .

ما تعرّت النساء عن الفضيلة وعن ثياب الحشمة والحياء ما تعرين في هذا الزمن . وما صدق عليهن قول رسول الله ، وما كن أكثر استحقاقاً لما توعدهن به في قوله صلى الله عليه وسلم : « صنفان من أهل النار لم أرهما : قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس . ونساء كاسيات عاريات مميلات مائلات ، رؤوسهن كأسنمة البخت (نوع من الجمال) المائلة . لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها ، وإن ريحها لتوجد من مسيرة كذا وكذا » . أخرجه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه .

قمة التحضر والحرية الاختلاط في الشواطئ ، لا أعلى منه في سلم الترقى الإباحي إلا الخلوة بين المرأة والرجل . حرّيتها وقوة شخصيتها وما تواضع عليه المجتمع الراقي تخرس الزوج إن دخل فوجد « الصديق » في جلسة مسؤولة مع المدام . متخلف يغار على قريته .

أخزى ما يكون الاختلاط ، إن كان في الخزي دركات ، حين يخلو رجل بامرأة . وقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك نهياً مشدداً فقال : « لا يخلون أحدكم بامرأة إلا مع محرم » . فقام رجل فقال : يا رسول الله إن امرأتي خرجت حاجة ، وإني اكتتبت في غزاة جيش كذا وكذا . قال : « ارجع فحج مع امرأتك » . رواه الشيخان عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما . وروياً عن عقبة ابن عامر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إياكم والدخول على النساء » . (أى في خلوة وفي غياب ثالث أو ثالثة) . فقال رجل من الأنصار : أفرأيت الحمو ؟ قال : « الحمو الموت » . الحمو قريب من أقرباء الزوج . يستأمن ويألف البيت فيخاف أن يدخل الشيطان فينزغ .

أما ذو المَحْرَم المذكور في الحديث الأول الذي يجوز أن تخلو به المرأة فهو من حرم الله عليها الزواج منه كالأخ والعم والخال، لا ابن العم وابن الخالة أليف البيت .
نختم هذه الفقرة بنتفٍ من نثر الرافعي رحمه الله، نثر ينضج غيرة وشهامة .

قال رحمه الله : « إذا قال رجل لامرأة قد فتنته أو وقعت في نفسه « أحبك » ، أو قالتها امرأة لرجل وقع من نفسها أو استهامها ، ففي هذه الكلمة الناعمة اللطيفة كل معاني الوقاحة الجنسية ، وكل السخرية بالمحجوب ، سُخريةٌ بإجلال وتعظيم ... وهي كلمة شاعر في تقديس الجمال والإعجاب به ، غير أنها هي بعينها كلمة الجزار الذي يرى الحروف في جماله اللحمي الدهني ، فيقول : « سمين » . لهذا يمنع الدين خلوة الرجل بالمرأة ، ويحرم إظهار الفتنة من الجنس للجنس ، ويفصل بمعاني الحجاب بين السالب والموجب ، ثم يضع المؤمنين والمؤمنات في حجاب آخر من الأمر بغض البصر ، إذ لا يكفي حجاب واحد » .

ويقول رحمه الله : « وما هو الحجاب إلا حفظ روحانية المرأة للمرأة ، وإعلاء سِعْرِها في الاجتماع ، وصونها من التبذل الممقوت (...) ، والارتفاع بها أن تكون سِلعةً بائنة يُنادى عليها في مدارج الطرق والأسواق : العيون الكحيله ! الحدود الوردية ! الشفاه الياقوتية الشعور اللؤلؤية ! الأعطاف المرتجة النهود الـ ... أوليس فتياتنا قد انتهين من الكساد إلى هذه الغاية ؟ وأصبحن إن لم يُنادين على أنفسهن بمثل هذا فإنهن لا يظهرن في الطرق إلا لتنادي أجسامهن بمثل هذا » .

ويقول رحمه الله في كتابه هذا الشيق الرقيق « وحي القلم » : « لكأنا والله قد تَمَدَّد على سِيفٍ (شاطئ) البحر في إسكندرية مارداً من شياطين ما بين الرجل والمرأة ، يخدع الناس عن جهنم بتبريد معانيها وقد امتلأ به الزمان والمكان . فهو يرعش ذلك الرمل بذلك الهواء رَعشة أعصاب حية . ويرسل في الجوف نَفَخَاتٍ من جرأة الخمر في شاربها : نارَ فريد . ويطلع الشمس للأعين في منظر حسناء عريانة ألقت ثيابها وحياءها معاً . ويرخي الليل ليغطي به المخازي التي خجل النهار

أن تكون فيه » .

« ولعمري إن لم يكن هو هذا المارد ، ما أحسبه إلا الشيطان الخبيث الذي ابتدع فكرة عرض الآثام مكشوفة في أجسامها تحت عين التقى والفاجر ، لتعمل عملها في الطباع والأخلاق ، فسوّل للنساء والرجال أن ذلك الشاطيء علاج الملل من الحر والتعب . حتى إذا اجتمعوا ، فتقاربوا ، فتشابكوا ، سوّل لهم الأخرى : إن الشاطيء هو كذلك علاج الملل من الفضيلة والدين » . رحم الله الرافعي ورحمنا معه رحمة واسعة .

روح المسجد

المسجد مركز حياة المسلمين الاجتماعية والسياسية . مركز حياتهم الروحية قبل كل شيء . مكان استراتيجي فيه تعقد العقود مع الله تعالى توبةً وعزماً صالحاً ، ومنه تنطلق الحركة الجهادية ، وفيه يذكر الله ويتلقى العلم بالله وبشريعة الله . فيه الصلوات الخمس جماعة يكاد حضورها يكون فرضاً على الرجال ، لا يتخلف منهم عن الجوامع إلا شبه المنافقين . فيه الجمعة وخطبتها . فيه اللقاء الطارئ والمشورة . وإليه يعود الفضل في تربية روح الخشوع والتقوى والأخوة والتعاون والولاية بين المؤمنين والانتماء إليهم .

هل تدخل المؤمنات في جامعة المسجد مع إخوانهن المؤمنات ، أم هن فيه ضيفات ناسكات هامشيات ، يحضرن الجمع ثم يرجعن إلى بيوتهن ليقبعن فيها . تلقى شخصيتهن ، ويشطب على رقبتهن في عالم الأحياء من الجمعة إلى الجمعة ، ويحاصرن في علاقات التفاهة ؟

تبشر الصحوة الإسلامية المباركة أن نجم الهوس الفاسق يخبو بإذن الله قريباً ، وأن شمس الإسلام البازغ قرنها يعم نورها بإذنه تعالى قريباً ، وأن الأيام القرية تتمخض بقدره سبحانه عن مجتمع الفضيلة والرخاء والقوة قريباً . فما مكان المرأة في المسجد وفي معاني المسجد وتربية المسجد ، وما حظها من الاسترواح بروح المسجد وروحه يوم يظهر الله المسجد من الإسلام الرسمي والخطيب الموظف والواعظ البارد والإمام الجاهل ؟

من الناس من يتذرع بالغيرة الكاذبة أو الجاهلة ليمسك المؤمنات عن المشاركة الكاملة في حياة المسجد . من مخلفات هذه الغيرة البدعية أن فصلوا المسجد عن مصلى النساء ، وخصصوا لهن حيزاً منعزلاً ضيقاً يترجم عن نيات هذه الغيرة المحدثنة في سجن المرأة في المسجد كما هي مسجونة في البيت . هل كان مسجد

رسول الله صلى الله عليه وسلم مُتَشَقِّقاً مفصولة فيه المؤمنات عن المؤمنين ؟ هل كن فيه ضيفات راحلات أم نزيلاتٍ مكرّمات متعلّقات ؟

لرسول الله صلى الله عليه وسلم أغير من كل غيور على الدين وهو القائل : « إذا استأذنكم نساءكم بالليل إلى المسجد فأذنوا لهن » . رواه الشيخان عن عبد الله ابن عمر رضي الله عنهما . سيدنا عبد الله بن عمر معروف من بين الصحابة بتسننه وتحرّيه : روى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تمنعوا نساءكم المساجد إذا استأذنكن إياها » . فسَمِعَهُ بلال بن عبد الله فقال : والله لَنَمْنَعَنَّهُنَّ فأقبل عليه عبد الله بن عمر فسبّه سباً سيئاً ما سمعه الراوي سبه مثله قط ، وقال : أخبرك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وتقول : والله لَنَمْنَعَنَّهُنَّ ؟ روى هذا مسلم . وبلال الذي تلقى السب هو ابن عبد الله بن عمر نفسه . فانظر كيف أدبوا أبناءهم . قال ابن دقيق العيد الفقيه الجليل رحمه الله : « وأُخِذَ من إنكار عبد الله بن عمر على ولده وسبه إياه تأديب المعترض على السنن برأيه ، وعلى العالم بهواه » .

كان المؤمنات الصحابيات يحضرن صلاة الفجر في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم . تقول أمنا عائشة رضي الله عنها : « كُنْ نساء المؤمنات يشهدن مع رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة الفجر مُتَلَفَعَاتٍ بِمِرْوَطِهِنَّ (متلفعات في غِطَائِهِنَّ) ، ثم يُنْقَلِبْنَ (يرجعن) إلى بيوتهن حين يقضين الصلاة ، لا يعرفهن أحد من الغلس (ظلمة آخر الليل) » . رواه الشيخان .

وكن نساء المؤمنات يحضرن صلاة العشاء بصبيانهن والليل في أوج سلطانه . قالت أمنا عائشة رضي الله عنها : أَعْتَمَ رسول الله صلى الله عليه وسلم بالعتمة (تأخرَ عن الخروج لصلاة العشاء ، وهي صلاة العتمة وقد أظلم الليل) ، حتى ناداه عمر : نام النساء والصبيان ! فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « ما ينتظرها أحد غيركم من أهل الأرض . ولا يُصَلِّي يومئذٍ إلا بالمدينة . وكانوا يصلون العتمة فيما بين أن يغيب الشفق إلى ثلث الليل الأول » . رواه البخاري ومسلم .

يحضرن المؤمنات بصبيانهن . لم يكن ضيفات عابرات يفسدن الصلاة بحضورهن وضجيج صبيانهن . من حسن حظ الصبي في ذلك العصر المبارك أن الأمهات الفقيرات لم تكن لهن خادمة تحرس الصبيان ، فيفتح الصبي عينيه على السنة حية . ويعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم - وهو أعلم بحق الله - على بكاء الصبيان في الصلاة وعلى انشغال الأمهات فيخفف الصلاة . لا يطرد الأمهات والصبيان . قال سيدنا أنس خادم رسول الله الأمين : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسمع بكاء الصبي مع أمه وهو في الصلاة ، فيقرأ بالسورة الخفيفة » . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنى لأدخل الصلاة وأنا أريد أن أطيلها ، فأسمع بكاء الصبي ، فأتجاوز في صلاتي مما أعلم من شدة وجد أمه من بكائه » . روى الحديثين الشيخان والترمذى والنسائى .

لله وجدان أم وشفتها على صبيها تلين قلب نبي الله ، فيغير ذلك الوجدان الفطري نية نبي الله ، ويخفف الصلاة رحمة من الله بالأم والصبي ، وسنة لنعلم أن للأمهات المؤمنات مكانهن في المسجد وحقهن فيه ، لا يجادل في ذلك إلا معترض على السنة جاهل بها ، مفت برأيه .

ويحضرن المؤمنات الجمعة ، يواظبن عليها فيتعلمن من الخطبة الأسبوعية التي سنتها أن تكون مدرسة لا حفلة خطابية لتمجيد الحاكم . قالت أم هشام بنت حارثة ابن النعمان : « لقد كان ثورنا وثور رسول الله صلى الله عليه وسلم واحداً سنتين أو سنة وبعض سنة . وما أخذت (ق والقرآن المجيد) إلا عن لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يقرؤها كل جمعة على المنبر إذا خطب » . رواه مسلم . الثور قرن الخيز . فأم هشام جارة تشترك مع أمهات المؤمنين في الثور .

يحضرن المؤمنات الصلوات الخمس فيتعلمن الخشوع ، ويحضرن الجمعة وخطبتها فيأخذن القرآن ، ويصلين على الجنائز فيتذكرن الموت وما بعد الموت .

ويصلين صلاة الكسوف مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهى طويلة

شديدة ، حتى إنه يُغشى على بعض المصليات والمصلين من طول القيام في حرارة الجزيرة العربية ، وربما من شدة تأثير الخشوع . قالت سيدتنا أسماء الصديقية : « أطال رسول الله صلى الله عليه وسلم جداً حتى تجلأني الغشي ، وإلى جنبي قرنة فيها ماء ، ففتحتها وجعلت أصب منها على رأسي » . رواه مسلم . وفي رواية له قالت : « فجعلت أنظر إلى المرأة أسن مني ، وإلى الأخرى هي أسقم مني » . كن شابات ومسنات ، تنظر إحداهن إلى الأخرى فتتجلد وتتعلم الصبر مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه .

رُوحُ المسجد ما هي حضور في مواعد ، وأداء لركوع وسجود ، إنما روح المسجد الإيمان بالله ورسله واليوم الآخر . في صلاة الكسوف رأى الصحابة رجالاً ونساء رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يتأخر حتى ينتهي إلى صفوف النساء ، ويتقدم مرة أخرى . فلما فرغ من الصلاة أخبرهم قائلاً : « ما من شيء توعدونهُ إلا قد رأيته في صلاتي هذه . لقد جيء بالنار ، وذلكم حين رأيتموني تأخرت مخافة أن يصيني من لفحها . وحتى رأيت صاحب المحجن (عصاً معقوفة) يجر قصبه في النار (أمعاء) . كان يسرق الحاج بمحجنه ، فإن فطن له قال : إنما تعلق بمحجني وإن غفل عنه ذهب به . وحتى رأيت فيها صاحبة الهرة التي ربطتها فلم تطعمها ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض حتى ماتت جوعاً . ثم جيء بالجنة . وذلكم حين رأيتموني تقدمت حتى قمت في مقامي . ولقد مددت يدي وأنا أريد أن أتناول من ثمرها لتنتظروا إليه . ثم بدا لي أن لا أفعل . فما من شيء توعدونهُ إلا قد رأيته في صلاتي هذه » . رواه مسلم .

أخبرهم صلى الله عليه وسلم بما أري من آيات الله . رأي العين ، وصدقوا هم ورأوا بأعين قلوبهم . فالآخرة عندهم والجنة والنار يقين ، والمعذبون والمنعمون نماذج ما علموا من نبي الله صلى الله عليه وسلم إلا الصدق . التقى صدقه بتصديقهم ، فآمنوا بالغيب . وتفتح قلوبهم في كل صلاة وخطبة وتعليم لتلقى شحنة من الإيمان من منبع الإيمان . وتسري من قلب طاهر لقلب طاهر آيات الصدق ما بين رجال

مؤمنين ونساء مؤمنات قتلتم البيئة الروحية الجامعة المسجدية .

حب الله ورسوله جمعهم وجمعهم . وما جدران المسجد إلا وعاء يبقى فارغاً لولا روح حب الله ورسوله ، وروح الولاية في الله ورسوله . روى البزار بسند صحيح كما قال الحافظ الهيثمي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقيل له : « هذه الأنصار رجالها ونساؤها في المسجد يكون » . قال : « وما يُكيها ؟ » قال : يخافون أن تموت . قال : فخرج فجلس على منبره متعطفاً بثوب ، طارحاً طرفه على منكبيه ، عاصباً رأسه بعصابة . فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : « أما بعد أيها الناس ، فإن الناس يكثرُونَ وتَقِلُّ الأنصار حتى يكونوا كالمِلح في الطعام . فمن ولي شيئاً من أمرهم فليقبل من محسنهم ، وليتجاوز عن مسيئهم » .

حب الأنصار من الإيمان ، والولاية في الله بين المؤمنين والمؤمنات يأمرُونَ رجالاً ونساءً بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتُونَ الزكاة ويطيعُونَ الله ورسوله . ذلكن أخوات الإيمان ما تعلمت الصحابيات في مسجد رسول الله من سنة رسول الله : ومما أنزل على رسول الله . صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه مهاجرات ومهاجرين أنصارين وأنصاريات .

كان المسجد مُصلاًهن أحياناً كثيرة لا يُخلينه . إن تعذر على الواحدة حضوره ، واطمأنت الأخرى إلى أن صلاتها في قعر بيتها مقبولة عند الله ، حضرت الأخريات يطلبن العلم ويجددن الإيمان ، صفاً يصف مع الرجال .

أمرهن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن لا يمسسن طيباً إذا شهدت إحداهن صلاة العشاء كما جاء عند مسلم من حديث زينب الثقفية رضي الله عنها . ذلك لكي يخسأ الشيطان فلا يجد منفذاً من شم أنف ولا تلصص عين .

وعلمهن صلى الله عليه وسلم أن يرصصن صفوفهن خلف صفوف الرجال ، أدباً وحشمة واتقاء لفتنة مصليين رجال ، من شأن الرجال أن يفتنهم النظر أكثر مما يفتن النساء . روى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه

وسلم قال : خيرُ صفوف الرجال أولها وشرها آخرها . وخير صفوف النساء آخرها وشرها أولها . للصلاة والاصطفاف أدب ، وللاصراف أدب .

روى البخارى والنسائى وأبو داود عن أم سلمة أم المؤمنين رضى الله عنها قالت : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يمكث في مكانه يسيراً (أى بعد الصلاة) قالت : فترى - والله أعلم - لكى ينصرف النساء قبل أن يدركهن الرجال » . في رواية : « إن النساء فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم كن إذا سلمن من المكتوبة (الصلاة المفروضة) قمن » .

وتشارك المؤمنات المأمومات الإمام فى ضبط الصلاة من حيث ركعاتها وسجاداتها واليقظة إلى حرركاتها . يذكرنه إن نسي كما يذكره الرجال . فرضهن فى ذلك كفرض الرجال ، إلا أنهن لا يتكلمن . روى الشيخان عن سهل بن سعد الساعدي رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه : « ما لى رأيكم أكثرتم التصفيق من نابه (وقع له) فى صلاته شيء فليُسبَحْ . فإنه إذا سبَح التُفِت إليه . وإنما التصفيق للنساء » .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

الحجاب إذن رمز

تعبّر بحجابها وزينها عن أشواق إسلامية وروح المسجد لما تتمكن في طواياها .
فرت من الهوس والاختلاط ، لكن لم تمر بمجالس الإيمان لتروّح روح الإيمان .
وأخرى سترت شعرها وأطراف بدنّها حياءً فطرياً وتقليداً . وأخرى أعجبها زي
المتحجبات يتوّعنه فيكون زينة من الزينة . وأخرى وجدت راحة ضميرها ، وحسبت
أن صلحها مع الله يتلخص في ستر أجزاء من جسمها .

فاللباس الإسلامي المحتشم رمز في نفس اللابسة لما يعتلج في ضميرها وما
يختصم ، وهو في عين المراقب السياسي مقياس لقوة المد الإسلامي .

أما في أصل الشرع فالحجاب إذن صريح للمرأة المسلمة بالخروج من بيتها
لحوادثها وصلاتها وكسبها ومشاركتها العامة في الحياة ؛ إذ لولا ضرورة الخروج ،
ومشروعية الخروج ، لما كانت هناك حاجة لتوصية المرأة المسلمة بستر زينتها وصون
جسدها . إنما الصون وواجب الستر انقاء للأنظار الأجنبية خارج بيتها أساساً .

إن كان الستر واجباً تعصى المسلمة ربها بكشف ما لا ينبغي كشفه وكان رمزاً
للتوبة والشجاعة في مقاومة السلطة التي تلاحق المتحجبات ، ورمزاً للصمود أمام
مقاومة الأسرة وضغوط المجتمع التقليدي في مرحلة ما قبل ظهور الصحوة وانتصارها
فإن التركيز على الحجاب ، واعتباره هو الدين ، ورمي المسلمات اللاتي لما يتّح لهن
الستر بأنهن فاسقات ، من مشبطات الدعوة ، ومضلات الفهم .

قد يكون الحجاب والزي أحبولة منافقة تروّج بها الفتاة البائرة الحائرة لنفسها
ظاهرة بمظهر الظاهر . أي خفاء وراء ذلك الظهور ؟ من أية جذور باطنية يتغذى
المظهر ؟

حجاب أحبولة وحجاب سجن . من الوعاظ من يأخذ بأشد ما في مذاهب الفقه

من شدائد ، فالحجاب عنده نقاب وقفاز ولون أسود وقطنة في الفم قبل أن تتكلم المرأة فتؤذي العالم بصوتها العورة . ويؤدّ الواعظ لو تلبس المرأة جلدًا سميكًا أو تتخذ لباساً من الصفيح والقصدير إمعاناً في الشدة وتخريجاً بغير دليل شرعي في دين ما جعل الله فيه من حرج .

في هذه الوهلة العجلى نعرض أحكام الستر . وعلى المؤمنات أن يرجعن لدراسة أبي شقة العلمية فقد خصص جزءاً كاملاً من نيف وثلاثمائة صفحة للمسألة . والمؤمنة حق الإيمان من تتورع لكيلا تقلد واعظاً شاذاً سمعت شريطاً من أشرطة الملتهبة حماساً وصدقاً . ما نقصه الإخلاص في دين الله ، لكن نقصه الفقه في دين الله . والمؤمنة إن كشفت ما أمرها الشرع بستره توشك أن تصنف مع أهل النار الكاسيات العاريات . وهي إن ساهمت في ترويع الفقه الشاذ عارضت سنة رسول الله ، وساعدت على جعل الحرج في الدين ، فكذبت كلمات ربها وكتابه .

مجتهد القرن الثامن شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله أخذ بأشد آراء الإمام أحمد . أخذ برأى مروى عن شيخ المحدثين العظيم لا يبيح فيه للمرأة أن تكشف من جسمها للأجنبي ولو الظفر . وهو رأي شاذ مخالف لما عليه جمهور علماء الأمة .

لا ننقص من قيمة المجتهد الإمام أحمد ، ولا من علم شيخ الإسلام . نعوذ بالله أن نطعن في أئمة المسلمين . لكن الأئمة العظام رضي الله عنهم تلامذة صغار متواضعون أمام سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال الإمام الشافعي رضي الله عنه : « إذا صح الحديث فاضربوا بقولي عرض الحائط ! » وقال عن سلفه الإمام الأعظم أبي حنيفة : الناس عالة في الفقه على أبي حنيفة . أبو حنيفة مقدّم الفقهاء الأئمة استفناه رجل فأفتاه . فسأله الرجل : أهذا الذي قلته هو الحق الذي لا باطل معه ؟ فيجيبه أبو حنيفة رضي الله عنه في تواضع العلماء : وما يدريك ! لعله الباطل الذي لا حق معه وبكى الإمام مالك رحمه الله في مرض موته لما بلغه أن الناس تستشهد بآرائه وأقواله ، مع أنها اجتهاد قد يرجع عنه .

المجتهد مع الدليل لا مع هواه . فهو ينظر في الأدلة التي صحت عنده ليستنبط أحكاماً تُصلح حال الأمة . فاجتهاده توفيق بين الدليل ومقاصد الشريعة . يختلف رأي مجتهد عن رأي مجتهد ، ويخالف المجتهد قوله الأول إن ظهر له أجود منه . ويجتهد الفقهاء داخل المذهب فيكون الرأي الراجح والمرجوح ، والضعيف في المذهب ، وقول المتقدمين ، وقول المتأخرين ، والصحيح في المذهب ، والمشهور ، والمنصور ، والمعمول به . إلخ .

لهذا فمن يعتبر رأي فقيه هو الرأي الواحد الصواب جاهل بما هو الفقه . والمتشددون فيعصرنا يعتمدون على أقوال وآراء الإمام أحمد رضي الله عنه . فإذا أكدها واختار منها مجتهد القرن الثامن شيخ الإسلام أصبحت الكلمة النهائية في الدين . والعجيب أن آراء الإمام أحمد لم تُدَوَّن في حياته لأنه يكره ذلك . وروى عنه الناس من بعده آراءً متضاربة تعكس سير اجتهاده وتحوُّله من رأى إلى رأى في فترات حياته وتقدمه في فهم روح الشريعة . كان يريد رحمه الله أن يرجع الناس إلى الأصول . لذلك ترك للأمة « المسند » هذا الكتاب الجامع العظيم .

وترك وصيته ودلالته على النهج القويم في قوله : « إنما كانوا (يعني من أدر كهم من العلماء) يحفظون ويكتبون السنن . فأما هذه المسائل تُدَوَّن وتُكتب في الدفاتر فلست أعرف فيها شيئاً . وإنما هو رأي لعله قد يدعه غداً ، ينتقل عنه إلى غيره » .

هذه كلمات عن تاريخ انحباس الفقه وانغلاقه وتشدده .

نسمع الآن إلى مجتهد القرن الخامس ابن حزم الظاهري رحمه الله يضع أصبعنا على الدليل ، ويعرض فهمه للدليل . قال رحمه الله في « المحلى » : « وأما المرأة فإن الله تعالى يقول : ﴿ ولا يُدِين زينتهن إلا ما ظهر منها ﴾ وليضربن بخمرهن على جيوبهن » ولا يدين زينتهن إلا لبعولتهن ﴿ . إلى قوله : ﴿ ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن ﴾ . فأمرهن الله تعالى بالضرب بالخمار على الجيوب . وهذا نص على ستر العورة والعنق والصدر . وفيه نص على إباحة كشف

الوجه . لا يمكن غير ذلك » .
 ويأتي ابن حزم بحديث البخاري عن ابن عباس : « أنه شهد العيد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنه عليه السلام خطب بعد أن صلى . ثم أتى النساء ومعه بلال ، فوعظهن وذكرهن وأمرهن أن يتصدقن . فرأيتهن (يقول ابن عباس) يهوين بأيديهن يقذفنه في ثوب بلال » . قال ابن حزم : « فهذا ابن عباس بحضرة رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى أيديهن . فصيح أن اليدين من المرأة والوجه ليسا عورة . وما عداهما ففرض عليها ستره » .

قأ : ويأتي ابن حزم بدليل ثان هو قصة الفضل بن عباس الذي أُرْدَفَه رسول الله صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع ، فأنته امرأة من قبيلة خثعم تستفتيه . قال ابن عباس راوي الحديث : « فأخذ الفضل يلتفت إليها ، وكانت امرأة حسناء ، وأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم يحول وجه الفضل إلى الشق الآخر » . قال ابن حزم : « فلو كان الوجه عورة يلزم ستره لما أقرها عليه السلام على كشفه بحضرة الناس ، ولأمرها أن تسيل عليه من فوق . ولو كان وجهها مغطى ما عرف ابن عباس (يعني الفضل أخا عبد الله بن عباس راوي الحديث) أحسناء هي أم شيوها . فصيح كل ما قلناه يقينا . والحمد لله كثيرا » .

وتتخطى من القرن الخامس إلى القرن الثاني عشر ، متجاوزين اجتهاد المتشددين ، لنرى كيف يلتقي المجتهد الشوكاني رحمه الله مع ابن حزم . يقول في « نيل الأوطار » : النبي إنما فعل ذلك (أي عندما أخذ يحول وجه الفضل عن النظر إلى الخنثومية) مخافة الفتنة . لما أخرجه الترمذي وصححه من حديث علي ، وفيه : فقال العباس (والد الفضل عم النبي صلى الله عليه وسلم) : لويت عنق ابن عمك فقال (أي النبي صلى الله عليه وسلم) : رأيت شاباً وشابة فلم آمن عليهما الفتنة . قال الإمام الشوكاني رحمه الله : « وقد استنبط منه (من الحديث السابق) ابن القطان جواز النظر عند أمن الفتنة حيث لم يأمرها بتغطية وجهها ، فلو لم يفهم العباس

أن النظر جائز ما سأل ، ولو لم يكن ما فهمه جائزاً ما أقره (النبي) عليه . وهذا الحديث أيضاً يصلح للاستدلال به على اختصاص آية الحجاب السابقة (قوله تعالى عن نساء النبي : فاسألوهن من وراء حجاب) بزوجات النبي صلى الله عليه وسلم . لأن قصة الفضل في حجة الوداع (في السنة العاشرة) وآية الحجاب في نكاح زينب في السنة الخامسة من الهجرة » .

ويروي الشوكاني عن القاضي عياض الإمام المحدث المالكي قوله حكايةً لأقوال العلماء : « إنه لا يلزمها ستر وجهها في طريقها . وعلى الرجال غض البصر » .

ويلخص الشوكاني مسألة حجاب المرأة المسلمة فيقول : « والحاصل أن المرأة تُبَدَى من مواضع الزينة ما تدعو الحاجة إليه عند مزاوله الأشياء والبيع والشراء والشهادة » .

ونجد حتى في قرن سد الذرائع قرن ابن تيمية ، وعند أقرب الناس إليه تلميذه وصاحبه الحافظ ابن كثير الشافعي المذهب ، ما يخالف اختيار ابن تيمية مخالفة تامة قال في تفسيره قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَدِينُ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ﴾ ^(١) ما يلي : « وَيُحْتَمَلُ أن ابن عباس ومن تابعه أرادوا تفسير « ما ظهر منها » بالوجه والكفين . وهذا هو المشهور عند الجمهور » .

ويأتي ابن كثير بالحديث الذي رواه أبو داود عن عائشة رضي الله عنها أن اختها أسماء دخلت على النبي صلى الله عليه وسلم وعليها ثياب رقاق ، فأعرض عنها وقال : يا أسماء إن المرأة إذا بلغت الحيض لم يصلح أن يرى منها إلا هذا وأشار إلى وجهه وكفيه . حديث يُستأنس به لأن بعض المحدثين يطعنون فيه بأنه مُرسل ، لم يسمع خالد بن دُرَيْك عن عائشة . على أن للحديث ما يقويه .

ونجد الفهم المشهور عند الجمهور عند المالكي أبي بكر بن العربي قال في

(١) سورة النور الآية : ٣١ .

« أحكام القرآن » : والصحيح أنها من كل وجه (أي الزينة المباح إظهارها) هي التي في الوجه والكفين . وإنها هي التي تظهر في الصلاة وفي الإحرام عبادة ، وهي التي تظهر عادة .

ويخالف الجمهور الحنابلة المتأخرون فيقولون إن عورة الصلاة غير عورة النظر ولا دليل يقوم بذلك . كما يخالف الجمهور الدعاة إلى النقاب والقفاز اعتماداً على حديث نهى فيه النبي صلى الله عليه وسلم النساء عن لبس النقاب والقفاز أثناء الإحرام . وليس مفهوم هذا النهي إقرار لبسهما في غير الحج .

ويعتمدون على حديث ابن ماجة الذي تقول فيه أمنا عائشة : لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة وهو عروس بصفية بنت حبي ، جئن نساء الأنصار فأخبرن عنها . قالت : فتنكرت وتنقبت فذهبت . فنظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى عيني فعرفني . قالت : فالتفت فأسرعت المشى فأدركني .

غارت أم المؤمنين من ضررتها الجديدة ، وتنكرت بالنقاب . كيف أصبح لباس بعض نساء العرب يتكرن فيه ويتجملن به وينهى عن لبسه المصطفى صلى الله عليه وسلم في الحج سنة ثابتة ؟

نختم بكلمة الإمام النووي المحدث الفقيه الشافعي المذهب قال : « المشهور من مذهبنا أن عورة الحرة جميع بدنها إلا الوجه والكفين . وبهذا كله قال مالك وطائفة وهي رواية عن أحمد ... ومن قال عورة الحرة جميع بدنها إلا وجهها وكفيها الأوزاعي وأبو ثور . وقال أبو حنيفة والثوري والمزني : قدماها أيضاً ليسا بعورة . وقال أحمد : جميع بدنها إلا وجهها فقط . »

اللهم ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار

آداب اللقاء

أشدُّ غيرة على دين الله من رسول الله لا يكون ، وأعلم منه بروح الشريعة وحكمة الله جل وعلا لا يكون . فلنكف عن تقليد اجتهادات تقطعنا عن المرجع الوحيد المعصوم ، ولنقلد رسول الله صلى الله عليه وسلم في علاجه لقضية المرأة . تلك الغيرة التي آلت بالناس إلى أن يحبسوا المرأة فلا يكون لها إلا خرطان في حياتها واحدة من بيت أبيها إلى بيت زوجها ، والثانية منه إلى قبرها غيرة مرضية بدعية آثمة والمجتهد الذي منع المرأة المسلمة من إظهار ظُفرها ، والذي اختار قوله ، والذي يقتلونه في زماننا ما وجدوا من وسيلة لصد تيار الفتنة إلا سد الأبواب على المرأة . بحث المجتهد في الدليل الشرعي عما يسند همومه ويحقق أهدافه الإصلاحية . هو قدر الهدف ، واختار الوسيلة ، وأفتى في نطاق ما أتيح له من خير ، وفي حدود مكلنه وزمانه وأحواله .

وشرع الله وسنة رسول الله خالداً

هؤلاء الثابتات العائدات من انحلال الهوس ، وهؤلاء اللاتي لا يزلن في إياقهن وغفلتهن عن ربهن ، هل يجدن في دين الله وفي سنة رسول الله سعة لاستيعاب ضرورات الحياة اليومية التي تفرض على المسلمات الكدح في المعامل ، والاستغلال في الإدارة ، ولقاء الزملاء الرجال في محافل التعلم والتعليم ، ومزاولة المهن التي يلتقي فيها الرجال بالنساء كالمستشفيات والمحاكم وسائر المؤسسات الاجتماعية ؟ هل يجدن سعة في الإسلام أم يكون الفقه القاصر للإسلام عائقاً عن تصريف حياة الأمة في دائرة الشرع ، فيسقط مشروع الحكم الإسلامي لأن التقليد والحرفية والظاهرية والعَمَى عن حقائق العصر عطلت العقول وأربكت الإرادات ؟

هل نكون مسلمات إن قلدنا أئمة عظاماً أو صونا أن نضرب بأقوالهم عرض الحائط إن صح الحديث ، أم نبقى بلهواء مبتدعين في دين الله ننصر مذهب فلان

وفلان ونخذل سنة رسول الله ؟

ففي الناس رجال ونساء كالأوابد الشاردة ، بعضهم شرد عن دين الله كفراً وفسوقاً ، وبعضهم شرد جهلاً وتعصباً من حيث يظن أنه ناصر السنة . أوابد كفرت ، وأوابد كفرت ، وبدعت .

وفي الناس والحمد لله مؤمنات اشتد على هواهن ونفوسهن تكبيرهن . وشغلن بالهن أثناء الليل وأطراف النهار مضيرهن . مع المؤمنات حديثنا نعرض معهن ونستعرض مشاهد من الآداب الرفيعة للقاء بين المؤمن والمؤمنات من خلال فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم وإقراره .

قبل نزول الحجاب الخاص بأمهات المؤمنين ، والذي سنعرض له في الفقرة المقبلة بحول الله ، كان أمهات المؤمنين كعامة النساء ، منطلقات يجالسن الرجال بحضرة النبي صلى الله عليه وسلم ويؤاكلنهم ويحادثنهم .

كان الرجال والنساء تأدبوا بآداب القرآن الذي يشي الله عز وجل فيه على أب العرب إسماعيل عليه السلام الذي ربي أهله وأمرهم ونهاهم : ﴿ واذكر في الكتاب إسماعيل إنه كان صادق الوعد وكان رسولا نبياً وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة . وكان عند ربه مرضياً ﴾ (١) .

كان المؤمنات والمؤمنون المتجالسون المتأكلون يعيشون مع الوحي يومياً ، وكان ذكر الآخرة والجنة والنار ، وما فيهما ومن فيهما ، ومجالسة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومجالس الإيمان بين مؤمن ومؤمن وبين مؤمنة ومؤمنات ، قد غرست في القلوب وهذبت في النفوس مخافة الله الذي ﴿ يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور ﴾ (٢) . وكان الستر والحجاب الشرعي أدباً ظاهراً خلفه التقوى .

(١) سورة مريم الآيتان : ٥٤ - ٥٥ .

(٢) سورة غافر الآية : ١٩ .

كان غض البصر فضيلة راسخة ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجباً ، ومصافحة الرجال للنساء ممنوعة . وكان الزواج المبكر عادة عند العرب زكاهها الإسلام .

كل هذا حاصرَ الغرائز في نطاق ضيق . وقد رأينا الفقرة السابقة كيف تعامل رسول الله صلى الله عليه وسلم مع الفضل بن عباس في آخر سنة من سني النبوة . نورد هنا قصته كما أوردها الشيخان لدلالاتها البالغة . عن ابن عباس (أخي الفضل) قال : « أُرْدِفَ رسول الله صلى الله عليه وسلم الفضل بن عباس يوم النحر خلفه على عَجَزٍ راحلته . وكان الفضل رجلاً وَضِيئاً (جميلاً) . فوقف النبي صلى الله عليه وسلم للناس يفتيهم ، وأقبلت امرأة من خثعم وضيفةً تستفتي رسول الله صلى الله عليه وسلم . طفق الفضل ينظر إليها وأعجبه حسنهما ، فالتفت النبي صلى الله عليه وسلم والفضل ينظر إليها ، فأخلف بيده ، فأخذ بذقن الفضل ، فعدل وجهه عن النظر إليها » .

أمين الله على دينه هل تشنّج وأزبد وأرعَد وهو كان في موقف يفتي فيه الناس . أي كان مشهد الفضل وافتتانه بالجمال ، وما فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم به على ملائ من الناس . فكان المشهد وفعل الرسول وعلاجه للموقف فتوى فعلية مجسدة في آخر عمره الشريف صلى الله عليه وسلم .

وكانت الفتوى العملية مستمرة طول ثلاث وعشرين سنة . تثبت أن المرأة المسلمة شخص كامل الحق في المجتمع ما لزمته ولزم الرجال الآداب الشرعية . وليس هناك نص واحد في كتاب الله ولا فتوى قولية من رسول الله تمنع المسلمات والمسلمين من اللقاء والتعامل والتّحادث والتعاون .

حتى غير المسلمين ، وهم مظنةُ الفسق ، كانوا يغشون بيوت النبي ويرون أمهات المؤمنين قبل نزول الحجاب الخاص بهن . روى الشيخان عن أمنا عائشة رضي الله عنها قالت : « دخل رهط (جماعة) من اليهود على رسول الله صلى الله عليه وسلم

وسلم فقالوا : السام عليك ! ففهِمْتُهَا (السام : الموت) فقلت : عليكم السام واللعنة . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : مهلاً يا عائشة ! فإن الله يحب الرفق في الأمر كله . فقلت : يا رسول الله ! أَوَلَمْ تَسْمَعْ ما قالوا ؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فقد قُلْتُ : وعليكم » .

وتشارك أمهات المؤمنين يحملن حَظَّهن من الجهاد والرد على الكفار كما سمعنا . ويؤاسين المريض كما نقرأ في رواية البخاري عن عائشة رضي الله عنها قالت : لما قَدِم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة وعك (أصابتهما الحمى) أبو بكر وبلال . قالت فدخلتُ عليهما فقلت : يا أَبَتِ كيف تجدك ؟ ويا بلال كيف تجدك ؟ قالت : فكان أبو بكر إذا أخذته الحمى يقول :

كل امرئ مُصَبِّحٌ في أهله والموت أدنى من شراك نعله

وكان بلال إذا أُلْقِيَ عنه (كَفَّت عنه الحمى) يرفع عقيرته (صوته) ويقول :

ألا ليت شِعري هل أبِيتَ ليلةً يؤدِّي وحولي إذ خِرَّ وجَليل^(١)

وهل أَرَدَنَ يوماً مياه مَجَنَّةٍ^(٢) وهل يَدُونُ لي شامةً وطَفيلاً^(٣)

قلت : حنين إلى الوطن وشعر وأدب ترويه العالمة بلغة العرب وأشعارها وأيامها . قالت : فجئت رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرته فقال : اللهم حَبِّبْ إلينا المدينة كحبنا مكة أو أشدَّ ، وصَحَّحها وبارك لنا في صاعها ومُدَّها ، وانقل حُماها فاجعلها في الجُحفة .

وَكُنَّ أمهات المؤمنين يَسْتَضِيْفُن ويصحبن رسول الله صلى الله عليه وسلم في استضافاته . روى مسلم عن أنس أن جارا لرسول الله صلى الله عليه وسلم فارسيًّا كان طيِّبَ المَرَقِ . فصنع لرسول الله صلى الله عليه وسلم (طعاماً) ، ثم جاء

(١) إذ خِرَّ وجَليل : نباتان بمكة .

(٢) مَجَنَّة : موضع بمكة .

(٣) شامةً وطَفيلاً : جبلان بمكة .

يدعوه ، فقال : وهذه ؟ لعائشة . فقال : لا . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا . ثم عاد يدعوه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : وهذه ؟ قال : لا . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا . ثم عاد يدعوه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : وهذه ؟ قال : نعم في الثالثة . فقاما يتدافعا (يعيشي الواحد منهما إثر الآخر) حتى أتيا منزله .

لهذه تترك للمؤمنات المؤمنات أن يصفوا منهن من هذا الحديث وأمثالها الكثيرة دروس الرفق والسعة واللطف والأدب . ^١جلس عليه السلام على راس منة لما : سالة سفيح مرق طيب وضيافة . ^٢وتجيء ساعة الجد والأزمة والقتال فتشارك المؤمنات مشمرات . عن أنس قال : لما كان يوم أحد انهزم الناس عن النبي صلى الله عليه وسلم . قال : ولقد رأيت عائشة بنت أبي بكر وأم سليم وإنهما لمشمرتان أرى خدماً (خلاخيل) سوقهما ، تنقران القرب (تنقلانها بسرعة) على متونهما ، تفرغانه (أى الماء) فى أفواه القوم ، ثم ترجعان فتملأنها ، ثم تجيئان تفرغانه فى أفواه القوم . رواه الشيخان .

وبعد أن نزل الحجاب الخاص بأهبات المؤمنين الذى فرض عليهن أن لا يكلمن الناس إلا من وراء حجاب ، استمرت مشاركتهم فى حياة المسلمين بينهم . سالة لنيا سبب روى الشيخان عن عائشة رضي الله عنها قالت : « لما جاء النبي صلى الله عليه وسلم قتل ابن حارثة وجعفر وابن رواحة (في غزوة مؤتة) جلس يعرف فيه الحزن . وأنا أنظر من صائر الباب (شق الباب) . فأتاه رجل فقال : إن نساء جعفر ، وذكر من بكائهن . فأمره أن ينهاهن ، فذهب . ثم أتاه الثانية لم يطعنه ، فقال : انههن فأتاه الثالثة قال : والله غلبتنا يا رسول الله فرعمت أنه قال : احث في أفواههن التراب فقلت : أرغم الله أنفك لم تفعل ما أمرك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم تترك رسول الله صلى الله عليه وسلم من العناء .

تلك نساء جعفر : (١٤٤)

تلك نساء جعفر : (١٤٥)

وتخرج أم سلمة أم المؤمنين من حجرتها إلى المسجد لتتعلم . قالت : « كنت أسمع الناس يذكرون الحوض ، ولم أسمع ذلك من رسول الله صلى الله عليه وسلم . فلما كان يوماً من ذلك والجارية تمسطني ، فسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : أيها الناس فقلت للجارية : استأخري عني قالت : إنما دعا الرجال ولم يدع النساء فقلت : إني من الناس ! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إني لكم فرط على الحوض (أى أسبقكم هناك وأهيب لكم) فإياي لا يأتين أحدكم فيذب عني كما يذب البعير الضال ! فأقول : فيم هذا ؟ فيقال : إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك ! فأقول : سحقت . رواه مسلم .

علم تعلمته من رسول الله صلى الله عليه وسلم . فكن يعلمن الناس دينهم في حياته وبعد وفاته . روى الشيخان عن أنس أن ثلاثة رهط من الصحابة جاءوا إلى بيوت أزواج النبي يسألون عن عبادته صلى الله عليه وسلم . الحديث : وكان تعليمهن بعد وفاته صلى الله عليه وسلم مبنوياً للرجال والنساء على السواء ، وإن كانت أحكام الشريعة فيما يخص النساء أكثر مما يرد عليهن السؤال عنه .

يأتيهن النساء من بعده استمراراً لحديثه صلى الله عليه وسلم عليهن . كان يدخل عليهن يسأل عن أخوالهن ويعلمهن . دخل على أم بشر الأنصارية فسألهما : « من غرس هذا النخل ؟ مسلم أم كافر ؟ فلما أخبرته أن غارسه مسلم قال : لا يغرس مسلم غرساً . ولا يزرع زرعاً فيأكل منه إنسان ولا دابة ولا شيء إلا كانت له صدقة » رواه مسلم عن جابر . وروى الشيخان عن عائشة رضي الله عنها أنه صلى الله عليه وسلم دخل على ضباعة بنت الزبير فعلمها كيف تحج وهي وجعة تشتترط في بيتها وتقول : « اللهم محلي حيث حبستني » . ورويا أيضاً عن ابن عباس أنه صلى الله عليه وسلم دخل على أم سنان الأنصارية يسألها لم لم تحج مع الناس حجة الوداع ؟

عنايته صلى الله عليه وسلم بهن ورفقه وحرصه على تعليمهن ووصيته بالإحسان إليهن من المعلوم المشهور . ولله عاقبة الأمور .

خدمة البيت

من واجب المرأة وحققها أن تخلو في بيتها ساعات من نهار أو ليل لتتفرغ لخدمة ذريتها وإسعادهم بمعزلٍ عن المشوّشات والمعوّقات . لا يتم السكون والمودة والرحمة في البيت إذا كان وقت المرأة لا يحترم ، وإذا كانت المشقات والخدمة في البيت لا يتعاون على حملها الرجل والمرأة .

وقد شرع الله عز وجل أدب الخلوة الزوجية في أدب الوقت في قوله عز من قائل : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنَكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَلِغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ . وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهْرِ . وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ . ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ . لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ . طَوَافُونَ عَلَيْكُمْ . بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ . كَذَلِكَ يَسِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ . وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ . وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمْ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ (١) .

من علامات تربية الأطفال والبالغين تربية حسنة احترامهم لوقت الناس ، وحياة الناس الخاصة . ويثقلُ بعضهم ويتطفل ويدخل الفوضى والتغصيص في أوقات الناس وبرامجهم ، فيؤذي ويُقْذِي . فإذا كان البيت بيت دعوة وكان الوافدون عليه أرسالاً تعذر على أهل البيت أن يتسكّنوا المساكنة الطيبة . نعم بيت المؤمنة ينبغي أن يتسع ويتسع خاطرها للواردين على الدعوة ، لكن في حدود ينبغي أن تعرف .

لهذا أنزل الله عز وجل الحجاب الخاص بأمهات المؤمنين . أسْتَغْفِرُ الله مِنْ هَذَا التعليل الجزئي ، ولربنا العليم الحكيم حكمة فيما يشرع لا سبيل لنا إليها .

(١) سورة النور الآيتان : ٥٨ - ٥٩ .

كانت نساء الإسلام يُكثِرْنَ الدخول على رسول الله صلى الله عليه وسلم. روى الشيخان عن سعد بن أبي وقاص أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه استأذن على رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً وعنده نساء من قريش « يكلمنه ويستكثرنه عالية أصواتهن » ورسول الله صلى الله عليه وسلم يضحك ، فانقبضن من عمر وأبتدرن الحجاب ، وقلن لعمر لما عاتبهن على عدم هيبتهن لرسول الله صلى الله عليه وسلم : أنت أفظ وأغلظ من رسول الله صلى الله عليه وسلم .

كان عمر يريد لبيت رسول الله صلى الله عليه وسلم الحرمة والهيبة . روى البخاري عن أنس أن عمر قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : يا رسول الله يدخل عليك البر والفاجر ، فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب . فأنزل الله تعالى آية الحجاب في صبيحة عرس أمنا زينب رضي الله عنها في قصة رواها الشيخان تأخذ من مسلم إحدى رواياته .

عن أنس رضي الله عنه قال : تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فدخل بأهله (أمنا زينب) . قال : فصنعت أُمِّي أُمَّ سُلَيْمٍ حَيْسًا (حلوى من تمر وسمن وأقط) فجعلته في ثَوْبٍ (إناء كالقدر) فقالت : يا أنس اذهب به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقل : بعثت بهذا إليك أُمِّي ، وهي تقرُّك السلام وتقول : إن هذا لك منا قليل فقال (النبي صلى الله عليه وسلم لما جاءه بالثور) : ضعه . ثم قال اذهب فادع فلاناً وفلاناً وفلاناً وفلاناً ومن لقيت . قال : فدعوت من سمى ومن لقيت . قال (الراوى عن أنس) : قلت لأنس : عددكم كانوا ؟ قال : زهاء ثلاثمائة . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا أنس ، هات الثور . قال : فدخلوا حتى امتلأت الصفة والحجرة . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ليتحلّق عشرة عشرة ، وليأكل كل إنسان مما يليه . قال : فأكلوا حتى شبعوا . قال : فخرجت طائفة ، ودخلت طائفة ، حتى أكلوا كلهم . فقال لي : يا أنس ، ارفع . فرفعت ، فما أدري حين وضعت كان أكثر أم حين رفعت .

قال : وجلس طوائف منهم يتحدثون في بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم، ورسول الله صلى الله عليه وسلم جالس، وزجته موليّة وجهها إلى الحائط. فشقلوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم على نساءه ثم رجع . فلما رأوا (أي الثقلاء) رسول الله صلى الله عليه وسلم قد رجع، ظنوا أنهم قد ثقلوا عليه . قال : فابتدروا الباب، فخرجوا كلهم. وجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أرخى الستّر، ودخل وأنا جالس في الحجر . فلم يلبث إلا يسيراً حتى خرج علي وأنزلت هذه الآيات، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم وقرأهن على الناس : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ...﴾ (١) . إلى آخر الآية قال أنس : أنا أحدث الناس عهداً بهذه الآيات .

يعني أنه أول من حضر نزولها وقراءة النبي صلى الله عليه وسلم لها . وتقرأ المومنات من سورة الأحزاب ما يخص أمهات المؤمنين من خطاب وآداب ابتداء من الآية ٢٨ . وآية حجاب أمهات المؤمنين الذي فرض عليهن وعلى المؤمنين أن لا يُسألن ولا يُكلمن إلا من وراء حجاب في الآية ٥٣ من سورة الأحزاب . وإن دراسة هذا السياق من الأحزاب كدراسة سورة النور وحفظها لما يتأكد على طالبات العلم يدينهن .

في رواية للبخاري أن النبي صلى الله عليه وسلم وضع يده على خيصة أم سليم وتكلم بما شاء الله . دعاء وبركة ، وإناء صغير يأكل منه ثلاثمائة رجل حتى يشبعوا ثم يبقى ملآن . هذه معجزة من معجزاته الكثيرة صلى الله عليه وسلم . لم يؤمنوا ولم يؤمن الصحابة والصحابيات رضي الله عنهم ذلك الإيمان اليقيني إلا بعون من الله تعالى وتأيد تمثل من بين ما تمثل في حدوث هذه المعجزات التي صحبت حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم كما صحبت حياة الرسل من قبله . ما الإقناع العقلي

(١) سورة الأحزاب الآية : ٥٣ .

وحده أخصعهم وأقنعهم . بل أقنعهم خرق النواميس الحسية وهم يشهدون وينظرون
ويأكلون ويشربون .

معجزاته صلى الله عليه وسلم تتقدمها معجزة القرآن الخالدة . ومع نزول آياته
النبات التي أفحمت فصاحة العرب وأعجزتها ، كانت الآيات الكونية الكثيرة تُفحم
عقولهم . معجزة انشقاق القمر ، معجزات الإخبار بالغيب مما وقع ويقع ، ومما في
الدنيا والجنة والنار ، وتكليم الجمادات والنباتات إيّاه ، وتسليم الأحجار عليه ، وإتيان
النحلة إليه لما سأله الأعرابي ذلك دليلاً على نبوته ، وسمع الصحابة الجذع الذي كان
يخطب عليه يحزن ويثن لما استبدلوا به منبراً ، وزيادة الطعام والشراب ، ونبع الماء من
بين الأصابع الشريفة ، وإجابة الدعاء ، ونزول المطر بدعائه ، وكف الأعداء عنه .
وقبل كل شيء معجزة شخصيته وكمال خلقه وصدقه وأمانته .

كانت المعجزة مكوناً مألوفاً في حياة الصحابة . كانت المعجزة مظهراً ودليلاً
على أنه بشر لا كالبشر . ويتم كمال النبي بكمال الخلق البشري . من قيمة التميز
بالخوارق والعلم الغادق إلى التواضع والبساطة واللطيف . عند البخاري أن الأسود ،
أحد التابعين ، سأل عائشة رضي الله عنها ما كان يصنع النبي صلى الله عليه وسلم
في بيته . فقالت : « كان يكون في مهنة أهله ، تعني خدمة أهله ، فإذا حضرت
الصلاة خرج إلى الصلاة » . المهنة لغة « الحِذْق بالخدمة والعمل » . وفي شمائل
الترمذي تروي عمرة عن عائشة قالت : « ما كان إلا بشراً من البشر ، يغلي ثوبه ،
ويحلب شاته ، ويخدم نفسه » . وعند الإمام أحمد وابن حبان من رواية عروة عنها
أنه صلى الله عليه وسلم يخطط ثوبه ، ويخفف نعله . زاد ابن حبان : ويرقع دلوّه .
وزاد الحاكم في الإكليل : ولا رأيته ضرب بيده امرأة أو خادماً .

من يستطيع أن يُخْجِلَ الأزواج الأنانيين ، خاصة في عصرنا والمرأة موزعة
الأوقات مكدودة ؟ في البوادي شظف العيش ، وجلب الماء ، والأشغال الزراعية
زيادة على مهنة البيت . وفي مدن الإسمنت والسكنى المتأزمة ، والقساوة ، تعاني

المرأة موظفة أو عاملة كادحة أو مثقلة بالذرية عناءً مضاعفاً . من يقرأ على الرجال سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيته وفي مهنة أهله حتى تذوب الأنانيات ، وحتى يعتبر المؤمن أنه شرف عظيم له وسنة تكمل دينه أن يضع يده في شؤون البيت ليساعد ؟ لكن من نقصت قيمته عند نفسه وفي حقيقة الأمر يتنفخ في البيت ويهين الزوج في البيت .

تصبر الزوج على خذلان الأناني المستكبر في بيتها ، أو تشكو إلى القاضي . استنبط فقهاؤنا الأعلام رضي الله عنهم أحكاماً ليضعوا في فم الأناني من الأزواج لجام الإلزام ، لما لم تمل عليه رجولته التواضع والبذل ومساعدة الضعيفة المغلوبة . اتفق فقهاء المذاهب على أن الزوج المוסر تلزمه نفقة خادم لزوجته كما تلزمه نفقتها ونفقة أولادها . عدوا ذلك معاشرة بالمعروف من قوله تعالى : ﴿ وعاشروهن بالمعروف ﴾ ^(١) . وهذا فقه الإمام البخاري الذي أورد حديث عائشة في أماكن منها « كتاب النفقات » من صحيحه .

حكم الإلزام بنفقة خادم على المוסر من الأزواج رادع يفصل النزاعات . متى وصل الحال بالزوجين إلى المحكمة والقاضي فقد تودع من المطلوب . والأصل أن تخدم المرأة بيتها حاملة من مشقة ذلك مثل ما يحمل الرجل من مشقة الكد خارج البيت . حافظة . وقوامه تتألف القلوب فيما بينها على الرفق والتراحم والتعاون .

لما شكت فاطمة الزهراء رضي الله عنها إلى أبيها سوء الحال من معاناة الرحي وجلب الماء حتى مجلت اليد وأثر حبل القربة في النحر الشريف واغبرت الثياب من الكنس لم يسعفها بخادم ، ولا سأل عليها السلام نفقة خادم ، وهو كرم الله وجهه كان من أفقر المهاجرين ، إنما علمها وعلمه التسبيح وقال لها : « اتقي الله يا فاطمة ، وأدي فريضة ربك ، واعمل على عمل أهلك » . رواه الشيخان والترمذي وأبو داود عن علي بن طالب رضي الله عنه .

وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم لأحب أهله إليه فاطمة نصيحة إلى كل مؤمنة أن لا ترهق الأبنائي في بيتها بالمطالب ، بل تُخجله بالتفاني في خدمة بيتها و « عمل أهلها » .

وهذه سيدة عظيمة من الصحابيات ، أسماء بنت أبي بكر ، تصف مهنتها في عمل أهلها وخدمة بيتها . نورد طرفاً من حديث رواه الشيخان عنها . قالت : « تزوجني الزبير وما له في الأرض من مال ولا مملوك ولا شيء غير فرسه ، فكنت أعلف فرسه وأكفيه مؤنته (أى مشقته) وأسوسه . وأدق النوى لناضحه (جمل يُجلب عليه الماء) فأعلفه ، وأستقي الماء ، وأخرزُ غربه (أرقع الدلو) ، وأعجن . ولم أكن أحسن أخبز . فكانت تخبز لي جارات من الأنصار ، وكن نسوة صدق . قالت : وكنت أنقل النوى » .

رجالُ العلية من الصحابة ونساؤها كانوا في جهاد . فرس الزبير كان ثالث ثلاثة أفراس في غزوة بدر . وكان لقلة الخيل وشرفها تسمى الخيل بأسماء كما يسمى الأبناء . اسم الفرس الذي علفته وساسته الصديقية وحملت مؤنته عن زوجها « اليسوب » .

وتخدم أمهات المؤمنين بيوتهن وضياف رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لا يرين في ذلك إلا واجباً وشرفاً . يروى مسلم عن جابر أنه أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أتى بعض حجر نسائه فدخل عليها الحجاب ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « هل من غداء ؟ » فقالوا : نعم . فأتني بثلاثة أقراص ، فوضعت على نبي (على شيء مرتفع) . فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم قرصاً فوضعه بين يديه وأخذ قرصاً آخر فوضعه بين يدي ضيفه ، وكسر الثالث نصفين ، أعطى الضيف نصفاً وأخذ نصفاً . ثم قال : « هل من أدم ؟ » فلم يكن عند أم المؤمنين إلا خلّ اتندم به رجلان ممن من الله عليهما ، ليتعلم من بعدهما طرْح الكُلْفِ .

وفى « كتاب النكاح » من صحيح البخارى : « باب قيام المرأة والرجال فى العرس وخدمتهم بالنفس » . اورد فيه عرس ابي اسيد وام اسيد... حفلة حضرها رسول الله صلى الله عليه وسلم واصحابه ، خدمتهم العروس نفسها ، صنعت الطعام وقربتة اليهم . واتخذت رسول الله صلى الله عليه وسلم بتمرات بلتها وقدمتها اليه فى تور مصنوع من حجارة .

ذلك كان من سعدا وسعادتها . وتلك كانت سنة البساطة والتواضع والخدمة . والحمد لله رب العالمين .

الفصل الثالث

المؤمنة زوجاً وأماً

- * سمع الله قولها
- * الميثاق الغليظ
- * اختيار الزوج
- * زواج عقل أو زواج حب
- * خاتم من حديد
- * مُدَّانٍ من شعير
- * تعدد الزوجات
- * القوامة والوصية
- * الرجل الخشن
- * الجنة عند رجلها

سمع الله قولها

زواج المرأة تمام رشدها ، وبيت الزوجية حصنها وبرجها . إن خرجت من حرمة آدابها ، أو هجمت على الزواج وهي جاهلة بما لها وعليها من جانبي الشرع والطبع ، من جانبي الخلق والتخلق ، وإن هي لم تصبر وتصابر وتحمل نصيبها من مجهود التألف والملاءمة ، ولا قامت بواجبها في الحافظة على الشمل أن ينثر ، غامرت بحياتها . وإن هي أساءت اختيار الزوج ، أو تنمس لها قبل الزواج ثم أذاقها بعده من الجور ما لا يحتمل ، تحول بيتها إلى سجن وعذاب ، لا استقرار فيه ولا استمرار .

ندخل مستعينين بالله العلي العظيم إلى هذا الفصل من خصوص قضية امرأة ظلمها زوجها ، فاشتكت إلى رسول الله ، فسمع شكواها الله . ذلك لتعجيل عن الله أن القضية التي سمع فيها رب العباد جل شأنه شكوى المظلومة ما هي بالقضية النافهة ابتأست قضية المرأة وانتكست منذ عهد التنزيل ، فإحياء أصدقاء ذلك الاستماع الإنجي في نفوس الأزواج من شأنه أن يثير فيهم خوف الله تعالى ، فينصروا قضية امرأة أول ما ينصرونها زوجاً وأماً . في قصة المظلومة التي نقرأ عنها أول السورة التي سميت بنازلتها ، سورة « المجادلة » ، اللوم للزوج والتفريع والتوبيخ . وكفارة الظهار عقاب لكل رجل تدفعه نزوة غضبه إلى القول المنكر والزور المزور .

أما التالون للقرآن والتاليات بقلوب حاضرة وجلية ، فالدرس إليهم من قصة المجادلة ، واسمها خولة بنت ثعلبة ، يتجاوز النازلة النوعية ليدكرهم بحق الزوج على زوجها ، وحرمتها عند ربها ، فيقرها وينصفها ضعفين ، إلا أن يكون هو من معدن خسيس أو تكون هي لئيمة الطبع ، معكوسة الفطرة .

روى البخاري والنسائي عن أمنا عائشة رضی الله عنها قالت : الحمد لله الذي

وَسَمِعَ سَمْعَهُ الْأَصْوَاتَ . لَقَدْ جَاءَتْ الْمُجَادِلَةُ خَوْلَةً إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَكَلِمَتُهُ فِي جَانِبِ الْبَيْتِ . وَمَا أَسْمَعُ مَا تَقُولُ . فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ ... ﴾ (١) إِلَى آخِرِ الْآيَةِ .

فِي رِوَايَةِ لَابِنِ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ عَائِشَةَ : « تَبَارَكَ الَّذِي أَوْعَى سَمْعُهُ كُلَّ شَيْءٍ . إِنْ لَأَسْمَعَ كَلَامَ خَوْلَةَ بِنْتِ ثَعْلَبَةَ ، وَيَخْفَى عَلَيَّ بَعْضُهُ ، وَهِيَ تَشْتَكِي زَوْجَهَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَهِيَ تَقُولُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ! أَكَلْتُ مَالِي ، وَأَفْتَيْتُ شَبَابِي ، وَنَثَرْتُ لَهُ بَطْنِي (وَلَدْتُ لَهُ أَوْلَادًا) . حَتَّى إِذَا كَبُرَتْ سَنِّي ظَاهَرَ مِنِّي . اللَّهُمَّ إِنِّي أَشْكُو إِلَيْكَ » . قَالَتْ عَائِشَةُ : فَمَا بَرَحَتْ حَتَّى نَزَلَ جِبْرِيلُ بِهَذِهِ الْآيَةِ : « قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا » .

كَانَ سَمَاعُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ شَكَاوَهَا ، وَإِشْكَاؤَهَا وَعِقَابُ الزَّوْجِ الْجَائِرِ ، دَرَسًا اسْتَوْعَبَهُ الصَّحَابَةُ . رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ بِسَنَدِهِ أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ ، فِي خِلَافَتِهِ ، لَقِيَتْهُ امْرَأَةٌ يُقَالُ لَهَا خَوْلَةُ بِنْتُ ثَعْلَبَةَ . وَهُوَ يَسِيرُ فِي النَّاسِ . فَاسْتَوْفَقَتْهُ فَوْقَ لَهَا ، وَدَنَا مِنْهَا ، وَأَصْغَى إِلَيْهَا رَأْسَهُ ، وَوَضَعَ يَدَيْهِ عَلَى مَنْكِبَيْهَا ، حَتَّى قَضَتْ حَاجَتَهَا وَانْصَرَفَتْ فَقَالَ رَجُلٌ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ حَبَسْتَ رِجَالَاتِ قَرِيْشٍ عَلَى هَذِهِ الْعَجُوزِ قَالَ عُمَرُ : وَيَحْكُ وَتَدْرِي مَنْ هَذِهِ ؟ قَالَ : لَا قَالَ هَذِهِ امْرَأَةٌ سَمِعَ اللَّهُ شَكَاوَهَا مِنْ فَوْقِ سَبْعِ سَمَاوَاتٍ ، هَذِهِ خَوْلَةُ بِنْتُ ثَعْلَبَةَ وَاللَّهِ لَوْ لَمْ تَنْصَرَفْ عَنِّي إِلَى اللَّيْلِ مَا انْصَرَفْتُ عَنْهَا حَتَّى تَقْضِيَ حَاجَتَهَا إِلَّا أَنْ تَحْضُرَ صَلَاةَ فَأُصَلِّيَهَا ثُمَّ أَرْجِعَ إِلَيْهَا حَتَّى تَقْضِيَ حَاجَتَهَا .

فِي رِوَايَةِ أَنَّ عُمَرَ مَرَّ عَلَيْهَا عَلَى حِمَارٍ وَالنَّاسُ مَعَهُ ، فَاسْتَوْفَقَتْهُ طَوِيلًا وَوَعظته ، وَقَالَتْ : يَا عُمَرُ قَدْ كُنْتُ تُدْعَى عُمَيْرًا ثُمَّ قِيلَ لَكَ : عُمَرُ ، ثُمَّ قِيلَ لَكَ : أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ فَاتَّقِ اللَّهَ يَا عُمَرُ ! فَإِنَّهُ مَنْ أَيقَنَ بِالْمَوْتِ خَافَ الْفُتُورَ ، وَمَنْ أَيقَنَ بِالْحِسَابِ خَافَ الْعَذَابَ .

من أي شيء نعجبُ في أزمنتنا هاته التي تأله فيها الحكام وتفرعنوا ، وأهينت المرأة وأزدرى بها ؟ أمن تواضع عمر وحلمه وعدله ، أم من شجاعة عجز مؤمنة ؟ وما لهن لا يكن صريحات في الحق ، وما لهن لا يكون منهم أمثال عمر وقد ربتهم النبوة ورباهم الوحي ؟

أم عِمارة - تلك التي ثبتت في أحد لما انهزم كثير من الرجال وقاتلت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بسيفها - أتت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت له كما يروي ذلك عنها الترمذي بسند حسن : « ما أرى كل شيء إلا للرجال وما أرى النساء يذكرن بشيء » قالت : فنزلت الآية : ﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ (١) .

عربية تعلم بسليقتها أن لسان العرب الذي أنزل به القرآن يغلب صيغة المذكر إذا كان الجمع المخاطب أو المُخْبِر عنه رجالاً ونساء . ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ بلسان العرب خطاب جامع . لكنها لشجاعته في الحق طلبت مزيد بيان واحتجت . أكنُ نساء الإسلام نكرات جامدات !؟

كلا ، ولا كان المسلمون والمؤمنون من الجور كما كان زوج خولة الذي قال لها قولة الزور والمنكر : أنت علي كظهر أمي ، كلمة جاهلية من رواشب ماضي مظلم ولا كان الغضب يملكهم ، بل كانوا من الطمأنينة والرفق على حذر الربى المعصوم صلى الله عليه وسلم .

روى البخاري عن أنس رضي الله عنه قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم

(١) سورة الأحزاب الآية : ٣٥ .

عند بعض نسائه ، فأرسلت إليه إحدى أمهات المؤمنين بصحفة (إناء) فيها طعام . فضربت التي النبي صلى الله عليه وسلم في بيتها يد الخادم ، فسقطت الصحيفة فانفلقت ، فجمع النبي صلى الله عليه وسلم فلَقَّ الصحيفة ، ثم جعل يجمع فيها الطعام الذي كان في الصحيفة ، ويقول : غارت أمكم ثم حبس الخادم حتى أتني بصحفة من عند التي هو في بيتها . فدفع الصحيفة الصحيحة إلى التي كسرت صحفتها ، وأمسك المكسورة في بيت التي كسرت فيه .

رجعنا من الاستماع الإلهي حين رفعت قضية المرأة إلى مجالي القدس ، ونزلنا مع قضيتها إلى عادات الحياة اليومية . ربنا جل وعلا وبخ ظالمها وعاقبه ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم تلطف لضعفها وغيرتها ، فعالج بالحكمة ؛ ذلك لتتعلم أن كبير الأمر وصغيره من أهم ما شملته عناية الله ورسوله : زواجها وطلاقها ومعاناتها وعواطفها وصوابها وخطأها .

لا إله إلا الله محمد رسول الله ، صلى الله على النبي الرؤوف الرحيم . « غارت أمكم » . أي زوج يملك نفسه ويكفها عن الغضب وربة البيت تكسر عليه الأواني أمام أضيافه . ما حظ من الإيمان ومن السنة ذلك الجبار الذي ترتعد الجدران وتنكمش القطة لدخوله ؟

كما نزل الوحي بإنصاف مظلومة ، نزل أيضاً بحل مشكلة معلقة . كانت زينب بنت جحش القرشية تزوجت زيداً بن حارثة الذي تبناه صلى الله عليه وسلم فكان يُسمى زيد بن محمد ، على عادة العرب في أدعيائهم . كرهت القرشية زيداً ، وأراد الله عز وجل أن يشرع للمسلمين ، فطلق زيد زينب ، وزوج الله عز وجل زينب من حبيبه محمد صلى الله عليه وسلم . امرأة يزوجه ربها ، ويختار لها الزوج وينزل في ذلك وحياً . لذلك كانت زينب التي قرأنا عن وليمتها في الفصل السابق تفتخر على أمهات المؤمنين .

وما لها لا تفتخر روى البخارى والترمذى والنسائى عن أنس الخادم الأمين قال : « جاء زيد بن حارثة يشكو ، فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : اتق الله وأمسك عليك زوجك . قال أنس : لو كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كما تمأثيثاً من الوحي لكتم هذه الآية . قال : وكانت تفتخر على أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم تقول : زوجكن أهاليكن ، وزوجنى الله من فوق سبع سموات » .

الآية التي تحدث عنها أنس هي قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ ﴾ (١) . بعدها قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاهَا لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا » وكان أمر الله مفعولاً ﴿ (٢) .

يمسك الملاعين من المستشرقين وتلامذتهم الملحدين بهذه الآية ، فزعموا أن محمداً صلى الله عليه وسلم عشق زينب وأخفى عشقها وتظاهر بالنصيحة لزيد . ما قدروا الله حق قدره وما قدروا قدر النبوة والرسالة والعصمة . وإنما الذي أخفاه رسول الله صلى الله عليه وسلم خشية مقالات العرف العربى الذى كان ينكر زواج الأب بمطلقة ابنه يعدون التبني نسباً . وقد أعلمه الله قبل طلاق زينب أن زينب ستكون له زوجاً . وهذا ما رواه ابن أبي حاتم عن سيدنا الحسن البصرى .

خز عبلات يروجها المستشرقون في الجنب النبوى ، وأخرى اختلقها المختلقون ووضعها الوضاعون وكذبها الكذابون من كل ما يحط من قدر المرأة ويعتقلها ويحبسها في الرية وسوء الظن . وسادت الأعراف الفاسدة تستشهد بأحاديث كاذبة ليتبارى الرجال أيهم أشد شكيمة على المرأة ، وأقوى فحولة ورجولة وغيره مرضية .

(١) سورة الأحزاب الآية : ٣٧ .

(٢) سورة الأحزاب الآية : ٣٧ .

من ذلك الحديث الموضوع على لسان فاطمة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم سألها عن أفضل أحوال المرأة فقالت : أفضل النساء من لا ترى أحداً ولا يراها أحد . ويفترى الموضوعون فيزعمون أنه ضمها إلى صدره استحساناً لقولها وقال : ذرية بعضها من بعض . ومن ذلك كذبة : « ثاوروهن وخالفوهن » التي يكذبها فعل النبي صلى الله عليه وسلم حين ثاور أم سلمة زوجها في صلح الحديبية واتباع رأيها فحل مشكلة حيرت المسلمين . ومن ذلك كذبة : « لا تسكنوهن الغُرَفَ ولا تعلموهن الكتابة » . وفرية « نعم الحتن » (أي الصهر) القبر . وهي دعوة جاهلية لوأد النساء . ومن ذلك خرافة : « دفن البنات من المكرمات » ، وهذه أشد من سابقتها وأعتى وأخزى .

ومن ذلك كذب المسلمات جميعاً في الحديث الموضوع : « يُدعى الناس يوم القيامة بأسمائهم سترًا من الله عز وجل عليهم » . ومن ذلك تسفيه المرأة وتجهيلها والاستهانة بها في اختراع : « طاعة المرأة ندامة » . ومثله « هلكت الرجال حين أطاعت النساء » . وهو حديث يخرج الناس عن سياقه ويطلقونه إطلاقاً ، وإنما الحديث جاء بسند ضعيف في قصة سرية من المسلمين ظفروا بخيل للمشركين تقودها امرأة . هلك المشركون حين أطاعوا مشركة في حرب المسلمين . فما بال المسلمة إن دعت إلى خير ؟

ومن الخزعبلات وتحويل المرأة التي يسمع الله شكواها ويفرق بها رسوله إلى تفاهة يلهو بها الرجل قولهم المكذوب على رسول الله صلى الله عليه وسلم : « النساء لعب فتخيروا » . وقولهم : « إنما النساء لعب ، فمن اتخذ لعباً فليحسنها » .

قد يكون من أخف هذه الموضوعات ضرراً ونكابة بالمرأة حديث « زينوا مجالس نساءكم بالمغزل » . الشغل شرف وفضيلة وإن كان الحديث موضوعاً . لكن أبشع الموضوعات ، وأقربها إلى رأي الكنيسة التي تعتبر المرأة شيطاناً ورجساً قولهم المكذوب على رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لولا النساء لعبد الله حقاً حقاً » . نعوذ بالله من خزي الله وعذاب الله جزاء من كذب على رسول الله .

الميثاق الغليظ

سمع الله جل وعلا شكوى المجادلة في زوجها لأن بغى الرجل على المرأة وخيانتها له خرق لعهد وثيق . الزواج الإسلامي ليس فقط عقداً بين أنثى لإرضاء الفطرة ، ولا هو استجابة للغريزة الراسخة في الإنسان فَحَسْبُ ، بل هو عهد وطيد غليظ . بهذا وصفه الله عز وجل في الزجر عن رجوع الرجل في صداق المرأة وأكله بالباطل فقال : ﴿ وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض وأخذن منكم ميثاقاً غليظاً ﴾ (١) الإفضاء وصلة بين جسمين أعطاهما القرآن حرمتها، والميثاق عهد بين ذمتين . فتلاءم الاعتباران ، الجسدي والنفسي القلبي ، ليكونا الوثاق ويمتناه .

في لغة العرب تدل كلمة « وثق » على السكون والاعتماد على شيء مكين مأمون . والميثاق « عقد مؤكد بيمين وعهد » . ليس من شرط صحة الزواج الإسلامي أن تحلف له ويحلف لها ، لكن مجرد القبول والرضى والإشهاد يتضمن العهد واليمين والأمانة . في صحيح مسلم عن جابر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال في خطبة حجة الوداع : « استوصوا بالنساء خيراً . فإنكم أخذتموهن بأمانة الله ، واستحللتم فروجهن بكلمة الله » .

كلمة الله وأمانته وعهده وشريعته في الزواج هي : ﴿ إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان ﴾ (٢) . كذا فسر « الميثاق الغليظ » المذكور في آية أخذ الصداق كل من ابن عباس وعكرمة ومجاهد وأبو العالية والحسن البصري وقتادة ويحيى بن أبي كثير والضحاك والسدي . ليس في ديننا وشريعتنا أعلى مصدراً من القرآن الكريم ، فالإمساك بالمعروف أو التسريح بالإحسان هما ضابطا الوفاء بالعهد وأداء الأمانة . يُمسِكُ بمعروف أو يطلق مرتكباً أبغض الحلال إلى الله ، لا جناح عليه ما لم

(١) سورة النساء الآية : ٢١ .

(٢) سورة البقرة الآية : ٢٢٧ .

يُظلم في الإمساك بالمعروف شرعاً وطبعاً وإنسانيةً ومروءةً من احترام المرأة وأداء حقوقها ، وما لم يُظلم في التسريح مبادئ الإحسان ورعاية الفضل الذي كان بينهما والعشرة . ليس في ديننا ما يشبه الزواج الكاثوليكي الذي يحرم فيه الكهنة الذين استخفوا بالمرأة وعدوها شيطانا فصمَّ عقد زواجهم .

لمكان هذا الاختيار المتروك للزوجين قال الله تعالى : ﴿ وأخذنا منكم ميثاقاً غليظاً ﴾ (١) . هو ميثاق بين رجل وامرأة يقيان عليه بشرط المعروف أو تنقضانه بشرط الإحسان . ما نسب سبحانه الميثاق إلى نفسه ، إذ ميثاقه أبدى ملزم ، من نقضه تعرض لعضب الله . وقد ذكر في القرآن « الميثاق الغليظ » ثلاث مرات ، إحداهن ميثاق الزواج .

في القرآن الكريم ميثاق غليظ أخذه الله عز وجل من النبيين . قال تعالى : ﴿ وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى بن مريم . وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً ليسأل الصادقين عن صدقهم . وأعد للكافرين عذاباً أليماً ﴾ (٢) . محمد ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم عليهم السلام هم أولو العزم من الرسل . فالميثاق الذي أخذه الله على سائر أنبيائه لم يوصف بالغلظ لفرق ما بين مقام أولى العزم وغيرهم من رسل الله وأنبيائه عليهم السلام .

وفي رسل الله بميثاق الله ، وصدقوا في أداء ما عليهم من حقوقه فنالوا رضی الله . وخان الفسقة الكفرة من بني إسرائيل ميثاقهم مع الله فلعنهم الله . قال تعالى : ﴿ وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً . فيما نقرنهم ميثاقهم وكفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء بغير حق وقولهم قلوبنا غُلف بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلاً . وبكفرهم وقولهم على مريم بهتاناً عظيماً . وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله . وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم . وإن الذين اختلفوا فيه

(١) سورة النساء الآية : ٢١ .

(٢) سورة الأحزاب الآيات : ٧ - ٨ .

لفي شك منه . منا لهم به من علم إلا اتباع الظن . وما قتلوه يقينا . بل رفعه الله إليه . وكان الله عزيزا حكيما ﴿ ١ ﴾ . وفي آية أخرى : ﴿ فيما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية ﴾ ﴿ ٢ ﴾ .

ذلك جزاء من نقض عهداً غليظاً أبرمه مع الله رب العباد . ويلحق بذلك النقض الفظيع الخائن ، على درجة بشرية ، خيانة عقد الزواج يرمه العباد فيما بينهم ، تشهد عليهم فيه كلمة الله ، وتقتضيهم الوفاء به أمانة الله ، كما يشهد عليهم فيه العدول من المؤمنين .

أنيط بعقد الزواج في الإسلام معان جليلة ومقاصد نبيلة . فهو محترم شرعاً ، مشجع عليه ، مرغوب فيه ، معتمد عليه ، يربطه الصدق والوفاء والعفة والمعروف والإحسان . يترعى مقتضياته ويحمل مسؤولياته الزوج الرجل بقوامته ، والزوج المرأة بحافظتها . لكل منهما وعليه نصيب من آثار العقد وتكليفاته .

مقصد سام للزواج الإسلامي ، حيث جعله الله سياجا صحيحاً واقياً من المفاسد ، يصون في عش الزوجية الدافئ الفطرة التي فطر الله الناس عليها ، لا تبديل لخلق الله .

تلك هي المبادئ والشرعة والقرآن .

فما الطريق لنسمو بالزواج من واقع الهوس والاختلاط الإباحي المستهين بالقيم والفطرة والدين إلى مسؤولية جادة يعتمد عليها ؟ « التطبيع الجنسي » هو الكلمة التقدمية الحضارية في عصر الدوايبة . المخاللة واتخاذ الأخدان دليل على حرية المرأة وانطلاقها من الأسر وامتلاكها لجسمها . « الاندماج الجنسي » ديموقراطية المجتمع المدني الحدائوي . ونحن على درب الانحدار الفظيع الذي تعرفه مجتمعاتنا المفتونة التي يسفك الحكام فيها دماء المؤمنين ، ويهتكون أعراض المؤمنات ؛ لأن المؤمنات والمؤمنين يرجعون إلى كلمة الله ويدعون النساء والرجال إلى حفظ أمانة الله .

(١) سورة النساء الآيات : ١٥٤ - ١٥٨ .

(٢) سورة المائدة الآية : ١٣ .

في أفق الحكم الإسلامي - القريب بإذن الله - لا بد من قطع دابر الهوس الاختلاطي في المدارس والإدارات والمؤسسات الاقتصادية ووسائل النقل الخجلة . ثم - و « ثم » اعتبارية لا زمانية - ترتفع التربية بالرجل والمرأة ، ويسر الله من فضله الوسائل المادية ، حتى يعاف المجتمع هذا السقوط الحيواني ، ويستبدل به الطهارة والنظافة .

الزواج الإسلامي نقيض للعلاقات السائبة غير المسؤولة ولا المقيدة بضابط شرعي أو خلقي . زواج الناس - حيث بقي شيء يُسمى زواجا - يأتدب بالمشاعر والعواطف ، ويتصون بالوفاء والعفة ، ويتخوف من الوباء والخبائث ، وكل أولئك مروعات لا يزيدها الإسلام إلا تكريماً ، لكن زواج المؤمنات والمؤمنين يسبغ عليه جلال الميثاق الغليظ قدسية ، وتجمله الأمانة الإلهية ، وتعظم من شأن تبعاته الكلمة ، إن حفظت المرأة وقام الرجل بأعباء الميثاق الغليظ اكتست كل أعمالهما ، وما يتبادلان من معروف ، وما يتبادلان من عطاء ، صبغة العبادة والتقرب إلى الله عز وجل .

في كل صباح ومساء يقضيانهما في ألفة ومحبة يكتب لهما صدقة : في أي دين تكون المساكنة بين الزوجين عبادة ؟ في الإسلام ، وفي الإسلام الذي لا دين بالحق سواء . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يصبح على كل سلامي (مفاصل الأصابع) أحدكم صدقة : فكل تسبيحة صدقة ، وكل تحميدة صدقة ، وكل تهليلة صدقة ، وكل تكبيرة صدقة ، وأمر بالمعروف صدقة ، ونهي عن المنكر صدقة ، ويجزئ من ذلك ركعتان يركعهما من الضحى » . أخرجه مسلم وأبو داود عن أبي ذر رضي الله عنه . وفي رواية لأبي داود : « وبضعة أهله صدقة » . أي أن في اجتماعهما في الفراش صدقة . هما في بهجة الجسد والثواب يكتب لهما . والحمد لله رب العالمين .

تبارك الله كيف ارتفع قدر الزواج فأشبهه ميثاقه ميثاق النبيين ! وكيف لحقت المعاشرة الزوجية بأصناف العبادات من ذكر وتسبيح وجهاد . الحمد لله رب العالمين
لِعِزَّةِ الزَّوْجِ الْإِسْلَامِيِّ وَنَفَاسَةِ مَعَانِيهِ يَنْبَغِي لِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ أَنْ يَسْتَشِيرُوا

ويتحرّوا قبل الاختيار لكي يجعلوا في جانبهم كل شروط نجاح الزواج .
ربما يُقدِّم على الزواج بلا روية ، وبعاطفة هاجمة ، الأغرار من الشابات . أما من
لدغها حر الحسية وتحطم عماد بيتها فهي أحرص الناس على أن لا تُعيد التجربة
الفاشلة .

طَلَّقَتْ فاطمة بنت قيس على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما
انقضت عدتها جاءته تخبره أن معاوية بن أبي سفيان وأبا الجهم خطباها ، وتستشير
في أيهما أصلح لها . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أما أبو جهم فلا يضع
عصاه عن عاتقه . وأما معاوية فصعلوك لا مال له . انكحي أسامة بن زيد . فكرهته
ثم قال : انكحي أسامة فنكحته ، فجعل الله فيه خيراً . واغتبطت » . رواه
مسلم .

أبو جهم عنيف يضرب ، ومعاوية فقير للغاية . وأسامة شاب أسود كان حب
رسول الله وابنا لزيد بن حارثة . ربما كرهته لسواد بشرته ، لكنها سعدت به
واغتبطت لما أطاعت قول الناصح الأمين صلى الله عليه وسلم .

أحل الله عز وجل نكاح نساء أهل الكتاب في قوله عز من قائل : ﴿ وَطَعَامُ
الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَلَلٌ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حَلَلٌ لَهُمْ ۚ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ
وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ ﴾ (١) . وتزوج بعض الصحابة
رضي الله عنهم بكتابات ممن تأكدوا من أنهن محصنات ، أي عفيفات . وكُنَّ من
أهل الكتاب متدينات بدينهن . ومع ذلك كره الزواج من النصرانيات سيدنا عبد الله
بن عمر رضي الله عنهما قائلاً : لا أعلم شرّاً أعظم من أن تقول إن ربها عيسى ،
وقد قال الله تعالى : ﴿ وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَ ﴾ (٢) .

اجتهاد صحابي في عصر كانت فيه النصرانيات نصرانيات . فما بالك بعصرنا
وقد تحلل القوم من كل دين ، وتعدّر ، بل استحال ، أن تجد منهن « محصنات »

(١) سورة المائدة الآية : ٦ .

(٢) سورة البقرة الآية : ٢٢١ .

عفيفات . فهل يُنَاط الميثاق الغليظ بكوافر الزمن ؟ إذا اختلف الشرط بطل المشروط .

أجاب مصطفى صادق الرافعي رحمه الله عن السؤال فنصح قومه قائلاً : يا إخواني المصريين أسدي إليكم هذه النصيحة (...) : إياكم إياكم أن تغتروا بمعاني المرأة ، تحسبونها معاني الزوجة . وفرقوا بين الزوجة بخصائصها ، وبين المرأة بمعانيها . فإن في كل زوجة امرأة ، ولكن ليس في كل امرأة زوجة . واعلم أن المرأة في أنوثتها وفنونها النسائية كهذا السحاب الملون في الشفق حين يبدو : له وقت محدود ثم يُمسحُ مسحاً . ولكن الزوجة في نسائيتها الاجتماعية كالشمس قد يحجبها ذلك السحاب ، بيد أن البقاء لها وحدها ، والاعتبار لها وحدها ، ولها وحدها الوقت كله .

لا تتزوجوا يا إخواني المصريين بأجنبية : إن أجنبية يتزوج بها مصري هي مُسدسٌ جرائمٌ فيه ستُ قذائف : الأولى بوار امرأة مصرية ، وضياعها بضياع حقها في هذا الزوج . وتلك جريمة وطنية . فهذه واحدة . والثانية إقحامُ الأخلاق الأجنبية عن طابعنا وفضائلنا في هذا الاجتماع الشرقي ، وتوهينه بها ، وصدّعه . وهي جريمة أخلاقية . والثالثة دسُ العروق الزائغة في دمائنا ونسلنا . وهي جريمة اجتماعية . والرابعة التمكين للأجنبي في بيت من بيوتنا ، يملكه ويحكمه ، ويصرفه على ما شاء وهي جريمة سياسية . قلت : إلى هنا خطابه لقومه وفي مصر أقباط نصارى .

قال : والخامسة للمسلم منا إشاره غير أخته المسلمة . ثم تحكيمة الهوى في الدين ، ما يعجبه وما لا يعجبه . ثم إلقاءه السم الديني في ذريته المقبلة . ثم صبرورته خزيّاً لأجداده الفاتحين الذين كانوا يأخذونهن سبايا ، ويجعلونهن في المنزلة الثانية أو الثالثة بعد الزوجة ، فأخذته هي رقيقاً لها ، وصار معها في المنزلة الثانية أو الثالثة بعد عشيقها . وهذه جريمة دينية .

قال رحمه الله : « والسادسة بعد ذلك كله أن هذا المسكين يُؤثر أسفله على أعلاه ... ولا يبالي في ذلك خمس جرائم فظيعة . وهذه السادسة جريمة إنسانية » .

رحم الله الرافعي وألحقنا به مسلمين . والحمد لله رب العالمين

اختيار الزوج

ما الذي يميز الصالح من الأزواج وغير الملائم في أعرف الناس ؟ الزواج عند الناس رباط يؤمن العلاقات الجنسية ويحفظها - ولا يحفظ - من غائلة الأخطار الروائية والقلق والبغاء . فالزواج الصالح ذو المال والمنصب والجمال والقوة .

أما الزواج الإسلامي فتلك الأهداف مقصودة فيه ، لكن فوق ذلك معاني أخرى تسمو به ليكون الطيبات للطيبين والطيبون للطيبات ، يجمع شملهم الطهر والإيمان والإحسان والرحمة والمودة في الدنيا لتسعد رحلتهم إلى الآخرة حيث يُقال : ﴿ ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم تحبرون ﴾ (١) .

فاختيار الزوج الصالح في الإسلام له معايير مشروعة ، وتستخير المؤمنة ربها وتستشير المأمونين والمأمونات على النصيحة . والزواج في الإسلام تكليف شرعي أنيط بذوي قُربى من لا زوج لها وبالأمة في قوله عز وجل : ﴿ وأنكحوا الأيامى منكم ﴾ (٢) . فالتسعي في ذلك ومساعدة الباحثة والباحث عن زوج من فضائل الأعمال .

أما المصطفين من عباد الله المبلغين رسالاته فإنه عز وجل يختار لهم أزواجاً كما أخبرنا في كتابه العزيز حين خاطب محمداً صلى الله عليه وسلم وخاطبتنا بقوله : ﴿ ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك وجعلنا لهم أزواجاً وذرية ﴾ (٣) . زينب أم المؤمنين رضي الله عنها جعلها الله زوجاً لحبيبه محمد بوحى يتلى . وعائشة أم المؤمنين رضي الله عنها جاءته البشرى بها في وحي المنام، وهو حق . روى البخارى عنها رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبرها قائلاً : « أُرِيتكِ في المنام يجيء بك

(١) سورة الزخرف الآية : ٧٠ .

(٢) سورة النور الآية : ٣٢ .

(٣) سورة الرعد الآية : ٣٨ .

الملك في سرقعة (قطعة) من حرير. فقال لي: هذه امرأتك. فكشفت عن وجهك الثوب، فإذا أنت هي. فقلت: إن يكن هذا من عند الله يمضه. »

ولحكمة يعلمها سبحانه، كشف لنا عن بعضها، تزوج نوح ولو طأ عليهما السلام امرأتين خائنتين. فضرب الله مثلاً للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط، كما ضرب مثلاً للذين آمنوا مريم ابنة عمران وامرأة فرعون. من حكمة ذلك أن نعلم أن نفساً يوم القيامة لا تغني عن نفس شيطاناً لقربة قربة ولا لقربة زواج. ولنعلم أن صلاح الزوج لا يطعن فيه خبث قرينها أو قرينته. عليهما أن يتحريا في الاختيار تحرياً دقيقاً، ثم مسؤولية الاستقامة والاعوجاج تقع على الذمة الفردية.

مسؤولية الزوج المرأة والزوج الرجل عن صلاح حالهما ومآلهما كاملة. وخائن الميثاق الغليظ منهما يرجع بغيه عليه وحده، وترجع عليه خيانتته. قيل للمرأتين الخائنتين: ﴿ادخلا النار مع الداخلين﴾ (١).

لا تغني نفس عن نفس من الله شيئاً لزواج ولا لقربة. أوحى الله إلى نبيه محمد صلى الله عليه وسلم: ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾ (٢)، فجمع بطون قريش وخطب فيهم فكان مما قال: «يا معشر قريش اشتروا أنفسكم لا أغني عنكم من الله شيئاً، يا بني عبد مناف لا أغني عنكم من الله شيئاً يا عباس بن عبد المطلب لا أغني عنك من الله شيئاً يا صفيّة عمّة رسول الله صلى الله عليه وسلم لا أغني عنك من الله شيئاً ويا فاطمة بنت محمد سليني ما شئت من مالى لا أغني عنك من الله شيئاً». الحديث رواه البخاري عن أبي هريرة رضى الله عنه.

التزويج مسؤولية، واختيار. وهو أيضاً فضيلة ندب إليها الشرع. «النكاح سنّي فمن أحب فطرته فليستن بسنتي». حديث نبوي رواه أبو يعلى بسند حسن عن ابن عباس رضى الله عنهما: «يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة

(١) سورة التحريم الآية: ١٠.

(٢) سورة الشعراء الآية: ٢١٤.

(النكاح) فليتزوج ، فإنه أغضَّ للبصر وأحصن للفرج . حديث نبوى متفق عليه
عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه .

سنة الزواج وفطرته تُيسرُها الشريعة ، لا تعسرُها . تيسر المهور ونفقات العرس
كما سئرى إن شاء الله . وتيسرُ فرص الاختيار . في العصر النبوي الفاضل طَلَّقَتْ
سُبَيْعَةُ بِنْتُ الْحَارِثِ وهي حامل ، فلما وضعت وانتهت عدتها « تَجَمَّلَتْ لِلْخُطَابِ
فَدَخَلَ عَلَيْهَا أَبُو السَّنَابِلِ بْنِ بَعْكُكْ فَقَالَ لَهَا : مَا لِي أُرَاكِ تَجَمَّلْتِ لِلْخُطَابِ تُرَجِّينَ
الزَّوْاجَ ؟ » . رواه الشيخان . لا حرج إذاً في تسهيل لقاء الباحث عن الزواج
والباحثة ، في حدود لا تَقْدَحُ في أعراض الأُسْرِ ، ولا تصطدم بالأعراف الفاسدة
المتناقضة : عُرِفَ تقليدي تَكْبَلُهُ غيرةٌ ممزوجٌ فيها الخيرُ والحذرُ وسوء الظن ، وعرفَ
إباحي هوسى اختلاطي . وإنها خطوات متدرجة حتى تنربى على سلامة الطوية
ونبل المقصد وطهارة القلوب لتسودَ فينا السنة المطهرة .

في كتاب النكاح عند الإمام البخارى رحمه الله « باب عرض المرأة نفسها على
الرجل الصالح » ذكر فيه خبر المرأة التي جاءت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم
تعرض عليه نفسها . قالت : « يا رسول الله أَلَيْكَ بِي حاجة ؟ » . روى هذا الحديث
أنس بن مالك بعد زمان النبوة ، فسمعت ابنة له نشأت في جو آخر غير جو المدينة في
عهدها الزاهر ، فقالت : « ما أقلُ حياءها واسوأتاه » فقال أنس رضى الله عنه لابتنته :
« هي خير منك رغبت في النبي صلى الله عليه وسلم فعرضت عليه نفسها » .

ما أسرع ما ساد العُرفُ فأنكر الناس السنة بعد جيل واحد صاحبت البنات
واسوأتاه فراراً من السنة . فكيف ونحن عن ذلك العهد عشرات أجيال !

بعد هذا الباب باب عنوانه « باب عرض الإنسان ابنته أو أخته على أهل
الخير » . ذكر فيه المحدث الفقيه البخاري كيف عرضَ عمر بن الخطاب ابنته حفصة
على عثمان ثم على أبي بكر فامتنعا ، حتى خطبها رسول الله صلى الله عليه وسلم
وأصبحت إحدى أمهات المؤمنين . سبقت لها بذلك السعادة . قال أبو بكر بعد ذلك

لعمر : « فإنه لم يمنعني أن أرجع إليك فيما عرضت علي إلا أنني كنت علمت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد ذكرها ، فلم أكن لأفشي سر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولو تركها رسول الله صلى الله عليه وسلم قبلتها » .

هكذا رأينا أن المرأة المسلمة تجملت للخطاب ، ودخل عليها مسلم ينظر . باحثة وباحث جمعتهما البراءة والطهر . كلاهما يختار وتتسع الشريعة لهما ، وتوسع عليهما في ذلك . ورأينا المرأة تعرض نفسها مباشرة على « الرجل الصالح » كما هو فقه البخاري رحمه الله ، ورأينا المؤمن يعرض بنته على رجال صالحين .

لا تنكر السنة من هذه الأوجه الثلاثة لتيسير فرص الاختيار شيئاً . فإن أنكرها العُرف فالعُرف فاسد لا السنة . تزحف السنة على العرف التقليدي والعرف الإباحي لتزيلهما من مواقعهما . تزحف بمقدار ويخطئ حكيمة ، فالأمد طويل بيننا وبين عصر الطهر والكمال ، والأعراف هجامة ، وقد سمعنا صيحة « واسوأناه » صرخت بها في وجه السنة بنت واحد من أكابر أهل السنة ورواتها .

من التيسير الجماعي لترائي الباحثين عن الزواج والباحثات اغتنام سنة خروج الرجال والنساء والأطفال إلى المصلى ، في محفل عظمة الأمة في عيدها . نص الحديث على خروج العواتق من الخدور . وهن الفتيات المصونات ، يخرجن ذلك اليوم ، وتخرج الحبيص . ما لبث العرف بعد عهد النبوة أن زحف ، فأمسك الناس عواتقهم عن الخروج ، حتى صححت أم عطية الصحابية المسار ، فأخبرت الناس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر بإخراج العواتق من الخدور . روى ذلك البخاري ، وعلق عليه الحافظ ابن حجر رحمه الله قال : « العواتق جمع عاتق . وهي من بلغت الحلم أو قاربت أو استحقت التزويج » . وقال : كانوا يمنعون العواتق من الخروج لما حدث بعد العصر الأول من فساد . ولم تلاحظ الصحابية (أم عطية) ذلك ، بل رأت استمرار الحكم على ما كان عليه في زمن النبي صلى الله عليه وسلم نعم ، فسد أهل الزمان بعد العصر النبوي ، والدُّعَار ومقتنصو النظر الحرام في عصرنا

أفحش نياتٍ وأقذر طَوَرِيَّاتٍ . هذا يعطينا قياساً لبعد المسافة ، وضرورة التدرج ، لتعود السنة إلى مقام السيادة بصلاح غالب أهل الزمان ، لا يُثْبِطُ عزائمنا على إعادتها فساد الفاسدين من أهل الزمان .

بعد النظر في ظروف الاختيار ومسؤولياته وتكليفاته ، نستمع إلى الوصايا النبوية تعطينا معايير الصلاح والأهلية . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الدنيا متاع ، وخير متاعها المرأة الصالحة » . رواه مسلم والنسائي عن عبد الله بن عمرو . المتاع انتفاعٌ إلى مدة . هو صحبة بين الزوجين يمتد زمنها ما امتد الوفاء بعقد الميثاق الغليظ وشرطيّه : ﴿ إمساكٌ بمعروفٍ أو تسريحٌ بإحسان ﴾ (١) .

واذ تختلف معايير الناس في تقدير الصلاحية التي نطق بها الحديث ، فيختار بعضهم الجمال ، ويختار بعضهم المال والجاه ، ويختار آخرون المصاهرة مع كبراء المجتمع ، تأتينا النصيحة النبوية لثرشدنا وتساعدنا وتفتح أعيننا على الصلاح الباقي ، والصلاح الأنفع اجتماعياً ودينياً . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « تنكح المرأة لأربع : لمالها ، ولحسبها ، ولجمالها ، ولدينها . فاظفر بذات الدين تربت يداك » . متفق عليه من حديث أبي هريرة . كلمة « تربت يداك » استغراب وتعجب ممن يفضل على ذات الدين اعتبارات أخرى .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قال سيدنا جابر بن عبد الله في حديث متفق عليه : « تزوجت ، فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما تزوجت ؟ قلت : ثيباً . فقال : ما لك وللعذارى ولعابها » . هذا حظ النفس في الزواج لا يهمله الشرع ، وتحث السنة على ابتغائه ، لكن في إطار الصلاحية الدينية .

ثم بعد حظ النفس يرين صلاحية الدين ، يأتي حق الأمة ، وذُخر المستقبل . جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « إني أصيبُ امرأة ذات حسب وجمال ، وإنها لا تلد . أفأتزوجها ؟ قال : لا . ثم أتاه الثانية فنهاه . ثم أتاه الثالثة

(١) سورة البقرة الآية : ٢٢٩ .

فقال : تزوجوا الودود الولود ، فلإني مكاثِر بكم الأمم . أخرجه أبو داود والنسائي عن معقل بن يسار رضى الله عنه . نرجع إن شاء الله لنبحث عن نوع الذرية الصالحة التي يصح أن يكاثِر بها نبينا الأمم يوم القيامة .

في الفقرة المقبلة إن شاء الله نبحث قضية الولي وشرطيته في التزويج . ونقدم هنا بايين من أبواب البخاري في « كتاب النكاح » من صحيحه . قال رحمه الله : « باب لا يُنكح الأب وغيره البكر والثيب إلا برضاها » . معناه أن المرأة لا تُكره على الزواج ممن لا ترضى به بحال . وروى البخاري في بابيه هذا عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لا تُنكح الأيم حتى تستأمر . ولا تنكح البكر حتى تستأذن » . قالوا : يا رسول الله وكيف إذن ؟ قال : « أن تسكت » . وسألته أمنا عائشة قائلة : يا رسول الله ! إن البكر تستحي ! قال : « رضاها صمتها » .

في الباب بعده قال البخاري : « باب إذا زوج الرجل ابنته وهي كارهة فنكاحه مردود » . وروى حديث خنساء بنت خدام الأنصارية أن أباه زوجها وهي ثيب فكرهت ذلك ، فأنت رسول الله صلى الله عليه وسلم فرد نكاحها .

هي تختار إذا وترضى ، وتسكت أو تحتج . روى الإمام أحمد والنسائي وابن ماجه بسند صحيح عن عائشة رضى الله عنها أن فتاة دخلت فقالت : « إن أبي زوجني من ابن أخيه ليرفع بي خسيستته (ليكسب مكلنة اجتماعية) وأنا كارهة . فلما جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبرته ، فأرسل إلى أبيها فدعاه ، فجعل الأمر إليها . فقالت : يا رسول الله قد أجزت ما صنع أبي ولكن أردت أن أعلم الناس أن ليس للأباء من الأمر شيء » .

تحصل لنا أن الزواج الإسلامي اختيار ومسؤولية وتيسير . وعرف فاسد يصارع سنة مسنونة .

اللهم ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار .

زواج عقل أو زواج حب

تطاولَ نزوة عشيق ، أو يُساء اختيار زوج ، فتكشف المعاشرة الزوجية ما كان دَسَّه ودَسَّاه التظاهر ، وما كان عمَّاه سوء التقدير ، وما كانت غَمَّتْهُ القفزة العاطفية . ويفتح الإسلام بحكمته باباً للخروج فيشرع الطلاق .

الطلاق كشف حساب . الطلاق كارثة . الطلاق أبغض الحلال إلى الله كما جاء في الحديث . إن لم يَسْتَبِدَّ العقل والموازن الدينية الحلقية عند الاختيار ، فإن العقل يستغاث به عند الأزمة لينتقد الموقف . بهذا أمر الله عز وجل حين كلفنا بالنظر والمساعدة قبل الزواج في قوله : ﴿ وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ ﴾ ^(١) . وبهذا كلفنا وأمرنا عند ظهور أمارات الخراب في قوله عز من قائل : ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْتَاعُوا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهِمَا إِنْ يَرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقُ اللَّهُ بَيْنَهُمَا ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴾ ^(٢) . حكم من أهله وحكم من أهلها ، عاقلان رائدتهما الحكمة لا العاطفة .

ليس قصدى هنا أن أتعرض لأحكام الطلاق إلا بالتنبيه المؤكد إلى جدية ما يتلفظ به الزوج في غضبه وهزله . فربما ينطق بكلمة تُحرم زوجه عليه ، أو يجهلان أحكام الشرع في الطلاق والعدة فيلعبان بدينهما .

وأعرض للطلاق وما يترتب عليه من ضياع المطلقة وذريتها لنبحث عن وسيلة لإلجام الطلاق وتخفيف الكوارث الاجتماعية ومعاناة المشرذات من بيوتهن . هذا اللجام نقرؤه في كتاب الله عز وجل في قوله : ﴿ وَلِلْمُطَلَّقاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ ۚ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴾ ^(٣) . اختلف أئمة الفقه رحمهم الله في فهم الأمر بالمتاع ، فقال المالكية : المتاع إحسان إلى المطلقة مستحبٌ للتي سُمي صداقها ، واجب للتي

(١) سورة النور الآية : ٣٢ .

(٢) سورة النساء الآية : ٣٥ .

(٣) سورة البقرة الآية : ٢٤١ .

طَلَّقَتْ قَبْلَ تَسْمِيَةِ الصِّدَاقِ . وَقَالَ الحَنَفِيَّةُ وَالْحَنَابِلَةُ مِثْلَ ذَلِكَ . أَمَّا الْفُقَهَاءُ الشَّافِعِيَّةُ فَاسْتَدَلُّوا بِالْآيَةِ وَاعْتَبَرُوا تَمَتُّعَ الْمُطَلَّقةِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ : أَيْ وَاجِبًا شَرْعِيًّا .

مَا كَلَفْنَا اللَّهَ بِاتِّبَاعِ مَذْهَبٍ وَتَقْلِيدِ فُقَيْهِ . وَمَنْ ظَنَّ أَنَّ الْإِسْلَامَ يَقْبَلُ أَنْ تُتْلَقِيَ الْمُطَلَّقةُ فِي الشَّارِعِ مَعَ أَطْفَالِهَا فِي عَصْرِ قَاسٍ لَا يَرْحَمُ ، انْفَصَمَتْ فِيهِ عُرَى التَّوَاصُلِ مَعَ الْعَمَاتِ وَالْحَالَاتِ ، وَتَعَقَّدَتْ فِيهِ سَبُلُ الْعَيْشِ ، وَكَثُرَتْ فِيهِ الْحَاجَاتُ ، فَإِنَّمَا يَنْسَبُ الْحَيْفُ وَالظُّلْمُ إِلَى شَرِيعَةِ الْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ .

نَحْتَاجُ إِذْنًا لِاجْتِهَادٍ عَلَى نَحْوِ الْفُقَهَاءِ الشَّافِعِيَّةِ مُعَزِّزًا بِرِعَايَةِ حَقِّ الْمَرْأَةِ فِي الْإِحْسَانِ بِسُقْفٍ يُؤْوِيهَا فِي عَصُورٍ مِنْ سَمَاتٍ أَرَزَمَتْهَا نَدْرَةُ السُّكْنِ وَغَلَاءُ السُّكْنِ . ﴿ لَا تَخْرُجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ ﴾ ^(١) إِلَى تَمَامِ عِدَّتِهِنَّ . هَذَا أَمْرٌ لَا يَنْبَغِي .

أَنْ نَلْقَى بِهِ شَرْطَ الْمِيثَاقِ الْغَلِيظِ : ﴿ إِمْسَاكِكَ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحِ بِإِحْسَانٍ ﴾ ^(٢) أَيْ إِحْسَانًا أَنْ تُشْرَدَ الْمُطَلَّقةُ فِي مَدُنِ الْإِسْمَنْتِ الْقَاسِيَةِ ؟ لَا يَنْبَغِي أَنْ نَلْقَى بِأَلَمِ الْإِلَهِيِّ أَمْرًا آخَرَ لِنَنْقُضَهُ ، بَلِ الْاجْتِهَادُ رِعَايَةُ الْمَصْلُحَةِ الْعَادِلَةِ .

كُنَّا فِي إِصْلَاحِ مَا فَسَدَ . فَلْنَعُدْ إِلَى تَنْوِيرِ طَرِيقِ الْعَقْلِ وَالْحِكْمَةِ . تَنْقَشِعُ مَرَاهِقَةُ قَيْسٍ وَلَيْلَى ، فَلَا يَبْقَى مَا يَعُولُ عَلَيْهِ وَيَعْتَمِدُ إِلَّا الثِّقَةُ وَالْمِيثَاقُ الْغَلِيظُ : وَهُمَا الْقِيَامُ الدِّينِيُّ الْخَلْقِيُّ فِي الزَّوْجِ ؛ لِذَلِكَ أَحَاطَ الشَّرْعُ الزَّوْجَ بِضُمَانَاتٍ لِيَتَحَكَّمَ الْعَقْلُ فِي بِنَاءِ أَرْكَانِهِ لَا الْعَاطِفَةُ ، وَلِيَكُونَ الْبِنَاءُ مِنْ حَجَرِ الْإِخْتِيَارِ الْعَقْلِيِّ وَحَدِيدِ الْأَمَانَةِ الْإِيمَانِيَّةِ لَا مِنْ طِلَاءِ الْإِعْجَابِ بِالْمَظَاهِيرِ .

تَقْرَأُ الشُّوَابُ وَيَقْرَأُ الشَّبَابُ قِصَصَ الْغَرَامِ ، وَيَشَاهِدُونَ أَفْلَامَ الْأَحْلَامِ ، فَتَمَثَّلُ لَهُمُ السَّعَادَةُ فِي مِثْلَةٍ وَمِثْلٍ . وَيَخْتَارُ الشُّوَابُ وَالشَّبَابُ وَفَقَّ الشَّهْوَةُ الْخَيَالِيَّةُ ، وَسُرْعَانِ مَا تَبْخَرُ الْأَحْلَامَ ، وَيَصْدَمُ الْوَاقِعُ الْخَيَالَ ، وَيَرْتَطِمُ الْمَرْكَبُ بِالصَّخُورِ .

أَوْ يَلْتَقِي فِي سَاحَةِ الدَّعْوَةِ شَابٌ مُلْتَحٌ وَشَابَةٌ مُحْجِبَةٌ لَا يَزَالَانِ فِي طُورِ الْمَرَاهِقَةِ

(١) سُورَةُ الطَّلَاقِ الْآيَةُ : ١ .

(٢) سُورَةُ الْبَقَرَةِ الْآيَةُ : ٢٢٩ .

الدينية، فتتصورُ فيه الزبير الفارس، ويتصور فيها أسماء الصديقية، فيتزوجان على أحسن النيات، لكن على غفوة من العقل، وعلى جهل بحقائق المعاشرة بين أسر متفاوتة، وأوساط اجتماعية متنافرة. يقرأ هو في الحديث: «اظفر بذات الدين»، وتقرأ هي ذلك، فيحسبان أن الناس جميعاً من طينة واحدة، وكأن الفوارق الاجتماعية الاقتصادية، وكأن الذهنيات والعادات، غبارٌ ينفخ فيه فيتطاير.

يقرأ «اظفر بذات الدين» فيظنان أن الدين حماس ومظاهر. و«التزام»، هذه الكلمة الفضفاضة المستعارة من ساحة النضال السياسي لا من مفاهيم القرآن وأخلاق السنة.

عُقلاء الأمهات والآباء لا يُستغنى عن استشارتهم وترصيتهم، إلا أن يكونا أو أحدهما، أو الأعمام والعمات والأخوال والحالات، من أعداء الدين، أو يكون الجشع والخوف والغباء السياسي سد عليهم منافذ التعقل.

أحاطت الشريعة الزواج بضمانات ليتحكم العقل. منها الولي، لا يجوز أن تتزوج المؤمنة بلا ولي وإشهاد؛ ذلك ليكون الزواج معلناً مشهوراً، ولتتعادل حكمة الولي من أب أو أخ أو عم مع غيرة المؤمنة، ولتُعوض تجربة الولي في الحياة براءتها وأحلامها. واشتط بعض الفقهاء فرأوا أن للولي أن يُجبر المرأة على الزواج. قرأوا الأدلة التي أوردناها في الفقرة السابقة ففهموها فهوماً متفاوتة. فالحنفية يرون أن الولي مستحب للبالغة العاقلة، سواء كانت بكرًا، أو ثيبًا. ويرى المالكية أن الأب أو وصيه عند عدم الأب يُجبر البكر على الزواج وإن بالغة، ويُجبر الصغيرة ولو كانت ثيبًا. وعند الشافعية يُجبر الأب أو الجد عند عدم الأب البكر صغيرة وكبيرة، ويستحبون استئذانها. أما الحنابلة فيرون أن الإيجاب حق للأب ثم وصيه ثم الحاكم في حالة الصغيرة فقط.

إجبارهن على الزواج كان مصلحة منسجمة مع فقه الإغلاق والحبس. وأماننا سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم لنندرك المفاسد الكبيرة التي تترتب على الإكراه.

للولي أن يمتنع ريثما يتأكد من صدق عواطف البنت ، لأن من الحب ما ليس طيشاً يترث الولي حتى يظهر له صدق العاطفة وحسن الاختيار ، لأن الانسجام القلبي لا يكون له من علاج بالإكراه . جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم رجل فقال : « يا رسول الله في حجري يتيمة قد خطبها رجل موسر ورجل معدم . فنحن نحب الموسر وهي تحب المعدم . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : كم ير للمُتَحائِنِ مثل النكاح » . أخرجه عن ابن عباس ابن ماجة والبيهقي والطبراني والحاكم وغيرهم . فهو حديث حسن لكثرة طرقه .

وفي صحيح البخاري عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « الأرواح جنود مجندة ، فما تعارف منها ائتلف ، وما تناكر منها اختلف » .

الإسلام ليس ضد زواج الحب ، بشرط أن يتأكد هو وتتأكد هي أن كلمة « أحبك » ليس وراءها النزوة العابرة ، وإنما المحبة الخالصة التي يرعى لها أن تنمو بعد الزواج فتلتحم بلحام الرحمة والمودة والمخالقة والصبر .

على كل حال فالشرعية تغلب جانب العقل دون أن تنبذ صادق العواطف وعميقها وساميتها . من تغليبها للعقل الكفاءة والوصية بها حسباناً لعامة الناس من لم يتخطوا عتبة الاعتبار الاجتماعية . وإلا فالإسلام يهدف إلى تخطي هذه الاعتبار . عند الترمذي حديث : « إذا أتاكم من ترضون دينه وخلقه فأنكحوه إن لا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير . قالوا : يا رسول الله ولو كان فيه ؟ (أى شيء لا يرضاه العرف) قال : إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فأنكحوه ! كررها ثلاث مرات » . الحديث تكلم في صحته المحدثون ، لكن فعل الصحابة يؤكد ، فعند البخاري وأبي داود والنسائي أن أبا حذيفة ، وهو من أئمر قريش ومن شهد بدرأ ، تبنى سالماً مولى امرأة من الأنصار ، وزوجه ابنة أخيه . وروى الدارقطني أن بلالاً تزوج أخت عبد الرحمن بن عوف القرشي .

من تغليب العقل أن النظر إلى المخلوبة أمر مندوب إليه . وهو نظر تدقيق لا كنظرة الباحث والباحثة . وكذلك الصداق ، وهو واجب ، جعل الشرع الاتفاق عليه وتسميته موكولاً إلى التراضي العقلي المصلحي ، جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « إني تزوجت امرأة من الأنصار ، فأعني على مهرها . فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : هل نظرت إليها ، فإن في أعين الأنصار شيئاً ؟ قال : قد نظرت إليها . قال : على كم تزوجتها ؟ قال : على أربع أواق . قال : على أربع أواق ؟ كأنكم تنحتون الفضة من عرض هذا الجبل ! ما عندنا ما نعطيك ! ولكن عسى أن نبعثك في بعث نصيب منه ! قال : فبعث بعثاً إلى بني عبس ، فبعثه معهم » . رواه مسلم عن أبي هريرة .

من تغليب العقل على العاطفة في الزواج أن أباح الشرع التشارط قبل العقد. تشترط هي ويشترط هو ما لا يصطدم مع الشريعة . في كتاب النكاح من صحيح البخاري : « باب الشروط في النكاح » روى فيه عن عقبة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « أحق ما أوفيتم من الشروط أن توفوا به ما استحللتم به الفروج » . قال الحافظ ابن حجر معقباً على هذا الحديث : « الحديث عندهم محمول على الشروط التي لا تنافي مقتضى النكاح ، بل تكون من مقتضياته ومقاصده ، كاشتراط العشرة بالمعروف والإنفاق والكسوة والسكنى ، وأن لا يقصر في شيء من حقها من قسمة ونحوها . وكشرطه عليها أن لا تخرج إلا بإذنه ، ولا تمنعه نفسها ، ولا تصرف في متاعه إلا برضاه ، ونحو ذلك » .

واختلف الفقهاء في شرط أن يكون طلاقها بيدها ، يعني أنها تطلق نفسها منه إن شئت . فيرى الحنفية أنه شرط صحيح ، ويرى المالكية أنه فاسد .

وقد جعل الله عز وجل الطلاق إلى الرجل اعتماداً على قوامته وقربه من ضبط النفس عند الغضب . والاجتهاد الحنفي معتبر شرعاً . فرب رجل لا تؤمن غوائله ، فيكون الاحتياط منه والريية فيه وسيلة للاحتماء منه بالشرط . لكن زواجاً بدأ بالشك والحديث عن الطلاق المحتمل زواج وأهن من الميلاد .

وللمرأة تقدير ما يترتب على إقدامها وقبولها واختيارها . فهي عاقلة كاملة العقل فإن كان حديث « هن ناقصات عقل ودين » حديثاً صحيحاً ، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم فسر ذلك بأن الشاهدين تعدلان شاهداً واحداً لأنها تغفل فتذكرها صاحبها ، ولأن أياماً من الشهر لا تصلي فيها المرأة . وقد قبل صلى الله عليه وسلم شهادة امرأة واحدة في الرضاع ، وقبل الفقهاء شاهدين فيما يخص النساء من أمور . تظلم ويساء بها الظن وتؤول الأحاديث للخط منها .

إن التعليم الذي فرضه الله على كل مسلم والخوف من الله الذي يُرى عليه الإيمان هما الضمان لإخراجها من قوقعة الاستخفاف بها ، والجهل بحقوقها ، والتخاذل عن الاحتجاج والدفاع عما أكسبها الشرع وحرّمها الفقه المنحسب .

أنقل عن كتاب « تحرير المرأة » نصاً لتقى الدين الهلالي من فقهاء المغرب المعاصرين رحمه الله قال : « في تعليم الإناث وتربيتهن ثلاثة مذاهب متباينة . المذهب الأول : عدم تعليمهن أكثر من قراءة المصحف بدون فهم . قال أصحاب هذا المذهب : إنه أحسن المذاهب وأولها بالصواب ، وهو الذي وجدنا عليه آبائنا ، وهم كانوا أحسن منا ، وتعليم النساء يفسد أخلاقهن ، فإن المرأة التي لا تقرأ ولا تكتب تكون بعيدة عن متناول شياطين الإنس ، فإن القلم كما لا يخفى أحد اللسانين . فبعدم معرفتها للقراءة والكتابة تأمن شر اللسان الثاني فيتم لها الأمن . وكم رأينا من متعلمات لم يأتتهن الشر إلا من قبل تعلمهن ، وهذا في زمان الإسلام والعفاف والأنفة العربية ، وأما في هذا الزمان فقد بلغ السيل الزبى واتسع الخرق على الراقع فإن معرفة الفتاة للقراءة توصل إلى ذهنها جميع ما يقع في الدنيا من الفساد والمخادنة ، وتملأ فكرها بهواجس خبيثة كانت في عافية منها .

الحل المنطقي ليس التعليم والتربية ، لكن السد والغلق والخنق والمجدران والحبس

خاتم من حديد

قد يكون من أكبر معوقات الزواج وموانعه ، ومن نواقضه ومقوضاته النفقات الباهظة في المهور والأعراس والهدايا والشروط .

سرعان ما يتقوض بيت أسس على ديون وأعراف مكلفة وتحملات فوق الطاقة تثقل الكاهل ، وتنغص العيش ، وتُسمم العلاقات .

ليس العامل النفسي الخلقي ، وسوء الاختيار ، والتعلق بالتمثيلات والمثاليات العوامل الوحيدة للطلاق وخراب البيوت . بل العامل المادي حاجز قاطع عن الزواج ومِعول ينخر في البناء إن تجاوز الناس الحاجز . معول ينخر في بناء بيت الزوجية ، وينخر في أخلاق المجتمع كله .

الصدّاق ركن من أركان الزواج وشرط من شروط صحته مع الولي والشاهدين . هو دين وفريضة من قوله تعالى : ﴿ وَأَتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً * فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ * هُنِيئًا مَرِيئًا ﴾ (١) . نِحْلَةٌ : أي فريضة . والتراضي في الصدّاق ، وطِيبَةُ نفس الزوج المخطوبة مطلوب شرعاً . في حديث عند ابن أبي حاتم أنهم سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذه الآية قائلين : وما العلائق بينهم ؟ قال : « ما تراضي عليه أهلولهم » .

لم يُقدّر الشرع مقداراً للصدّاق ، وإنما أطلقه في قوله تعالى : ﴿ وَأَتَيْتُمُ إِحْدَاهُنَّ قِطَارًا ﴾ (٢) . والقنطار ألف دينار أو أكثر من الدنانير الذهبية في ذلك الوقت . لم يحصر القرآن مقدار الصدّاق ، وإنما أشار إلى طيبة النفس ، وفسرت السنة ما ينبغي من التراضي . لكن السنة الحية توصي النساء بالرضى ولو بقدر من المال رمزي ، ولو بعتاء معنوي من قبل الرجل يرهن به عن رغبته في المرأة وتقديره لها .

(١) سورة النساء الآية : ٤ .

(٢) سورة النساء الآية : ٢٠ .

في كتاب النكاح في صحيح البخاري « باب المهر بالعروض وخاتم من حديد »
العروضُ هي الأمتعة بلا مال . ويأتي البخاري رحمه الله بحديث سيدنا سهل بن
سعد أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لرجل : « تزوج ولو بخاتم من حديد » . وفي
« باب تزويج المعسر » روى البخاري الحديث كاملاً ، وهو حديث متفق عليه من
طريق سهل بن سعد قال : « جاءت امرأة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت
يا رسول الله جئتُ أهَبُ نفسي لك . فنظر إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم
فصعد النظر فيها وصوب ، ثم طأطأ رأسه . فلما رأت المرأة أنه لم يقض فيها شيئاً
جلست . فقام رجل من أصحابه فقال : يا رسول الله إن لم يكن لك بها حاجة
فزوجنيها . فقال : هل عندك من شيء ؟ فقال : لا والله يا رسول الله فقال : اذهب
إلى أهلِكَ فانظر هل تجد شيئاً . فذهب ثم رجع فقال : لا والله ما وجدت شيئاً فقال
رسول الله صلى الله عليه وسلم : انظر ولو خاتماً من حديد . فذهب ثم رجع فقال :
لا والله يا رسول الله ، ولا خاتماً من حديد ولكن هذا إزارى - قال سهل : ما له
رداء - لها نصفه . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما تصنع بإزارك ؟ فإن
ليست له لم يكن عليها منه شيء ، وإن ليست له لم يكن عليك منه شيء فجلس الرجل ،
حتى إذا طال مجلسه قام . فرآه رسول الله صلى الله عليه وسلم مؤلياً ، فأمر به فدُعي
. فلما جاء قال : ما معك من القرآن ؟ قال : معي سورة كذا وسورة كذا ، عددها .
قال : تقرؤون عن ظهر قلبك ؟ قال : نعم قال : اذهب ، فقد ملكتكها بما معك من
القرآن » .

في رواية : « انطلق فقد زوجتكها ، فعلمها من القرآن » .

لما تزوج النبي صلى الله عليه وسلم فاطمة ابنته سيدة النساء لعلى بن أبى طالب
قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أعطها شيئاً . (شيئاً يكون مقدّم الصداق)
قال على : ما عندي شيء قال : أين درعك الحطمية ؟ » . حديث رواه أبو داود
والنسائي عن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما بسند صحيح .

لا إله إلا الله واحد ما عنده إلا آلة جهاده : درع تحطم سيوف الأعداء عليها ،
والآخر لا يجد ولا خاتماً من حديد ، بل ولا رداء له يستتر به كتفيه ، لكن معه سور
من القرآن . وكن نساء الإسلام يرضين ويطن نفساً بالزواج من أولئك الأبطال على
مهر رمزي ، وعلى أن يعلمهن الزوج من القرآن . كان القرآن قيمة مقدرة ، وكان
تعليمه إفضالاً وعطاء .

روى أبو داود عن أبي هريرة أن الرجل الذي لم يجد ولا خاتماً من حديد كان
معه من القرآن سورة البقرة ، وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم زوجه المرأة على
أن يعلمها عشرين آية .

وترضى المؤمنة الصحابية من الخاطب الغني غير ما تطمع إليه عامة النساء من
مال . لا تطيب نفسها بغير أنفس ما يملكه . روى النسائي عن أنس أن أبا طلحة
خطب أم سليم . أبو طلحة من أغنياء الأنصار ، وأم سليم وما أدراك ما أم سليم بطلة
مجاهدة . قالت له : والله ما مثلك يا أبا طلحة يُردّ ولكنك رجل كافر ، وأنا امرأة
مسلمة ، ولا يحل لي أن أتزوجك ، فإن تسلم فهذا مهري ، ولا أسألك غيره . فأسلم
، وكان ذلك مهرها . قال ثابت (الراوي) فما سمعت بامرأة قط كانت أكرم مهراً
من أم سليم . الإسلام . فدخل بها فولدت له .

أبو طلحة لم يُسلم إرضاء للمرأة ، وإنما تطابقت الخطبة مع هداية إلهية ، وميل
منه صادق ، يدل على ذلك أن أبا طلحة صحب النبي صلى الله عليه وسلم بعد
ذلك ، وسمعه يوماً يحث على الصدقة ويذكر فضلها ، فتصدق بأحبّ ماله إليه ،
بستانٍ نخل اسمه « بئر حاء » .

حذار من مهاجري أم قيس ، مهاجر أم قيس رجل يروى أنه هاجر من مكة إلى
المدينة ، قصد المؤمنون والمؤمنات الله ورسوله وقصد هو الزواج بأم قيس . يذكر
خبره مع حديث : « إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى . فمن كانت
هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته إلى دنيا

يصيها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه . حديث متفق عليه عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

حذار أن تغتر المؤمنات بالخطاب الأروبي الأمريكي المعجب بالزى الغريب والنكهة مما وراء البحار ، يتنمس ويتمسلم .

كان صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم لأزواجه وسطاً . سأل أبو سلمة بن عبد الرحمن أمنا عائشة عن صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم كم كان . قالت : « كان صدقه لأزواجه ثنتي عشرة أوقية ونشاً . قالت : أتدري ما النش ؟ قلت لا . قالت : نصف أوقية ، فذلك خمسمائة درهم » . أخرج الحديث مسلم وأبو داود والنسائي . خمسمائة درهم في ذلك الزمان كانت مالاً لأبأس به . اشترى رسول الله صلى الله عليه وسلم جملاً بأوقية واحدة كما في صحيح مسلم .

عامة القول أن الصحابة رضي الله عنهم رجالاً ونساء تربوا على التقليل في المهور ومراعاة حال الخطاب . لما ولي عمر بن الخطاب رضي الله عنه الخلافة خطب الناس يوماً فقال : ألا لا تغالوا في صدقات النساء فإن ذلك لو كان مكرمة في الدنيا وتقوى عند الله كان أولاكم بها رسول الله صلى الله عليه وسلم . ما أصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم امرأة من نسائه ولا أصدق امرأة من بناته أكثر من ثنتي عشرة أوقية . حديث صحيح رواه الإمام أحمد وأبو داود والترمذي والنسائي . زاد النسائي من كلام عمر : وإن الرجل ليغلي بصدقة المرأة حتى يكون لها عداوة في نفسه . وحتى يقول : كلفت لكم القرية (تكلفت شدة) .

علل أمير المؤمنين عمر نهييه عن التغالي في المهور بما يخشى من تكليف الخطاب ما لا يطيق ، فيعود عليه ذلك بالدين وسوء العلاقات مع الزوج والأصهار .

وعند الحافظ أبي يعلى أن امرأة من قريش قامت إلى عمر بعد خطبته واعترضته قائلة : « يا أمير المؤمنين نهيت الناس أن يزيدوا في مهر النساء علي أربعمائة درهم ؟ قال : نعم . قالت : أما سمعت ما أنزل الله في القرآن ؟ قال : وأى ذلك ؟ قالت : أما

سمعت الله يقول: ﴿وَأَتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قَنْطَارًا﴾ ؟ فقال عمر: اللهم غفراً كل الناس أفقه من عمر ثم رجع فركب المنبر فقال: أيها الناس إني كنت نهيتكم أن تزيدوا النساء في صدقاتهن على أربعمائة درهم، فمن شاء أن يعطي من ماله ما أحب «
إسناد الحديث جيد قوي كما قال ابن كثير رحمه الله .

يتلخص من هذا أن الحاكم ليس له أن يحد للمهور حداً . لكن الفساد الكبير الذى ينشأ عن عزوبة الرجال وعنوسة النساء من جراء التغالي فى المهور فساد وبيل . فإن كانت الدولة الإسلامية لا يمكن أن تخرق النص القرآنى المفتوح ، فإن على الدعوة أن تربي الرجال والنساء على سنة التيسير ، حتى يصبح عند الأسر مَفخرة أن يصهر إليهم الأتقياء لا الأغنياء ، وحتى يصبح فى نظر المؤمنة أكرم مهر ما شابه مهر أم سليم . من فساد العادات ، وتوغل الأسر فى التكاثر والتفاخر ، أن البنت التى زوجها ولي تقي بمهر رمزي تسمي مضغة فى الأفواه ، تستهين بها القرينات وأسرّة الزوج والقرابة والأصدقاء .

ماديات تقيم العروس بالذهب والفضة كأنها متاع . وباء تسيل آفاته على المجتمع فيتعزب الفقير وتعس التي فى قبضة السلطة الاجتماعية سلطة القيل والقال .

آفة تضاف إلى آفات التبرج وانحطاط الأخلاق وهوس الاختلاط وسوء حال العاقل وقلة ذات اليد فى طبقة ، وفحش الثروة فى طبقة . فتتكون من كل ذلك بيئة سوء الظن ، والإعراض عن الزواج ، وتعاطي المنكرات .

صفحة من كتابات الرافعي رحمه الله نختم بها معبرة عن هذا المرض . قال :
« من كان فاسقاً أساء الظن بكل الفتيات ، ووجد السبيل من واحدة إلى قول يقول
فى كل واحدة . ومن كان عفيفاً سمع من الفاسق فوجد من ذلك متعلّقاً يتعلق به ،
وقياساً يقيس عليه » .

هذا عن العامل النفسى الخلقي العائق عن الزواج . وعن العزّاب يقول الرافعي رحمه الله : ما ساء رأي العزّاب فى النساء والفتيات إلا من كونهم بطبيعة حياتهم المضطربة لا يعرفون المرأة إلا فى أسوأ أحوالها وأقبح صفاتها ، وهم

وَحَدَّهْمْ جَعَلُوهَا كَذَلِكَ .

قال رحمه الله : « إن لهم وجوداً محزوناً يستمتعون فيه ، ولكنهم يهلكون ويهلكون به . هم والله أساتذة الدروس السافلة في كل أمة . وهم والله بغاة من الرجال في حكم البغايا من النساء ، يجرون جميعاً مجرى واحداً . ومن هي البغي في الأكثر إلا امرأة فاجرة لا زوج لها . ومن هو العزب في الأكثر إلا رجل فاسق لا زوجة له . على أن مع المرأة عذر ضعفها أو حاجتها ، لكن ما عذر الرجل ؟ » .

قال : « ماذا تفيد الدولة أو الأمة من هذا العزب الذي اعتاد فوضى الحياة وسيرها على نظامها وتحققها على أسخف ما فيها من الخيال والحقيقة ؟ وأي عزب يجد الاستقرار ، أو تجتمع له أسباب الحياة الفاضلة ، وهو قد فقد تلك الروح التي تُنمُّ روحه ، وتنقحها ، وتمسكها في دائرتها الاجتماعية على واجباتها وحقوقها ، وتجيئه بالأرواح الصغيرة التي تشعره التبعة والسيادة معا ، وتمتد به ويمتد بها في تاريخ الوطن ؟ » .

قلت : يقصد رحمه الله بالروح المتممة المنقحة الزوج التي تُغير بوجودها في مأواه وجه حياته بما تتيحه له ويتيح لها من معاني الاستقرار والرحمة والسكون . ويقصد بالأرواح الصغيرة الأطفال زهرة الحياة وذخر المستقبل وصالح العمل .

ويُغلظ الرافعي التوبيخ للعزب فيقول : « كيف يعتبر مثل هذا موجوداً اجتماعياً صحيحاً وهو حتى مختل مستعار ، يقضى الليل هارباً من حياة النهار ، ويقضي النهار نافراً من حياة الليل ، فيقضى عمره كله هارباً من الحياة ، وكأنه لا يعيش بروحه كاملة بل ببعضها ، بل بالممكن من بعضها . أية أسرة شريفة تقبل أن يسكنها رجل عزب ؟ وأية خادم عفيفة تطمئن أن تخدم رجلاً عزباً ؟ هذه هي لعنة الشرف والعفة لهؤلاء العزاب من الرجال » .

قلت : رحم الله الرافعي ، ووقانا الله مواطن اللعنات ومواطن الزلل

مُدَانِ مِنْ شَعِيرِ

عند البخاري حديث رواه عن صفية بنت شيبة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أوْلَمَ على بعض نسائه بُمْدَيْنِ من شعير . حفتان من شعير كانوا لا يَنخُلُونَهُ . عند ابن ماجه والحاكم أن أمَّ أَيْمَنَ حاضنة رسول الله صلى الله عليه وسلم غرِبتْ دَقِيقاً فصنعت رَغِيفاً لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : ما هذا ؟ قالت : طعام نصنعهُ بِأَرْضِنَا (الحبشة) ، فأحببت أن أصنع لك منه رَغِيفاً . فقال رُدِّيهِ فيه ثم اعجنه . كذا في « الترغيب » .

أين نحن في عصور الإسراف والتبذير والنفقات التي لا جدوى منها للمجتمع من تلك البساطة ، ومن ذلك الزهد ؟ ! إنها إتاوة يأخذها سلطان العادة وشيطان الفخفخة حين يتغالى الناس في المهور ، وحين يقيمون هذه الولائم والأعراس الصاخبة . يعسرون بذلك الزواج ويفتحون الأبواب للزنى . يتدع كل قوم طقوساً وأعرافاً يخضع لها الخاص والعام ، وتتولاها نساء محترفات . والأسر خاضعة متباهية شارطة نفقات العرس ، وطرائف الجهاز . وهكذا تنراكم أسباب زعزعة البيوت الناشئة .

تفتح الأجيال أعينها على بحر خضم من الفساد يحسبونه الصلاح بعينه . شعار بنات الدنيا وأبنائها : « ليلة العمر » . وكأن بهرج ليالي العرس وما فيها من رقص واختلاط وخلاعة وتبذير شيطاني هي السعادة لا التكد في الدنيا والتبعة في الآخرة .

يضاف إلى هذه المناكر إرهاب العروسين جسمياً ونفسياً ، فلا تصل لحظة اللقاء إلا والبنت في غاية الإنهاك من النسيج والتعب والانكساف من عادات عرض دلائل البكارة على الجمهور . أما إذا كانت الأسر مُفرجة فتخيلى ما شئت من مراقبة العروس للشباب ، تغتورها الأيدي لتسلمها بضاعة مبتذلة للعريس آخر الليل .

ففي مجتمعاتنا المسلمة التقليدية ، عند الأمهات والجذات والعمات والخالات ، أصول أخلاقية في المحافظة على سمعة الأسرة وعفة الفتاة . وتلك الفضائل الموروثة الفطرية حليفة للتقوى والتربية الإيمانية ، لكن عادات الإرهاق والكسف ، مثل عادات التبذير وسائر البدع ، لا مكان لها في مجتمع إسلامي متجدد . نخضع للسنة لا لما ابتدعه الناس . نرتقي درجة درجة على سلم الفضائل ومراقبي شجاعة إبطال المنكر والنهي عنه لنستصفي من المروءات الموروثة ما هو صالح حليف ، ولننبذ منها نبذ النواة ما يستنزف المال والوقت والجهود .

كيف ينظر قوم لاعبون في دنياهم لاهون عن صلاتهم إلى السنة في أعراس السلف الصالحين المجاهدين . الصالحات المجاهدات والصالحون كانوا يمسكون بأسباب القوة ، يحملون أمانة الدين بقوة . والتافهون اللاهون تتضايق فيهم أسباب الضعف التقليدي مع أسباب التقليد الخانع لما يفعله الناس ، وما يتعارف عليه الزمن وأهله ، فهم في انحلال واعتلال .

روى الشيخان عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أولم على أم المؤمنين صفية وليمة ما فيها خبز ولا لحم . الأقط (لبن معقود) والسمن والتمر . كان الخبز الساذج - لا رغيف أم أيمن - مع اللحم أجود طعام تلك الأيام .

أفخم ولائم النبي صلى الله عليه وسلم كانت وليمته على أم المؤمنين زينب . أولم بشاة . روى الشيخان وأبو داود عن أنس رضي الله عنه قال : « ما أولم رسول الله صلى الله عليه وسلم على أحد من نسائه ما أولم على زينب . أولم بشاة » . ولما تزوج عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه بارك له رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمره أن يؤلم ولو بشاة .

ولائم السنة كانت بسيطة ليس للفقر وقلة ذات اليد ، بل لأن القوم رضي الله عنهم كانوا لا يحبون الترف ورخاوة العيش ، وهم ونساؤهم كانوا مجاهدين . كان منهم أغنياء مثل التاجر الناجح عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه ، لكن ولائهم

كانت جامعةً مقاطعةً لعادات التبذير ولخواجز الفروق الاجتماعية . روى الشيخان وغيرهما أن أبا هريرة - وهو من أفقر الصحابة - كان يقول : « شر الطعام طعام الوليمة يُدعى له الأغنياء ، ويترك المساكين . ومن لم يأت الدعوة فقد عصى الله » . معنى كلامه أن شر الولائم هي التي يدعى إليها الأغنياء دون الفقراء . أما الوليمة الخالية من الفرز الطبقي فهي سنة . ولا يفعلها في عصرنا أحد . اللهم رُدنا إلى سبيل الهدى .

كانت حياة النبي صلى الله عليه وسلم وحياة أصحابه متساوية بسيطة لا تكلف فيها . وإن كانت ضغوط اجتماعية فهي إلى التسوية وإشاعة العدل الاجتماعي ترمي لا إلى التفاخر والتكاثر . وإن كان تكلف لعرس أو وليمة أو استضافة فسقفها شاة وخبز .

قرأنا في فصل سابق كيف استأذن عمر بن الخطاب على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فصعد إلى المشربة (الغرفة) فوجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى جنبه آثار الحصر الذي كان فراشه ، وقرأنا أن المشربة ما كان فيها من أثاث يرد عين الناظر إلا أهب ، أي جلود مدبوغة . وأخرج البيهقي عن أمنا عائشة قالت : « دخلت علي امرأة من الأنصار فرأت فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم قطيفة (غطاء من صوف) مثنية ، فبعثت إلي بفراش حشوه الصوف فدخل علي رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : ما هذا يا عائشة ؟ قالت : يا رسول الله ! فلانة الأنصارية دخلت فرأت فراشك ، فذهبت فبعثت إلي بهذا . فقال : رُدِّي يا عائشة ! فوالله ! لو شئت لأجرى الله معي جبال الذهب والفضة » .

هذا فراش البيت الشريف : غطاء مثنى . ونطلع على آل البيت الأشراف فنقرأ عند الإمام أحمد روايات ثلاث عن علي بن أبي طالب أن جهاز فاطمة الزهراء كان كما يلي : حَمِيل (غطاء صوف خشن) وقربة ووسادة آدم (جلد) حشوها ليف الإذخر (خيوط نباتية) . في الرواية الثالثة ذكر في الجهاز سقاء وجرتين .

عن قريب إن شاء الله نقرأ من تاريخ تدهور المسلمين كيف كان عرس أكابر الدنيا في أوج عظمة حضارة المسلمين ، وكيف كانت لهم حصراً ... لكن من ذهب . بعد حين نقرأ عن عرس المأمون العباسي وجهاز بوران ربيبة الترف . ملوك لعبوا بأموال المسلمين ، أشركهم التزوير التاريخي مع أئمة الهدى في الاسم ، فسموا خلفاء كما هم الخلفاء الراشدون خلفاء .

نعرض قبل حضور عرس الملوك صوراً من تعفف أئمة الهدى ليزري الخبر بالخبر ، وليكشف الحق عن الباطل . أخرج الإمام أحمد وأبو يعلى عن أم سلمة أم المؤمنين قالت : « دخل علي رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو ساهم الوجه (متغير الوجه) ، فخشيت ذلك من وجع (ظننت أن به وجعاً) . فقلت : يا رسول الله ! ما لك ساهم الوجه ؟ فقال : من أجل الدنانير السبعة التي أتينا بها أمس . أمسينا وهي في خضم الفراش (جانبه) » . في رواية : (أتنا ولم ننقها) . حديث صحيح .

دنانير سبعة كدّرت صفو عيش خليفة الله في أرضه ورسوله ومصطفاه أن لم ينقها ، تعطلت يوماً وليلة عن السعي إلى أصحاب الحاجات .

لما بويع أبو بكر لقيه عمر غادياً إلى السوق بأثوابه التي يتجر فيها . فانطلق به إلى أبي عبيدة صاحب المال واجتمع المهاجرون والأنصار ففرضوا له معاشاً وراتباً ليتفرغ لتسيير شؤون الأمة . فرضوا له ما يغنيه ! بردان (كساءان يضع أحدهما على كتفيه ، فإذا نزع ليغسله كان له ما يلبسه) إن أخلقهما (أبلاهما) وضعهما وأخذ مثلهما وظهره (أي دابة يركبها) إذا سافر . ونفقته على أهله كما كان ينفق قبل أن يستخلف قال : رضيت ! أخرجه ابن سعد .

رأى المهاجرون والأنصار ما وسع الله عليهم بقيادة أميرهم عمر بن الخطاب ، حتى تدفقت عليهم كنوز كسرى . وأبوا أن يرى الوافدون أميرهم وعليه ثوب رقعة اثنتي عشرة رقعة ، وأرادوا أن تكون له هبة في أعين الناس ، فبعثوا ابتته حفصة وعائشة فكلمتاه في الموضوع ، واقرحتا عليه أن يحسن من ملبسه ومأكله ، فبكى

بكاء شديداً ، وذكرهما بما كان عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر من التقلل من الدنيا ، ورفض رفضاً قاطعاً أن يتصرف في مال المسلمين بالإتفاق الباطل .
روى ذلك ابن عساكر .

وروى أبو نعيم عن عبد الملك بن شداد قال : رأيت عثمان بن عفان رضي الله عنه يوم الجمعة علي المنبر عليه إزارٌ عَدَنِيٌّ غليظ ثمنه أربعة أو خمسة داهم ، وريطة (كساء) كوفية ممشقة (مصبوغة) . عثمان الوافر الغني صعد منبر الخلافة رضي الله عنه فما أثر في سلوكه لا الغنى ولا الرياسة .

وولي الإمام علي فكان آية في الزهد والتعفف والتقلل . أخرج ابن المبارك عن زيد بن وهب قال : خرج علينا علي رضي الله عنه وعليه رداء وإزار وقد وثقه بخرقه . فقليل له (أي سألوه) . فقال : إنما ألبس هذين الثوبين ليكون أبعد لي من الزهو (أي الكبير) .

وكان الأب ينهى ابنته عن مظاهر الترف . أخرج أبو نعيم عن عائشة قالت : « لَبِسْتُ مَرَّةً دِرْعاً (قميصاً) لي جديداً . فجعلت أنظر إليه وأعجبُ به . فقال أبو بكر : ما تنظرين ؟ إن الله ليس بناظر إليك ! قلت : ومِمَّ ذاك ؟ قال : أما علمت أن العبد إذا دخله العُجبُ بزيته الدنيا مَقَّتَه ربه عز وجل حتى يفارق تلك الزينة ؟ قالت : فنزعته فتصدقته به » .

زوج عبد الله بن عمر ابنه سالماً فزينوا الجدران ، ودخل أبو أيوب الأنصاري فأنكر ما رأى ، فاعتذر عبد الله بأن النساء غلبنهُ ، فخرج أبو أيوب منكراً ولم يذق لهم طعاماً .

وهذا عرس المأمون وبوران أنقله من مقدمة ابن خلدون كما نقله عن المسعودي والطبري . الحسن بن سهل (والدُ بوران) نثر (رمى لهم ليلتقطوه ويتخاطفوه) على المدعوين ، فنثر على الطبقة العليا منهم بنادق المسك (قطع المسك) مَلْثُوَّةٌ على الرِّقَاع (مطوية فيها إسهادات بتملك من تَقَع الرِّقَاع في يده) بالضياع والعقار ، مَسْوُغَةٌ (ممنوحة جائزة) لمن حصلت في يده . يَقَع لكل واحد منهم ما أداه إليه

الاتفاق والْبَيْخْتُ (السَّعْدُ). و فرق على الطبقة الثانية بِدَر الدنانير (صَرَر الدنانير) ، في كل بِدْرَة عشرة آلاف دينار . و فرق على الطبقة الثالثة بِدَر الدراهم كذلك بعد أن أنفق في مُقامة المأمون بداره أضعاف ذلك .

بين هذا البذخ الكِسْرُوي وبين عصر المجاهدين مائتا عام وأقل - بينه وبين صداق خاتم من الحديد وعُرس المدين من الشعير ستة أجيال أو أقل - تم العرس سنة ٢٠٢ للهجرة .

أعطى المأمون لعروسه في مهرها ليلة زفافها ألف حصاة من الياقوت ، وأوقد شموع العنبر في كل واحدة مائة من (وحدة وزن ذلك الزمن) وهو رطل وثلثان . وبسط لها فرشاً كان الحصير منها منسوجاً بالذهب ، مكللاً بالدر والياقوت . وأعدّ بدار الطبخ من الحطب لليلة الوليمة نقل مائة وأربعين بغلاً مدة عام كامل ، ثلاث مرات في كل يوم . تصوّرني أخت الإيمان ما يكون الجهاز قياساً على العرس والوليمة يخجل وينكسف وينكس رأسه منهزماً عرس المأمون ، والياقوت والذهب الذي بذره من أموال المسلمين المأمون وأضراب المأمون وحاشية الملوك الأقدمين وأصهارهم ، أمام الترف والتهتك واللعب بالأموال ، كما يمارس ذلك أمراء النفط وحواشي الملوك في زمننا . علة سياسية وفساد في الرأس ، فما يغني التذكير بالسنة ! .

رحم الله ابن حزم الفقيه النائر قال : ولا يجوز أن تجبر المرأة على أن تتجهز إليه بشيء أصلاً . لا من صداقها الذي أصدقها ، ولا من غيره من سائر مالها . والصداق كله لها ، تفعل به كله ما شئت ، لا إذن للزوج في ذلك ولا اعتراض .

ويثور ابن حزم ثورته على الإمام مالك الذي نقل عنه قوله : « إن أصدقها دنانير أو دراهم أجبرت على أن تبسّاع بكل ذلك شورة من ثياب ووطاء وحلي تتجمل به له » .

ثورة فقهية تبقى حبراً على ورق . إنما القومة الإسلامية توبة عامة تقوض الباطل من أساسه ، وتفضع ينابيع البدعة من أعماقها . والله هو القوي العزيز .

تعدد الزوجات

همهمة في معبد الطاغوت هي الفتوى الفقهية ، مهما كانت صالحة مصيبة ، إن لم يكن الفقه ترعاه قوة ، بل إن لم يكن أهل القرآن مشرفين من جانب الحق على أهل السلطان ، بل إن لم تكن الدولة في يد الدعوة ، بل إن لم تكن الأمة كلها معبأة مع الدعوة تنصر شرع الله والدولة في خدمتها ، لا سيدة مستبدة عليها ، مسؤولة أمامها ، لا مطلقة تعبت بالأموال والأعراض .

فساد في الرأس ، فما يغني التفقيه في الدين إلا أن يكون إعداداً للقوة ، وقومة من القومة ، وإلا فالدولة المتسلطة اللابيكية في عصرنا لا تعبأ بدين وسنة وفقه إلا بقدر ما تنافق بذلك وتزور وتظاهر . ما تغني الكواجب الشرعية التي ترمي إلى درء مفاسد الأخلاق ومحاصرة الزنى إن كانت يد السلطان نجسة ، وكان هواه مع الحداثة الإباحية ، وكان فقه الفقيه وسنة التقي نسكاً فردياً وكلمة معطلة ، وكان القانون الذي تصوت عليه البرلمانات منافراً للدين مضادراً للسنة ؟ !

من الكواجب المهمة للزنى واختلاط الأنساب شريعة تعدد الزوجات المحدود في أربع حرائر يصونه وجودهن ، وتصونهن قوامته وكفالتته وغيرته . من المراكب المفضلة عند الطاعنين على الإسلام والطاعنات هذه الشريعة المنحازة للرجل في زعمهم وزعمهن . تدعو المارقات ويدعو المارقون إلى أن يكون للمرأة مثل ما للرجل من حق التعدد . مناضلات ومناضلون في حزب الإباحية لا ينتظرون تشريعاً وإشارة مرور قانونية ليمارسوا رياضتهم المفضلة : الزنى بلا حدود . الزنى الحرية . الزنى الثورة .

إن تعدد الزوجات في شريعة الإسلام حل استثنائي لحالات استثنائية ، ما هو أصل وقاعدة . فإن استغل بعض الرجال هذه التوسعة الشرعية ليُشبعوا أنفسهم لذة ويشبعوا النساء ظُلماً فالحيف منهم لا من الشريعة . التعدد حل لما يمكن أن يلقيه

الرجل ، أو يعانيه المجتمع من مشاكل : الرجل تقوى فيه الحاجة فلا تكفيه امرأة واحدة أو تمرض وهو صحيح ، أو تعقم وهو يطلب الولد . والمجتمع يربو فيه عدد النساء على عدد الرجال ، فتجيء شريعة التعدد لتصون حصّةً منهن عن العنوسة والشارع . تكون شريعة التعدد هي الحل الوحيد إن حصدت الحرب الرجال كما حدث في الحربين العالميتين في قرن العجائب والعنف .

فالتعدد حصانة للرجل والمرأة والمجتمع . وبديله الرذيلة في المجتمعات الانحلالية حيث تنطلق الشهوات ما لها من رادع ، تخادِن هي ويعاشر هو ما شاءت الحرية الدوائية من أخلاء وخليلات . إن الاختيار هو اختيار بين أقصى ما يمكن من عدل وإنصاف للمرأة وأحط ما يمكن أن تنزل إليه المرأة . إنه اختيار بين الغريزة تحكّم وبين الفطرة مهّد لها الفاطر سبحانه سبيلاً إلى سعادتها الدنيوية والأخروية .

أيهما أفضل وأكرم وأطهر للمرأة : أن تكون لها فرصة لتأوي إلى ساعد شديد ، وسقف آمن ، وعشرة طاهرة ، أم أن تتداولها أيدي الرجال العابثين لعبةً مبتذلة يخلولون إليها ويزينون « حريتها » ؟

التعدد ضرورة لحل مشاكل خاصة ، ضرورة لوقاية النشء وكفالاته . إنه حفاظ على الذرية أن تضع في حضن أم زانية مهما أصبحت الأم الزانية في المجتمع الدوائي محطاً للتكريم . إنه توظيف حكيم لمسؤولية الرجل أباً وراعياً ، لأن الزوج الجامع بين الضرائر لا تنزع الزوجات إلا وقته وماله ، أما المرأة الموزعة بين عدة رجال فهي في دوامة شركاء متشاكسين ، فأنتى تجد من نفسها مكاناً يتأصل عليه استقرار طفولة ، وتثبت فيه للطفولة جذور .

يملاً شوارع أوروبا وأمريكا نسلّة عيط من أمهات ساقطات يعترف المجتمع والقانون بهن . كاد الزواج عندهم يصبح مَعَرَّة . وتعدّ المارقات من بنات جلدتنا ذلك الاعتراف كسباً حاسماً للمرأة النموذج . بينما الأوربية العاقلة ينطق ضميرها إن لم ينطق لسانها - وهو ينطق ويشكو ويتألم - بما تعانيه الأم الزانية وما تقاسيه . منذ تسعين

عاماً كتبت إحدى عواقلهن في أوروبا ، إنجليزية تبث شكواها من فُشو الزنى وتنعت له حلاً . أنقل عن كتاب (المرأة بين الفقه والقانون) للأستاذ مصطفى السباعي رحمه الله ما يلي مما نشرته الإنجليزية وجريدة (لاغوس ويكلي ركورد) يوم ٢٠ نيسان ١٩٠١ . قالت : « إن هذا التحديد بوحدة هو الذي جعل بناتنا شوارد ، وقذف بهن إلى التماس أعمال الرجال . ولابد من تفاهم الشر إذا لم يُتَح للرجل التزويج بأكثر من واحدة » .

قالت : « أي ظنٌ وخرصٌ يحيط بعدد الرجال المتزوجين الذين لهم أولاد غير شرعيين ، أصبحوا كلاً وعاراً وعالة على المجتمع ؟ فلو كان تعدد الزوجات مباحاً لما حاق بأولئك الأولاد وأمهاتهم ما هم فيه من العذاب الهون ، ولَسَلِمَ عِرْضُهُن وعِرْضُ أولادهن ... إن إباحة تعدد الزوجات تجعل كل امرأة ربة بيت وأم أولاد شرعيين » . قلتُ : كتبت هذا قبل الثورة الجنسية التي رمت بالحضارة الغربية في الحضيض الأخلاقي الذي يُباح فيه السُّفاح ، ويتخلف بعضه عن بعض ، فيصوت برلمان متقدم متبنياً قانون الزواج بين الرجل والرجل وبين المرأة والمرأة ، ويتظاهر المحرومون والمحرومات في مجتمع غربي متخلف لما يقنن الزواج اللوطي .

ما لنا نبحث عن علة شريعة تعدد الزوجات وحكمتها بذهننا الكليل القاصر عن إدراك مقاصد الرب الحليم الكريم . يكفي المؤمنين والمؤمنات علماً أنها شريعة الله وسنة رسول الله . فمن آمن وأصلح وأدلى بحجة طاعته لربه وامثل فأجره على الله في البحث عن العلة والحكمة بأى وجه تسَلَّق على الشريعة ، ورائحة انهزامية أمام الذكر الآخر ، وشيء من التنطع العقلاني الذي يحرص على إبصار ما لا قِبَل للعقل بإبصاره كله . وعذرنا أننا نخاطب الكافة .

شريعة الله المطاعة تُحرِّج على الزوج ذي الضرائر تحريجاً شديداً أن لا يظلم إحداهن في قسمتها من وقته ونفقته ورعايته . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من كانت له امرأتان فلم يعدل بينهما جاء يوم القيامة وشِقُّه ساقط » . رواه أصحاب

السنن عن أبي هريرة بسند صحيح . الشَّقَّ : النِّصْف .

العدل بينهن هو الإطار الذي يطيبُ فيه التعدد عاقبةً أخرويةً . ظالم إحداهن يجيء يوم القيامة خلقاً مشوهاً إذا جاء المؤمنون عادلون خلقاً كاملاً . وعلى الرجل المضطر لتعدد الزوجات أن يجتهد لتطيبَ له بينهن العشرة في الدنيا إن استطاع . كما وسعت عليه الشريعة فلم تحمله إلا حقاً جامعاً هو العدل ، تتناوشه غيرة الضرائر ، ومكائدهن ، وتقلبتهن ، واشتغال بعضهن ببعض . فذاك التوسيع بهذا الحرج . وإن الله عز وجل نصح لعباده النصيحة الكاملة في آية واحدة تقدمت إلى العباد بما لهم وما عليهم في تعدد الزوجات . وذلك في قوله تعالى : ﴿ فأنكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع ﴾ (١) . انكحوا ما طاب ، فإن أسأتم التصرف والاختيار والسياسة الدقيقة وميزان العدل فأصبح عيشكم مخبئاً فذلك إليكم ، لأنكم ما عرفتم تطيبَ النفوس لتطيب لكم الحياة .

يتعلق بعض المتكبرين شريعة التعدد بقوله تعالى : ﴿ ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم ﴾ (٢) . ويعرضون الآية على فريضة العدل ليستتجوا أن التعدد مكروه شرعاً ، تكاد الآية تنهى عنه . وليس الأمر كما يتعلّقون لأن تمام الآية يفسر صدرها . والتمام هو قوله تعالى : ﴿ فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة وإن تصلحوا وتتقوا فإن الله كان غفوراً رحيماً ﴾ (٣) . الذي ليس في المستطاع هو العدل بينهن في الميل العاطفي . وتمام الآية يشير على المبتلى بالتعدد أن يسدّد ويُقارب فلا يعمل كل الميل إلى واحدة ويترك الأخرى كالمعلقة ، لا هي مطلقة ولا هي تحظى بما تحظى به الأخرى .

روى الإمام أحمد وأصحاب السنن عن عائشة رضي الله عنها قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقسم بين نسائه فيعدل ، ثم يقول : « اللهم هذا

من حقه مني .

رواه أبو داود .

(١) سورة النساء الآية : ٣ .

(٢) سورة النساء الآية : ١٢٩ .

(٣) سورة النساء الآية : ١٢٩ .

قَسَمِي فيما أملك ، فلا تُلْمَنِي فيما تملك ولا أملك . يعني الميل القلبي .

وتعدد زوجاته صلى الله عليه وسلم حتى جمع بين تسع هو من خصوصياته التي خصه الله بها ، وهو سبحانه لا يُسأل عما يفعل . وتملأ المارقات ، وأسأتذتهن من المستشرقين ، وعمداؤهن من الملحدّين ، الأرض عباطاً وتشنيعاً على نبي الهدى أن كان له تسع وليس لأُمته من الذكور إلا حقُّ أربع . على آية أرضية تناقشين المارقات يا أخت الإيمان؟ تنزلين معهن إلى الحجاج العقلاني وفي قلوبهن إصرارٌ على النفاق !

لتنوير عقل المؤمنين نورد ملخصاً لما قاله العلماء في الموضوع . وللمنافقات الهمل . قال الحافظُ ابن حجر في (الفتح) : « والذي تحصل من كلام أهل العلم في الحكمة في استكثاره من النساء عشرة أوجه ... أحدها أن يُكثِرَ مَنْ يشاهد أحواله الباطنة فينتقي عنه ما يظنُّ به المشركون من أنه ساحر أو غير ذلك . ثانيها لتتشرَّف قبائل العرب بمصاهرته فيهم . ثالثها الزيادة في تألفهم بذلك . رابعها الزيادة في التكليف : حيث كُلِّفَ أن لا يشغله ما حُبَّ إليه منهن عن المبالغة في التبليغ . خامسها لتكثُرَ عشيرته من جهة نسائه ، فيزداد أعوانه على من يحاربه . سادسها نقل الأحكام الشرعية التي لا يطلع عليها الرجال ، لأن أكثر ما يقع مع الزوجة مما شأنه أن يختفي مثله . سابعها الاطلاع على محاسن أخلاقه الباطنية ، فقد تزوج أم حبيبة وأبوها إذ ذاك يعاديه ، وصفيّة بعد قتل أبيها وعمها وزوجها ، فلو لم يكن أكمل الخلق في خلقه لنقرن منه ، بل الذي وقع أنه كان أحبَّ إليهن من جميع أهلهن . ثامنها ما تقدم مبسوطاً (مفصلاً في شرح ابن حجر في أبواب سابقة) من خرق العادة له في كثرة الجماع مع التقلُّل من المأكول والمشروب وكثرة الصيام والوصال ، وقد أمر من لم يقدر على مؤنِّ النكاح بالصوم ، وأشار إلى أن كثرتَه (كثرة الصوم) تكسر شهوته (شهوة الجماع) . فانخرقت هذه العادة في حقه صلى الله عليه وسلم تاسعها وعاشرها ما تقدم نقله عن صاحب (الشفاء) من تحصينهن والقيام بحقوقهن . والله أعلم . انتهى كلام الحافظ رحمه الله .

هذا ملخص ما وصل إليه تحليل العلماء وتعليقهم . ولله سبحانه من الحكمة في ذلك ما لا يدريه العقل . من وراء التعليل السياسي وتقوية العشيرة بالمصاهرة ، ومن وراء تكثير من يعاشرونه عن كَثْبٍ لينقلن إلى الأمة ما من شأنه أن يخفى فلا تطلع عليه إلا الأزواج ، حكمة نلقاها بالإيمان والتسليم .

نختم بكلمات نيرة من أدب الرافعي رحمه الله قال : يتهمونا بتعدد المرأة على أن تكون زوجة لها حقوقها وواجباتها - بقوة الشرع والقانون - نافذة مؤداة ، ثم لا يتهمون أنفسهم بتعدد المرأة خليلةً مُخَادِنَةً ليس لها حق على أحد ، ولا واجب على أحد ، بل هي تتقاذفها الحياة من رجل إلى رجل ، كالسكير يتقاذفه الشارع من جدار إلى جدار (...) .

« ماذا تتوقعون يا إخواني من تلك الرقيقة الناعمة ، المتأثثة بكل ما فيها من أنوثة تكفي رجالاً لا رجلاً واحداً ، وقد ضعفت روحية الأسرة في رأيها ، وابتذلت الروحية في مجتمعها ابتذالاً ، فأصبح عندها الزواج للزواج على إطلاقه ، لا لتكون امرأة واحدة لرجل واحد ، مقصورة عليه . وبذلك عاد الزواج حقاً في جسم المرأة دون قلبها وروحها . فإن كان الزوج مشؤوماً منكوباً لم يستطع أن يكون زوج قلبها فعليه أن يدع لها الحرية لتختار زوج قلبها ! ومعنى ذلك أن تكون هذه المرأة مع الزوج الشرعي بمنزلة المرأة مع فاسق ، ومع فاسق بمنزلة المرأة مع الزوج الشرعي » . انتهى كلامه .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

القِوامة والوصية

تدخل قِوامة الرجل في الامتحان ، أشدُّ ما يكون الامتحان ، في حالة تعدد الزوجات . وكفى بهذا الامتحان الشاق العسير زِماماً وقيداً للتعدد الشهواني ، يكفُّ العقلُ وحِساب الكُلْفَة من تدفُّعه الهواية .

عقلُ المؤمن أعني ، الذي يَعْلَم ما فرض الله عليه من حقوق للزوج ، وما أناط به من مسؤولية القِوامة ، وما أكَّد عليه في حق النساء من وصاية نبوية . وكُلْفَة العدل وحسن المعاشرة أعني ، لا الكُلْف المادية التي لا يبالي بها الأغنياء الهواة المتسلِّون إلى المتع المتنوعة من خلال الحق السُّمَّاح - عند الضمائر الخربة - في التزويج والتطليق والتعديد بلا التفات إلى ما يتركُّه الخطْمة في طريقه من حُطام بشري .

إن القِوامة التي فرضها الله على الزوج هي أخت الحافظة التي فرضها على الزوج الآخر أمانة ومسؤولية ، تُثَقِّل مسؤوليتها ، ليست تخفِّفه ، الدرجة التي جعلها الله للرجل ليقود السفينة بحنكة ودراية ومدارة .

المدارة من مُصلِّحات البيئة الزوجية، بل من أساسياتها. المدارة تعني السيامة الكيِّسة ، ومراعاة نفسية المرأة ، وما جُبِّلَتْ عليه مما لا يتفق وأسلوب الرجل في الحياة وطريقته في التفكير ، ومنطقه في تصنيف أهميات المعاش وأولوياته .

(باب المدارة مع النساء) مدخل لفقه المعاشة عنون به البخاري في كتاب النكاح من صحيحه . وروى فيه عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « المرأة كالضلع ، إن أقمتهما كسرتهما ، وإن استمتعت بها استمتعت بها وفيها عِوَج » .

يَفْهَم هذا الحديث بعض العلماء ، ومن كبارهم ، فهماً حَرْفياً . فالمرأة عِوَجاء مُطْلَقُ الاعوجاج ، والرجل هو الاستقامة والمعيار. وكأن رسول الله صلى الله عليه

وسلم الذي أوتي جوامع الكلم ومفاتيح البلاغة لا يفهم مقصوده إلا متحيزاً ضد المرأة ، وهو الذي أوصى بها ثم أوصى ، ودارى ثم دارى ، وأحسن ثم أحسن .

فليس من التجنّي على اللغة وبلاغتها ، ولا على الرجل وطبيعته المخالفة لطبيعة المرأة ، ولا على مقاصد الشارع أن نفهم الاعوجاج في الضلع كناية عن الاختلاف بين الرجل والمرأة في التركيبة النفسية ، لا إطلاقاً لاعوجاج في الإناث يُقاس باستقامة الذكّران . فلو قلنا - ولا ينبغي - المنظار وقسنا الرجل على المرأة لحكمنا أنه هو المعوج لا هي . لا ينبغي أن نقلب لأن القِيّومة والدرجة للرجل جعلها الله ، والاعوجاج إلى المرأة الضلع نسبة رسول الله . وأستغفر الله .

إن اختلاف نفسية المرأة ، وغلبة العاطفة عليها إن غلب على الرجل المنطق العقلي ، مزية وتكامل . لا يصحّ أن ننقصها لمكان تربيته النفسية إلا لو صح أن نلومها على اختلاف تربيته الجسمي . اعوجاجها الضلعي هو استقامتها . هو انحناء معنوي وحنوّ . هو عاطفة ورحمة .

الباب التالي من صحيح البخارى باب الوصاة بالنساء يقول فيه الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم كما روى أبو هريرة : « واستوصوا بالنساء خيراً ، فإنهن خلقتن من ضلع ، وإن أعوج شيء في الضلع أعلاه . فإن ذهبت تقيمه كسرته ، وإن تركته لم يزل أعوج . فاستوصوا بالنساء خيراً . » في رواية مسلم : « وإن ذهبت تقيمه كسرته ، وكسرها طلاقها . » وفي رواية ابن حبان والحاكم والطبراني في الأوسط : « خلقت المرأة من ضلع ، فإن تقيمت كسرها ، فدارها تعش بها . » كذا قال الحافظ رحمه الله .

وصاة نبوية إذاً ومداراة . أكدها صلى الله عليه وسلم وفصل تحملاتها في خطبة الوداع . روى مسلم في حديثه الطويل عن جابر أنه صلى الله عليه وسلم قال في هذه الخطبة الوصية العظيمة : « فاتقوا الله في النساء ، فإنكم أخذتموهن بأمان الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله . ولكم عليهن أن لا يُوطئن فرشكم أحدًا تكرهونه ،

فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضرباً غير مبرح . ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف . الحديث .

نرجع إلى قضية (اضربوهن) في الفقرة المقبلة إن شاء الله . ونأمل مسؤولية القوامة في دائرة الوصية النبوية النهائية في خطبة الوداع ، مرتفعين بتلك المسؤولية من معنى تكفل الرجل بقوته وعرضيته وماله ورئاسته إلى معاني طاعة الله وطاعة رسوله ورعاية وصيته . خسرت الأمة إن أضاع شطرها حق شطرها ، وعق الرجال وصية نبهم إن لم يحفظوه في الضعيفة والضعيف . عن أم سلمة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت : آخر ما أوصى به رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث ، كان يتكلم بهن حتى تلجلج لسانه وخفي كلامه (عند الاحتضار) : « اجعل يقول : » الصلاة وما ملكت أيمانكم ، لا تكلفوهم ما لا يطيقون . الله الله في النساء ، فإنهن عوان (أسيرات) عندكم » . الحديث رواه النسائي في الكبرى وابن ماجه كما قال الحافظ العراقي رحمه الله .

كل جاهلية لا تدين بدين الله ولا ترعى قواعد المروءة فالعلاقات فيها بين الرجال والنساء علاقة قوي بضعيفة . القوي يستعمل سلاح الأقوياء من إكراه وتحكم في النفقة وازدراء بخصمه ، والضعيفة تستعمل سلاح الضعفاء من مكر والتواء وحيلة وخديعة وخيانة . قام الدين في الأمة إن حفظت المؤمنة أمانتها ، ودارى المؤمن في قوامته . وعاد الناس إلى نوع من جاهلية إن لم تحفظ هي ومارس هو سلطته لا يراعي من نكيب في طريقه ولا من عطب .

قال عمر بن الخطاب : « كنا في الجاهلية لا نعد النساء شيئاً ، فلما جاء الإسلام وذكرهن الله رأينا لهن بذلك حقاً » . الحديث رواه البخاري .

كانت الأمهات في جاهلية العرب يُعلمن بناتهن اختيار الأزواج لتحس العروس موطن الضعف في الرجل فتهجم منه . كانت الأم تقول لابنتها : اختبري زوجك قبل الإقدام والجرأة عليه : إنزعي زج رُمحه (حديدة رُمحه) ، فإن سكت فقطّعي

اللحم على ترسه ، فإن سكت فكسري العظام بسيفه ، فإن سكت فاجعلي الإكاف (البردعة) على ظهره وامطيه فإنما هو حمارك .

من هذه المنزلة الركيكة للمرأة رفع الله ورسوله المرأة بما ذكرها الله وبما وصى بها رسول الله إلى مكانة الشريكة المسؤولة ، والأليفة المدللة . الزواج الإسلامي السعيد ما كانت علاقات القوة فيه أخفى ، وما كانت المودة ، وروح الدعابة ، والكلمة الطيبة اللطيفة فيه أفشى . روى الشيخان قصة تقصها أمنا عائشة عن نسوة اجتمعن ، فتذكر كل منهن زوجها بما فيه من عيوب ومحامد . قطعة أدبية غنية بفرائد اللغة وشوارد البلاغة ، لو تدارستها المؤمنات ليصلن إلى مفصل من مفاصل القصة استحسّن رسول الله صلى الله عليه وسلم مغزاه ، فوصلتنا القصة مطبوعة بطابع القبول النبوي ، لتعطينا نموذجاً رفيعاً من ملاطفة الزوج ومداراته وتجيبه .

من بين بطالات قصة أمنا عائشة شخصية اسمها أم زرع . قالت أم زرع تذكر محاسن أبي زرع : زوجي أبو زرع ، فما أبو زرع ! أناس من حلي أذني (جعل في أذني قرطه تحرك) ، وملأ من شحم عضدي ، وبجحتني فبجحت إلي نفسي (فرحني بنفسي من كثرة إحسانه إلي) . وجدني في أهل غنيمه بشيق (أهل غنم قليلة ترعى بمكان شاق) ، فجعلني في أهل سهيل وأطيظ (الصهيل صوت الخيل والأطيظ صوت الإبل) ، ودائس ومنق (أي خدّم يدرسون الزرع المحصود ويتقونه) فعنده أقول ولا أقبح ، وأرقد فأتصبح (لا يكرهها أحد على القيام من نومها للتعب والخدمة) ، وأثرب فأتقنح (أي أثرب كفايتي وفوق كفايتي) .

وتمدح أم زرع والدة أبي زرع ، وابن أبي زرع ، وبنت أبي زرع ، وجارية أبي زرع . رضيّت أم زرع عن أبي زرع فانطلق لسانها بالشكر ، ترى الدنيا بمنظار السعادة والطمأنينة والغبطة .

قالت عائشة رضي الله عنها : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم

(كُنْتُ لَكَ كَأَبِي زَرْعَ لَأُمِّ زَرْعَ) . في التمثيل وتعاطي الأدب ، كما في الحياة اليومية حين تكسر الضرة صفحة ضررتها كما قرأنا في فصل سابق ، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم مثال الزوج الكامل . في المقام والسفر لا تتغير سياسته للمرأة هو بها رفيق وفي رعاية نفسها دقيق . روى البخاري : أن النبي صلى الله عليه وسلم كان في سفر ومعه نساء على ظهور الرواحل ، فحدّث غلام اسمه أنجشة بالإبل (أي غني لها) فأسرعت ، فنبهه رسول الله صلى الله عليه وسلم قائلاً : (رُوَيْدَكَ يَا أَنْجَشَةُ سَوْفَكَ بِالْقَوَارِيرِ) . في رواية : (لَا تَكْسِرُ الْقَوَارِيرَ) . القوارير أنية الزجاج ، كنّي بذلك صلى الله عليه وسلم عن ضعف المرأة وتضررها مما يتحمّله الرجال من مشاق ولا يبالون .

كان مما استقر عند الصحابة واقتنعوا به من سنن الإسلام الرفق بالمرأة . حتى من كانت بقيت فيه خشونة من الماضي غير أسلوبه . عمر بن الخطاب الذي كان النساء ينطلقن في الكلام في مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم فإذا دخل عمر انخنسن وانكمشن ، عمر يوصي بهن ويقول : ينبغي للرجل أن يكون في أهله مثل الصبي ، فإذا التمسوا ما عنده وجد رجلاً .

قولة أمير المؤمنين عمر توصي بمزج اللين والقوة . وهو فن عسير ، خاصة على شباب نشأ في العفاف والطهر سالماً من آفات الاحتلاط الهوس ونفاقه وميوعته ، لا عهد له بنفسية المرأة ومعاناة (العوج الضلعي) ، فيعامل العروس معاملة الإخوان ، فرمما يسف ويهذر رجولته بالتنازلات والمرأة تريد ركناً قوياً في بيتها تطمئن إليه ، وربما يشتد ويقسو ثم لا يعرف بعد الصعود على السلم من أين النزول .

تنبيه النبي صلى الله عليه وسلم أنجشة ليرفّق بالقوارير اهتمام بجسوم لا طاقة لها بتحمل وعناء السفر . وفي كتاب الله عز وجل التشديد والوعيد لمن عنف بغير حق على الأعراض ، وقذف المرأة ولو تلوّحاً بما يחדش كرامتها . أي ضلّع كريم عند الله تعالى هذا المخلوق الذي ينزل الوحي بحمايته ورعايته في قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ

يرمون المحصنات ثم لم ياتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة * ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً وأولئك هم الفاسقون ﴿١﴾ . تجريح أبدى وتفسيق . أعظم منه وأشد قوله تعالى : ﴿إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا في الدنيا والآخرة ولهم عذاب عظيم﴾ (٢) .

أى خزى أخزى من لعنة الدنيا والآخرة ، وأي عذاب أشد هولاً من عذاب النار يُجلد حتى من لَوْحٍ بالطعن في عرض امرأة محصنة مؤمنة غافلة . كمن قال لها : لم يجدك زوجك عذراء . وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يجلد في خلافته من عَرَضَ بالفاحشة في حق امرأة ويقول : (إِنَّ حِمَى اللَّهِ لَأَتْرَعِي حَوَاشِيهِ) . هناك حالات فقد البكارة لجرح أو حادثة . وعنهما يقول ابن حزم رحمه الله في (المحلى) : « وذهاب العُدرة (البكارة) يكون بغير الزنى أو بغير وَطْءٍ كوقعة أو غير ذلك » .

الخلاف الفقهي في من وجد زوجته فقدت عذرتها ، فُسِرْعَ إلى اتهامها ، هل يُعد ذلك قذفاً أو لا ، وهل يتلاعنان أو لا . إذا نطق بتهمة الزنى فهو قذف بلا ريب إن كانت مؤمنة محصنة (معروفة بالعفاف) غافلة . أما إذا أُخبر بأنه لم يَجدها عذراء فقلوله لا ينفي احتمال جرح ووقعة وحادثة . والحِمَى خطير لا تُرعى حواشيه كما قال الفاروق رضي الله عنه .

(١) سورة النور الآية : ٤ .

(٢) سورة النور الآية : ٢٣ .

الرجل الخشن

لا تتعاطف كلمة (زوج) مع كلمة (خشن) ولا تتوادعان . لذلك عنواناً (الرجل الخشن) لنصرفِ السوء عن الوجه الذي يريده الله وجهاً جميلاً للتساكن والمودة والرحمة . الزواج تلافيف وتعاطف ، والخشونة علاج مشروع للحالات شاذة ، أو تسلط من قبل رجل لا يحسن القيام بمأموريته ومسؤوليته ، فيفشل في سياسة سفينته وتوجيهها ، فلا يشعر إلا وهي نهب للصخور والمخاطر ، فيعنف ويتخبط ويخبط . الزواج ألفة وقرب ، والخشونة نفور وإبعاد .

جاءت الآية المبيحة للضرب في سياق علاج لمرض ، لا قاعدة من قواعد المعاشرة . قال الله تعالى : ﴿ وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً كَبِيراً وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً خَبِيراً ﴾ (١) .

إنه تطبيب لحالات مرضية على أربعة مراحل : مرحلة يخاطبُ فيه عقل المرأة بالوعظ ، ومرحلة بعدها تزجر زجراً عاطفياً بالهجران ، وثالثة حين تتفاقم المشكلة ، وتغلق أبواب التفاهم ، فلا تجد موجة الغضب أمامها من سد ، فتتدخل الأيدي ، وذلك إيدان بأن أهل السفينة في دوار ، وأن الغرق على وشك أن ينهي الرحلة . وهنا تأتي المرحلة الرابعة ، وهي تحكيم عدلين يعينهما القاضي ليصلحا ذات البين بحكمة العقل ، عائدتين بالمسألة إلى نقطة انطلاق الخصام حين وعظها فلم يغن الوعظ في المرحلة الرابعة يتدخل أجنبيان ليلطفا الجو ، ويرغباً في الصلح ، ويوفقاً ما يختلف . وليعلم المتخاصمين ما غاب عنهما من الفقه في حمى الغضب ، وما فسد من الرأي ، وما اختل من التوازن .

(١) سورة النساء الآية ٣٤ : ٣٥ .

وقد احتاط الشرع لمُرَتادي المِصْحَةِ وضحايا الطوارئ بشرطين كيلا تزيغ بالرجل أعصابه فيضع الدواء بِجُرْعَةٍ قاتلة ، وكيلا تتجاوز المرأة حدود ما يُحْتَمَلُ فيضطر الناس إلى مصحة أصلا . الشرط الأول أن لا تَنشُرَ المرأة ، والشرط الثاني أن يتدرج الرجل المبتلى بنفسه ومزاجه أو بضراوتها أو بهما معا في تطبيق العلاج .

النشوز لغة الارتفاع . فالمرأة الناشزُ هي المتكبرة على زوجها ، العاصية له الكارهة لعشرته ، المعرضة عنه . وكفى بهذه الأعراض دلالة على أن الجرائم المرضية تغلغلت . في الآية الكريمة ﴿ **وَاللّٰتِي تَخَافُونَ نَشْوَزَهُنَّ** ﴾ (١) . لا ينبغي أن يأخذها بالظنة ويتهمها بالنشوز بمجرد تحسس وتوجس . بل حتى يظهر له من تصرفها ما به يعلم أنها ناشز . وقد فسر العلماء (تخافون نشوزهن) : تعلمون نشوزهن . عندئذ يعط ، ثم إذا أُعْيِيَ الوَعظُ يهجرُ ثلاثة أيام لا أكثر . فإنه يحرم على المسلم أن يهجر أخاه المسلم فوق ثلاث ، فكيف بمن اختارها قرينة حياتها . فإذا فشِلَ الهجر فالباب مُشْرَعٌ على الكارثة . الضرب كارثة على المرأة المتزنة الرقيقة العاطفية . لا شيء يؤلمها كالهجر ، فإن افتدح الهجر بالضرب فقد طَفَحَ الكيل .

من النساء عواقل وعاطفيات ، ومنهن بدنيات ربما نشأن في بيئة يُعبر فيها الرجل عن حبه لامرأته وبغيرته عليها بكفيه وعصاه لا بلسانه وعباراته الحلوة . وقد يكون الرجل ممن قرأ بعض التفاسير فوجد أن بعض الفقهاء يجيزون الضرب ما دون كسر العظام . أو يقرأ في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر النساء بطاعة الأزواج فيتحذها مُتَكَنًّا لتعسفه وتأمره وظلمه . ما أتى من تشديد على المرأة في طاعة زوجها ما هو تعييد للمرأة . يقرأ أحدهم الحديث الصحيح الذي رواه الترمذي عن أبي هريرة أنه صلى الله عليه وسلم قال : « لو كنت آمرا أحدا أن يسجد لأحد لأمرت الزوجة أن تسجد لزوجها » . يقرأه فيأله ويشتط ويظلم .

(١) سورة النساء الآية : ٣٤ .

أو يقرأ تحريجه صلى الله عليه وسلم على النساء في قوله : « إذا دعا الرجل امرأته إلى فراشه فأبت عليه لعنتها الملائكة حتى تصبح » . رواه البخارى عن أبي هريرة . يقرأه كأنما عثر على صكّ تمليكٍ لضيعة ، فتتحول في ذهنه المفاهيم ، وتقلبُ العشرة الزوجية من معاني المحبة والمودة إلى علاقات الجلاذ بضحيته ، والمالك في ملكه . وعندها فالوحشة والنشوز والتكبر منه هو لا منها .

جاءَ العلاج الضارب في خطبة الوداع يقول : « لكم عليهن أن لا يُوطئنَ فرشكم أحدًا تكرهونه . فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضربا غير مبرح » . هذه رواية مسلم . وعند الترمذي حديث صحيح رواه عن عمرو بن الأحوص رضي الله عنه أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم في خطبة الوداع ، فكان مما قال : « ألا واستوصوا بالنساء خيرا ، فإنما هن عوانٍ عندكم ، ليسَ تملكون منهن شيئا غير ذلك إلا أن يأتين بفاحشة مبينة . فإن فعلن فاهجروهن في المضاجع واضربوهن ضربا غير مبرح » . الحديث .

الفاحشة المبينة فحشٌ بالغ ونشوز فاضح . بلغ سوء التفاهم بين الرجل والمرأة تخومَ الهلاك ، فالضرب جبل نجاة يُدلىه الشارع ليمسك به غريقان . ما هو تشريع كرامة ، إنما هو تشريع إغاثة .

الأصل هو حفظ كرامة البيت ، وصون المرأة ، والتلطف بها ، والتماس أسباب رضاها . لا التجسس عليها ، وإحصاء أخطائها . من الحشنيين من يجلد امرأته لأنه لم يجد طعامه على ذوقه . ماذا يفعل مثل هذا لو كسرت المرأة صحفة طعام الأضياف أمام الأضياف !

في الباب العشرين بعد المائة من (كتاب النكاح) في صحيح البخارى : « باب : لا يطرقُ أهله ليلا إذا أطال الغيبة مخافة أن يُخونَهم أو يلتمس عثراتهم » . ذكر فيه حديث جابر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إذا أطال أحدكم الغيبة فلا يطرقُ أهله ليلا » . ويروي مسلم والنسائي حديث جابر كما يلي : « نهى

رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يطرق الرجل أهله لئلا يتخونهم أو يطلب عثراتهم .

(يَطْرُقُ أَهْلَهُ) : يجيئهم ليلاً . من فعل ذلك بعد طول غياب فكأنما تجسس على أهله . والزواج حقُّ الزواج ما بذّر فيه الرجل والمرأة بذور الثقة ، لا بذور الشك ، وما استنبتوا فيه شجرة التقوى تغدو عليها وتروح شمس مخافة الله ، لا شجرة الزقوم التي يقطف الشيطان ثمارها . وقال الحافظ ابن حجر رحمه الله في تعليل كراهة الطروق : « أن يجد أهله على غير أهية من التنظف والتزيّن المطلوب من المرأة فيكون ذلك سبب النفرة بينهما » . وإلى هذا أشار الحديث الشريف الذي يرويه البخاري بعيد حديث النهي عن الطروق . فيه عن جابر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه مرّجّعهم من سفر : « أمهلوا حتى تدخلوا ليلاً - أي عشاءً - لكي تمتشط الشعثة وتستجدّ الحفّية » . وهذا ليس طروقاً ، فالشعثة والمغيبة التي تمهلّت القافلة من أجلهما بلغهما خبر قدوم الأزواج .

عند البخاري (باب ما يكره من ضرب النساء) روى فيه عن عبد الله بن زَمْعَةَ عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « لا يجلد أحدكم امرأته جلد العبد ثم يجامعها في آخر اليوم » . وجاء النهي عن ضرب النساء مطلقاً . جاءت السنة لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلمهم يتقون . نطاق الشريعة واسع ليحافظ الناس على بنية الزواج ما أمكن ، وحتى مشارف النهاية . وحتى في الحالات الاستثنائية المرضية .

لكن السنة الفعلية من مثاله صلى الله عليه وسلم مع أزواجه ، ومن هديه وتوجيهه ووصيته ، هي العافية لا المرض ، هي الصحة لا العاهة . روى الإمام أحمد وأبو داود والنسائي وغيرهم عن إياس بن عبد الله بن أبي ذباب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تضربوا إماء الله . فجاء عمر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : ذنن النساء (نشزن واجترأن وثرن) على أزواجهن . فرخص في ضربهن . فأطاف (أحاط) بآل رسول الله صلى الله عليه وسلم نساء كثير يشكون

أزواجهن . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لقد طاف بآل محمد نساء كثير يشكون أزواجهن . ليس أولئك بخياركم .

الحديث صحيح ، صححه الحافظ ابن حجر . والحادثة تعليمية عاجلت فيها الحكمة النبوية مشكلا عاناه المهاجرون الذين كانوا يحكمون في مكة نساءهم ويشتلون عليهن ، فلما ائتلف المجتمع الإسلامي تعلمت المهاجرات من الأنصاريات رقة في المعاملة لا تعرفها قريش . فذئرن ، فلما عالج ثورتهن الرجال بالرخصة الضاربة عدن للثورة وتظاهرن وأطفن بآل محمد ، فوجدن الغوث . وتعلمنا معشر الأمة رجالا ونساء أن خيار الرجال لا يضربون ، وتستنتج المؤمنات إن شعن أن خيار النساء من لا ينشنن ومن يدارين أزواجهن فلا تجمعُ بهن وبهم الفلتات العصبية ، والفورات الغضبية .

خيار الأزواج ما تشبه برسول الله صلى الله عليه وسلم . روى مسلم وأبو داود عن عائشة أنها قالت : « ما ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئا قط بيده ، ولا امرأة ، ولا خادما . إلا أن يجاهد في سبيل الله . وما نيلَ منه شيء قط فينتقم من صاحبه ، إلا أن ينتهك شيء من محارم الله فينتقم » .

خيار الأزواج من اهتدى بهديه صلى الله عليه وسلم القائل : « خيركم خيركم لأهله ، وأنا خيركم لأهلي » . الحديث رواه الترمذي عن عائشة رضي الله عنها بسند حسن صحيح . خيار الأزواج من عمل بوصيته صلى الله عليه وسلم وهو يوضح ويبين ما في الضلع من عوج يقابله استواء ، وما في الرجل من خلقي حسن إن هو قابل بين المحاسن والأخطاء ووازن . قال صلى الله عليه وسلم فيما روى مسلم عن أبي هريرة : « لا يفرك مؤمن مؤمنة (لا يغيضاها) : إن كره منها خلقا رضي منها آخر » .

ولتلافى كل ما يدرج مركبة الزواج في المنحدر شدد رسول الله صلى الله عليه وسلم التكبير على من صب الزيت على النار ليفسد ما بين الزوجين . روى

أبو داود عن أبي هريرة بسند حسن أنه صلى الله عليه وسلم قال : « من خَبَبَ زوجة امرئ أو مملوكة فليس منا » . خَبَبَ : أي أَفْسَدَ . بأي وجه كان الإفساد . قال العلامة المناوي يحكي قول أحد مشايخه : « ومن ذلك ما لو جاءته امرأة غضبانة من زوجها ليُصلح بينهما مثلاً ، فيسُطُّ لها في الطعام ويزيد في النفقة والإكرام ولو إكراماً لزوجها . فربما مالت لغيره وازدرت ما عنده ، فيدخل في هذا الحديث . ومقام العارف أن يؤاخذ نفسه باللازم وإن لم يقصده . قال : وقد فعلتُ هذا الخلقَ مراراً ، فأضيقُ على المرأة الغضبانة وأوصي عيالي أن يجوعوها لترجعَ وتعرفَ حقَ نعمة زوجها » .

قلت : ومن عواقب الأمهات من يفعلن ذلك ، فيرددن الغاضبات من بناتهن ويطرذنهن إلى بيوتهن . لكن من الرجال الخشنين من تتورط المرأة فيهم لما لم تأخذ قبل الزواج بزمام التفكير في العواقب ، ولم تحسن الاختيار ، وذهبت مع العاطفة ، واغترت بالكلام المعسول والمظهر واللحية التقية . مفتاح قفل سجنها اسمه الخُلْعُ . والخلع مذمة الرجل ولؤم بعض الرجال .

الجنة عند رجلها

بهذه الصيغة جاءت الوصية بالأُم في حديث رواه النسائي عن معاوية بن جاهمة أن أباه جاهمة جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : « يا رسول الله ! أردتُ أن أغزو وقد جئتُ أستشيرك . فقال له : هل لك من أم ؟ قال : نعم . قال : فالزمها ، فإن الجنة عند رجلها » . وفي الباب روايات بصيغ متعددة مثل « الجنة تحت أقدام الأمهات » .

من ذا الذي يرضى أن تنسل له زوجه ذرية ضعيفة مهينة مريضة نفسيا ، نشأت على اللف والدوران والكذب والحيلة والكيد والمراوغة ؟ إذا كانت العشرة الزوجية معتلة فالأمومة معوقة والذرية ترضع الآلام . من كان من الآباء لا يحب تلك الصفات الرديئة في نسله فليعمل على تلافي أسباب تكونها في بيئته . يفعل ذلك رحمة بالنسل إن كان دينه وخوفه من الله لا يحمله على الاستقامة . يظلم الزوج ويضربها لا يحسب حساب الآخرة ولا حساب الدنيا .

من مثلُ رسول الله صلى الله عليه وسلم غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر؟ ومع ذلك ، وتعلينا وتأديبا لنا ، يضرب لنا المثل في اتقاء الله في الضعيف : روى ابن سعد أن خادما أغضبه صلى الله عليه وسلم فهددها قائلا : « لولا القصاص يوم القيامة لأوجعتك بهذا السواك » تهديد فقط وتهديد بسواك ما يوجع السواك وما يؤلم يأبها الفقيه الذي يفتي بضرب المرأة ضربا لا يكسر العظام ؟ لا تكسر العظام وشرح اللحم ومزق الجلد وأسيل الدماء ! فإذا تذكرنا أنه صلى الله عليه وسلم لا يغضب إلا إذا انتهكت حرمان الله ، ظهر لنا أن الخادم لا شك بالغت في السوء ، وقدرنا حق قدره لطف التأديب مقارنا بعظم الجرم .

من كانت رجولته لا تتجلى إلا في الوحشية العضلية والعدوان على أم أولاده ، وكانت مروءته تنتهي حيث ينتهي مجلس المؤانسة والمجاملة مع الأصدقاء ، فإذا دخل

البيت دخل غولا ، وكان حسابُ الآخرة والرحمةُ بالخلق مزايا مجهولة في قارته فذاك أفغوان بشريٌّ . إلا أن تكون هي أفعى تستفز ، وتختزل حيشة وجودها في الماحكة واصطناع أسباب الصدام . إلا أن تكون دخائلها وأباطيلها مما يوحي الشيطان لأوليائه .

إن فكرة الأمومة ، وقداسة الأمومة ، وحرمة الأم ، ووظيفة الأم ، لما تتقدم به مناقضات « تحرير المرأة » من الإسلام ، يعين على الإسلام أن رفع الأم مكانة التعظيم ، ويعين الإسلام بعيوب من انتسب إلى الإسلام وأساء القوامه ، وعنفَ وضرب وظلم وشرّد . ثم يتهمن الإسلام بأن المرأة في دين الإسلام ما هي إلا وعاء وكدي .

يتقدم المناضلات المارقات بهذا ومثله معه ، ومعهن الحجة القاطعة والنموذج الكامل : المرأة الغربية العالمية التي تحررت ، أو كادت تتحرر من أعباء الأمومة .

الاتجاه الإيديولوجي النسوي العالمي ، بقيادة يتزعمها في كل بلد أكثرهن تفرجاً ، هو تخلية المرأة من أثقال الحمل والإنجاب والتربية . عاملان اثنان ، بل معولان اثنان ، أخذان في الإجهاز على أطلال الأسرة ، وأطلال البنية النفسية الفطرية . أحدهما ضرورة تفرغ المرأة من خدمة البيت وأعباء الأمومة لترضي طموحها في تسلق السلم الاجتماعي ومطالبة الرجل لنزع السلطة الاقتصادية والسياسية من يده ، ولتترقى في ميدان الأعمال المنتجة الصانعة البائعة الناجرة .

يريحها من أشغال البيت آلات ومكائن . وتلك نعمة لو شكرتها ! ويفتح لها أبواب التمني ، بل يهدم فيها بقايا إنسانيتها ، المعول الثاني ، وهو التقدم المذهل لتكنولوجيا العصر المزدوجة : الإلكترونيات والهندسة الوراثية . تفتح في الذهن النسوي الشائر على الفطرة تكنولوجيا العصر آفاقاً لتصنيع الإنسان وتحويله وتحويره على مقاسات وظيفية ، تكون له الأنابيب رجماً ، والبطون المستأجرة من نساء العالم المستضعف وعاء ، ويكون له مربيا ما يفتح الله على خلقه من بلاء . تعوض الأنابيب ويعوض البلاء الفطرة والأمومة .

وتحلم الفيلسوفات المناضلات بثورة مقبلة تنتصر فيها الأنوثة على الذكورة في يوم قريب ، يوم يكشف فيه المَهَرَّة من اللاعبين بالجينات الوراثية طريقة لتصنيع جنس من البشر خنثى جامع بين لذات الذكورة ولذات الإناث . وبذلك تقضي المناضلات الفيلسوفات على تسلط الذكور ، ويتحررون من حُمولة الأمومة وأثقالها . إديولوجية متطرفة هي فلسفة الخنثى انخايد جنسياً . آخر صحيحة في نادي الجنون النسوى .

ما يعتبره العقل والنقل شرفاً ، وما تعثر به وتعيش له وتفتديه بالنفس الفطرُ السليمة ، تعتبره المعتوهات عبودية وانهازماً . بشرَّيهنَّ بمزيد من الحرية لتكون الزاقصة أكثر عُرياً ، والمثلة أشد فتونا ، والمغنية أقل حياء ، والعاشر عضوا محترما في المجتمع ، والكاتبة رئيسة المعمل ، والمناضلة رئيسة دولة جامعة للمجد من أطرافه في ميدان السلطة والمال وفي ميدان المتعة والتهتك .

تلك بشائرُ يَطْرَبْنَ لها ، ومشاريع مستقبلية ، وبرامج عمل . تكوينين إن بشرت بذلك وآمنت به مثالا للمرأة المعاصرة التقدمية الحرة . أما أن تفتحي معهن الحوار حول العفة والحياء والطُّهر والعدل والمودة بين الأزواج والأمومة السعيدة فكأنك تُقَحِّمِينَهُنَّ في العدم وتهددين وجودهن .

أما إن ذكرت لهن الله ، والدار الآخرة ، والطهارة ، والصلاة ، والإسلام ، والإيمان ، وما خلق الله ، وما بعث من رسل ، وما سخر من كون ، وما أعد بعد الموت من نعيم وجحيم ، فقد بلغت الجدلية منتهاها ، وآن للتنقيض أن يثب على النقيض بالأظافر والأنياب .

نستمع إلى كلمة الحق ، راجعين من الجدل الهوسى ، فى وصية الله ورسوله بالأم . قال تعالى : ﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حِمْلَتْهُ أُمُّهُ وَهَنَا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالَهُ فِي عَامَيْنِ . أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴾ (١) . وقال جل من قائل :

(١) سورة لقمان الآية : ١٤ .

﴿ووصينا الإنسان بوالديه حسنا حملته أمه كرها ووضعته كرها وحمله وفصاله ثلاثون شهرا حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة قال رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي وأن أعمل صالحا ترضاه وأصلح لي في ذريتي إني تبت إليك وإني من المسلمين﴾ (١).

المسلمون لله هم المنتصحوون بنصيحة رسول الله ، العاملون بوصية شكر من حملت علي وهن وكبره ، وأرضعت ، وغذت ، ونظفت ، حتى بلغ أشده المسلم ، وبلغت أشدها المسلمة ، دعا الله ودعت لمن ولداها وربياها ، وسألته الصلاح في ذريتها ليتصل نسب الدين من جيل لجيل كما هو متصل نسب الطين .

وصية القرآن ذكرت الوالدين وفريضة الإحسان إليهما إجمالا ، ثم فصلت وذكرت وأطنبت في الأم ترجيحاً لحقها وتقديما . وكذلك رجع وفصل وقدر المعلم النبي صلى الله عليه وسلم في حديث أبي هريرة الذي رواه الشيخان ، قال : « جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ! من أحق الناس بحسن صحابتي ؟ قال : أمك . قال : ثم من ؟ قال : أمك . قال : ثم من ؟ قال : أمك . قال : ثم من ؟ قال : أبوك » .

أمر صلى الله عليه وسلم ببر الوالدين ولو مشركين . ذلك رعاية لحبل الفطرة من جانب المسلم والمسلمة وإن كان الأبوان كفرا بوظيفتهما الفطرية وجهلاًها وعقاًها : ألا وهي منح الذرية أمانة الإيمان بالله مصحوبة بأداء أمانة الإنجاب والإرضاع والتغذية وتربية الجسم . روى الشيخان وأبو داود عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما قالت : « قَدِمْتُ عَلَى أُمِّي وهي مشركة في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاستفتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم قلت : قَدِمْتُ عَلَى أُمِّي وهي راغبة (طامعة في عطاء ولم تحب مسلمة مهاجرة) ، أفأصِل أُمِّي ؟ قال : نعم ، صِلِي أُمَّكِ » .

(١) سورة الأحقاف آية : ١٥ .

يُبرّ بالأم وتوصلُ مشركة . ويُبرّ بها بعد موتها كما كان يبرّ بها في حياتها . روى مسلم والترمذي وأبو داود عن يُريدة بن الحصب رضى الله عنه قال : « بينا أنا جالس عند رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ أتته امرأة فقالت : إني تصدقت على أُمي بجارية ، وإنها ماتت . فقال : وجبَ أجرك ، وردّها عليك الميراث . قالت : يا رسول الله ! إنها كان عليها صوم شهر ، أفأصوم عنها ؟ قال : صومي عنها . قالت : إنها لم تحجّ ، أفأحجّ عنها ؟ قال : حجي عنها . »

كما أوصى الله بالأمهات إحسانا ، توعّد من عقهن ، وقرن بين حرامين كبيرين . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله حرّم عليكم عقوق الأمهات ، ووآد البنات ، ومنعاً وهات . وكره لكم قتل وقال ، وكثرة السؤال ، وإضاعة المال . » رواه الشيخان عن المغيرة بن شعبة . حرامان متوازيان عقوق الأمهات قتل لآمالهن كما هو وآد البنات إقبار لأجسادهن . وفي الحديث تغطية كاملة لحرمة المرأة من لدُن ولادتها إلى كبير سنّها .

ونُهيَ عند الكبر أحوج إلى العطف والرحمة والبر . لذلك نص الله سبحانه على بر الوالدين في الكبر فقال : ﴿ إِمَّا يَلُغُنَّ عَنْكَ الْكِبَرُ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَوْفَ وَلَا تَهَرَّهِنَّ وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴾ واخفض لهما جناح الذلّ من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيراً ﴿ (١) .

ونجد في رسول الله صلى الله عليه وسلم الأسوة الحسنة ، والمثل الرائع والمثال في البرّ بالوالدين . مات والده صلى الله عليه وسلم قبل ولادته ، وماتت أمه وهو ابن ست سنوات . فحضنته بعد حليمة السعدية أم أيمن الحبشية . حاضنة تولت من شؤون الأمومة أيسرها ، فاستحقت من البرّ الكامل صلى الله عليه وسلم أتمّ الإحسان . أيّ إدلالٍ كان لك على رسول الله يا أمة الله يا أم أيمن ! روى مسلم عن أنس رضي الله عنه قال : « انطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أم أيمن ، فانطلقت معه .

(١) سورة الإسراء الآية ٢٣ - ٢٤ .

فناولته إنياء فيه شراب . قال : فلا أدري أصادفته صائماً أم لم يُرِدْهُ . فجعلت تصخبُ عليه (تصيح عليه) وتذمُّرُ منه (تنكره من رفضه لشرابها) . « أم أيمن وما أدراكُنَّ ما أم أيمن ؟ هاجرت من مكة إلى المدينة مسافة أكثر من ٥٠٠ كيلومتر وحدها ، في حرِّ الجزيرة العربية ، على قدميها . كما روى ذلك ابن هشام ، رضي الله عنها .

في حديث مُرسل عند أبي داود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان جالساً يوماً ، فأقبل أبوه من الرضاعة ، فوضع له بعض ثوبه ، فقعده عليه . ثم أقبلت أمه من الرضاعة (حليمة) ، فوضع لها شِقَّ ثوبه من الجانب الآخر ، فجلست عليه . ثم أقبل أخوه من الرضاعة فقام النبي صلى الله عليه وسلم فأجلسه بين يديه .

ونشر رسول الله صلى الله عليه وسلم الوصية وبسطها لتشمل الأم وأقرباء الأم والأب وأصدقاء الأب . تبرَّهم المؤمنة بعد موت الوالدين . جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « يا رسول الله ! إنني أصببت ذنباً عظيماً ، فهل لي من توبة ؟ فقال هل لك من أم ؟ قال : لا . قال : هل لك من خالة ؟ قال : نعم . قال : فبرِّها » . رواه الترمذى عن ابن عمر رضي الله عنها . لا إله إلا الله ، يبرِّمحو الذنوب العظام .

فالحمد لله رب العالمين

الفصل الرابع

الأمهات المؤمنات صانعات المستقبل

* الولد الصالح

* البناء من أعلى أو من الأساس ؟

* على أى أساس ؟

* صراع الأجيال

* البرج الاستراتيجي

* تربية مستقبلية

* تربية علمية

* تربية قرآنية

* تربية خلق جديد

* تربية حكيمة

* تربية واقية

نسلها ، وأهميته ، وأسلمته إلى غيرها من وَسَطِ منحل ، وإعلام مفسد ، وشارع سائب ، ورفقة مُضلة .

ما يكون لجمالها العلمي والخلقي وتقواها إلا زينةٌ عقيمة إن أفادتها إفادة فهي فائدة محدودة ، ينقطع بعد الموت عملها إن لم تُخَلَّفْ ذريةٌ صالحة ، إن لم تساهم في بناء الأمة ، إن لم توظف جمالها العلمي والخلقي والقلبي في صنع مستقبل أمتها ، واكتفتْ بكونها معبراً لبروز الذرية ، ومحطة لمرورها .

إن دوران الحديث في الأوساط النسوية من بنات الدنيا ، المارقات منهن والتائهات والتابعات ، حول حقوق المرأة السياسية والاقتصادية الاجتماعية ، وحول سعادتها الزوجية ، دون اعتبار أمومة المرأة والمغزى السامي للأمومة ، إنما هو دوران على غير محور . كالعجلة التائهة المتفلتة زاغت عن مكانها ، فهي تدور في فلك الهوس . ما يُستفاد من العجلة إن كانت الوظيفة التي تصوّرُها لها الصانع وبنائها بقصدها معطلة مهمشة ؟ ما يُستفاد منها إن أصبحت العجلة

أنانية تدور حول نفسها وجمالها ورونق ألوانها ، تستكمل من ذلك وتستزيد ، إن لم تعصرها كمأشئة البؤس الاجتماعي وترم بها في الركن القصي من الحياة ، آلة لصنع الغناء ؟

كذلك ، أخوات الإيمان ، المرأة حين يهون لها أرباب الثقافة المنحلة من شأن الأمومة ، ويريدون للعالم المستضعف أسرة على منوال الأسرة الغربية العقيمة المفلسة السائرة إلى الاندثار . أقوى ما تستقوي به الأمة متانة بناء الأسرة ، والمتانة أمومة مَصُونَةٌ مستقرة في بيت مدرسة . أهم ما نعد لهم من قوة أمومة مبرورة برة مربية ، تصنع مستقبل العزة للأمة .

جهاد المؤمنة وحيثيتها في سجل كرامة الإيمان أن تنجب مجاهدين ومجاهدات أقوياء . فإن اضطرتها ظروف الحاضر والاحتياط المستقبلي من غدرات مجتمع منقسم الأوصال، وصولات زوج يطلق ويشرد، للعمل في مِهْن الإنتاج البضاعي،

فإن نداء المستقبل يُحيي المؤمنين ويُهيبُ بهن أن يكون لهن في صنع غد أفضل اليد الطولى ، والكلمة المسموعة ، والخدمة التي لا يقوم بها غيرهن . ليست هذه الخدمة تفريخ أعداد بشرية . إن كان الودُّ الصالح الواحد ذخراً باقياً للآخرة وعملاً يرضاه الله ، فكيف بإصلاح أمة وإحيائها وصناعة مستقبلها .

إن الأسرة القوية عماد الأمة القوية ، والأم المربية المصلحة عماد الأسرة . واقرئي يا من تؤمنين بالله وبآياته في الكون علائم تفسخ الأمم العانية في الأرض من خلال تفسخ الأسرة فيها . تهوي الحضارة المنحلة في غد التاريخ أو بعد غده ، والهويُّ بدأ ، تشاهدينه في العقم الذي ضرب الأرحام الأوروبية ، فتقالَّ النسل عن معدلات تعويض الأموات بالأحياء ، وأثاقلت على كاهل الجيل العامل أعباء كفالة المتقاعدين .

منذ العقد الأخير من القرن الثامن عشر بتاريخهم ، حين نشر مالتوس صيحته المُنخوفة من تكاثر النسل وندرة الغذاء ، وقضية تحديد النسل تعَلَّجُ في الفكر الغربي كذبٌ خُوفٌ مالتوس ، وهو اليومُ أكذبُ ما كان ، بتقدم علوم الزراعة ، وتحسين البذور ، وتنويع المزروعات ، وتدويرها ، وتخصيبها . أكذب ما كانت الفلسفة الملتوسية في عصرنا هذا عصر الهندسة الوراثية ، فإمكانيات إنتاج الغذاء تبدو على خط تطور العلوم الجديدة بلا حدود .

لكن أنانية الحضارة الغربية ، وحرصها على رفايتها حرصاً يصل إلى إعلان الحروب التجارية فيما بين أممها ودولها وشركاها العالمية ، يحولان دون تعميم فائدة العلوم ، ودون توظيف مكتشفاتها لإشباع جوعَي العالم المستضعف .

بتكاثر نسل العالم المستضعف بوتيرة عكسية لنضوب موارده . وينتشر النسل المستضعف من أفريقيا وبلاد المسلمين ، ويهاجر إلى الشمال الغربي ، ويهدد رفاهية الغرب .

نتناول موضوع الإنجاب وتحديد النسل في إطاره الواقعي : اختلال موازين الساكنة في الأرض ما بين شمال عقيم متخم خائف على (مكتسباته) ، راهبٍ من

غزو ديموغرافي، وما بين جنوب ينتج الأعداد البشرية، وينتج البؤس.

الإطار الموضوعي لقضية الإنجاب وتحديد النسل هو الثورات الصناعية العلمية التي تتخطى في بلاد الغرب إلى نخوم الخيال، وتبقى حلماً مُعَرِّقاً في بلاد المسلمين وسائر المستضعفين. الإطار هو الفلسفات الغازية بالإعلام والنضال السياسي اللايكي الذي تدعّمه قوى الانحلال، الداعي إلى استقلال المرأة اقتصادياً ووجودياً، وتشغيلها في صنع حضارة مُماثلة للحضارة الأم، الحضارة (المطلقة).

الحضارة (المطلقة) تتردى أخلاقياً، وتزيد استكباراً في الأرض، وتنكمش ديموغرافياً، وتشعر بالخطر المقبل عليها من جراء تفاقم الفرق في القسمة ما بين شمال يمثل ساكنوه أقل من عشرين في المائة من سكان الأرض وينعمون بأكثر من ثمانين في المائة من خيرات الأرض، بينما المستضعفون في الجنوب يزحفون عدداً فوق نسبة ثمانين في المائة، ولا يقضمون من أطراف أرزاق الأرض إلا أقل من عشرين في المائة (الحضارة النموذج) تأكل أرزاق الأرض لأنها تصنع أرزاق الأرض بما كدسته وراكمته من منهوبات الأرض عبر خمسة قرون من الاستعمار، وبما ابتدعته من علوم وتقنيات وصناعات وطورته، ورثت ذلك عن عبقرية الأجيال البشرية، فعقّت وتنجبرت. فهي تُفسد هواء الأرض، وأجواءها العليا، وبحرها، وبرها.

يقول لنا قانون المزاخمة، وسنة الله في المدافعة: كاثروهم عدداً، وغالبوهم عدداً. وتقول لنا السنة النبوية: «تزوجوا الودود الودود فإني مكاثركم بكم الأم». الحديث رواه الإمام أحمد وأبو داود والنسائي بسند حسن.

نتناول موضوع الإنجاب وتكثير النسل أو تحديده، عيناً منا على الظروف الموضوعية وما ابتلانا به ربنا وابتلى به خلقه، وعيناً على الأمر الشرعي والدليل الشرعي.

التكثير من النسل مطلوب شرعاً، والولد الصالح ذخّر للأمة في الدنيا ولوالديه في الدنيا والآخرة. لكن ما الشروط ليكون العمل الإنجابي صالحاً، ولتكون الكثرة

مما يهيج نبينا في معرض مكاثرة الأمم؟ ما معيارُ الصلاح في حساب الدنيا والآخرة؟
الحديث النبوي عن الكثرة الغثنائية جامع مانع في المسألة . إن قرأنا حديث
المكاثرة دون أن نعرضه على حديث الغثنائية قَصُرَ فقهنها ، واندفعنا في الدعوة إلى
تأييد انحطاط الأمة جيلاً بعد جيل ، من حيث نظن أننا ندافع عن السنة وندعو إليها .
حديث الغناء ووَهْنُ الغناء يقول :

« يوشِكُ الأممُ أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلةُ إلى قصعتها . فقال قائل :
ومن قلة نحن يومئذ ؟ قال : بل أنتم يومئذ كثير ، ولكنكم غثاءٌ خثاءٌ السيل .
ولينز عن الله من صدور عدوكم المهابة منكم . وليقذفن في قلوبكم الوهن . فقال
قائل : يا رسول الله ! وما الوهن ؟ قال حب الدنيا وكرهية الموت » . حديث
صحيح أخرجه الإمام أحمد وأبو داود عن ثوبان رضي الله عنه .

الغناء موعود بالفناء والموت ، لأنه يكره الموت جهاداً ويحرص على الحياة
أي حياة . مغاربيات ومغاريون مسلمون في فرنسا وهولندا وبلجيكا يحيون بنسلهم
الدماء الراكدة . وفي ألمانيا تركيات مسلمات يبشر خصبهن ببعث النشاط في جنس
أشقر مسارع إلى الانقراض .

ندمجُ ثقافياً ، ونهاجر غثاء ، في حضارة الأمم الآكلة ، أم نعد القوة بما يضمن
القوة ؟ تصرخ علينا مغلوبيتنا في العالم ، ويصرخ علينا حديث الغناء . فهل من دليل
شرعي يبيح للأمم المسلمة أن تنظم نسلها وتعمل من الصالحات والصالحين بمقدار لا
يظغى فيه الكم على الكيف ؟ ﴿ ووصينا الإنسان بوالديه حسناً حملته أمه كرها
ووضعته كرها وحمله وفصاله ثلاثون شهراً ﴾ (١) . هذا حد قرأتني أدنى يكمله
قوله تعالى : ﴿ والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم
الرضاعة ﴾ (٢) .

(١) سورة الأحقاف الآية : ١٥ .

(٢) سورة البقرة الآية : ٢٣٣ .

والعزل جاء في إباحته أحاديث صحيحة . أهمها حديث جابر عند الشيخين : « كنا نعزل على عهد النبي صلى الله عليه وسلم والقرآن ينزل » . حديث عند مسلم يصف العزل بأنه وأدّ خفي طال جدل العلماء حول الجمع بينه وبين أحاديث الإباحة ، واستقر اجتهاد المذاهب الأربعة على جوازه كما نقل ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية في فتاويه . على شرط واحد أجمعوا عليه : هو رضى المرأة بذلك .

من أدق الفقهاء نظراً في المسألة الإمام الغزالي . قال في (الإحياء) يقرر وجوه العزل وبواعثه المباحة : « استبقاء جمال المرأة وسميها لدوام التمتع . واستبقاء حياتها خوفاً من خطر الطلق » .

سبحان الله ! رضاها واختيارها وجمالها وسميها والتمتع بها بواعث مرضية ، فكيف بمصير أمة ! ويسمو نظر فقيها الغزالي رحمه الله فيقول : « الخوف من كثرة الحرج بسبب كثرة الأولاد ، والاحتراز من الحاجة إلى التباعد في الكسب ودخول مداخيل السوء (...) . فإن قلة الحرج معين على الدين (...) . ولكن النظر إلى العواقب وحفظ المال وادخاره ، مع كونه مناقضاً للتوكل ، لا نقول إنه منهي عنه » .

نوسع من نظرة الفقيه التوازلي لنطاق المسؤوليات السياسية الاقتصادية الجهادية وما يجب على الأمهات المؤمنات من تكثير نوعي قوى ، لا غشائي عالية على أمة متسكعة متسولة .

البناء من أعلى أو من الأساس ؟ على أي أساس ؟

حرر الفقيه النوازلي حق المرأة ورضاها وبر الإسلام بها . ومضى . فهل يمكن للفقيه الفردى ، المتهم بإبراء ذمة المسلمات والمسلمين وصرفهم عن ارتكاب الحرام ، أن يكون لنا أساساً نبني عليه وهو كان معزولاً عن المسؤولية السياسية ، نافضاً يده من الواجبات الاجتماعية واعتبار العواقب المصيرية التاريخية للأمة ؟ كان الفقيه الرائد المجدد لا ينظر أبعد من العواقب الشخصية عندما ترك الاختيار للمرأة أن تُتجنب أو لا تُتجنب . حذرهما فقط لتحترز من (الحاجة إلى التعب في الكسب ودخول مداخل السوء) ، وتفهم (خوفها من كثرة الخرج بسبب كثرة الأولاد) . وبقي محايداً يفتي بأن العزل لهذه الأسباب ليس منهيّاً عنه . ونظر إلى العواقب وحفظ المال وادخاره ونقاوة المكاسب من زاوية فردية .

هل يصلح الفقه النوازلي أساساً وهو كان مرتاحاً ، وكانت الأمة في زمانه سيّدة وكان التطور التاريخي والعلومى يدب ديب السلحفاة ؟ هل يصلح ذلك الفقه المنحس المحبوس بطبيعة وضعية العلماء على هامش الحكم أن يصلح للحركة الإسلامية وهي الحكمُ عائد بها غداً أو بعد غد ؟ كانوا رحمهم الله معزولين مرتاحين في زمن لا جديد فيه إلا سيف مُستولٍ يَخْلُف سيفاً ، « ولا يحل لامرئ مسلم أن يبيت ولا يرى إماماً من غلبته بالسيف وسمي خليفة ؟ » كان الزمن يدب ديباً ونحن الزمن في عصرنا بسرعة الصاروخ .

نحن في ورطة تاريخية ومأزقٍ ، لم يسبق للأمة أن واجهت تحدياتٍ مثلما تواجه إن لم نسترح من أعالي العلم ، من مطلق الوحي ، الفقه المناسب باجتهد مناسب ، تخبطنا في تقليد محايد غاية ما يفتي به مصلحة المرأة وسميتها وزيتها وإرادتها ورضاها ، لا مصلحة الأمة وواجب انتشالها من قاع المهواة التاريخية .

الفقيه المقلد متأخر حتى عن ركب المجتهدين في عصور قبلنا . أولئك الذين يقلدون فتوى حرمة ظهور الظهر من المرأة لا يقبلون ممن يحدثهم عن منع الحمل والأدوية المانعة من الحمل . سئل شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله عن امرأة تضع معها دواء عند الجماع ، تمنع بذلك نفوذ المنى في مجاري الحبل . فهل ذلك جائز حلال أم لا ؟ وهل إذا بقي ذلك الدواء معها بعد الجماع ولم يخرج يجوز لها الصلاة والصوم بعد الغسل أم لا ؟

فيجيبُ رحمه الله : « أما صومها وصلاتها فصحيحة وإن كان ذلك الدواء في جوفها . أما جواز ذلك ففيه نزاع بين العلماء . والأحوط أنه لا يُفعلُ » : والله أعلم .

إذا كانت المسألة منقطعة مقطوعة عن اعتبار العواقب الاجتماعية لوضع الدواء وسد المنافذ أو عدم وضعه ، فللعلماء مجال للنزاع . أما إذا وضعنا نُصْبَ أعيننا الحرج الذي يصيب الأم من كثرة الأولاد ، واعتبرنا (مداخل السوء) التي تفتح على الأمة من جرأ التكاثر العشائري فوجه الفتوى يتقلب ، ويصبح السؤال : ما مدى وجوب تربية الأولاد وإحسان تربيتهم على الأمهات ؟ يليه سؤال : هل نقدر الأمهات - خاصة إذا كن مرهقات بالعمل خارج البيت - أن يربين أولادهن وبناتهن التربية الصالحة إذا كان الأولاد والبنات قافلة غير منظمة الورْدِ والصَّدْر؟ يليه سؤال : ما مسؤولية المرأة ، والواجب الديني عليها ، والذخر الأخرى المرجو ، في تنظيم نسلها ليكون الولد - وهو عملها خلقه الله وتسببت فيه - صالحاً ، قوة للأمة لا وهناً ، حاملاً لها لا عبئاً عليها ؟

الفقيه السرخسي كان أوسع أفقاً من مقلدة عصرنا حين أفتى بأنه « يجوز استعمال الدواء لمنع الحمل في وقت دون وقت كالعزل ، ولا يجوز التداوي لمنع الحمل بالكلية » . وأجمع الفقهاء القدامى رحمهم الله على تحريم استعمال ما يقطع الحمل من أصله ، يقيسون ذلك بالوَأْد . واختلفت المذاهب في الإجهاض ، فأجمعوا على تحريمه إن نُفِخت فيه الروح ، وكرة ذلك بعضهم وأجازة آخرون لعذر كاعتلال المرأة والخوف على حياتها .

مفردة واحدة إن استأنسنا فيها بفقته الأسلاف رحمهم الله بنينا على أساس .
ذلك اتفاقهم على أن للمرأة حقاً أن تعزل ، علّوا ذلك بحقها في المتعة ونعله
بذلك وبواجب إصلاح عملها ، وهو الولد . نقل الحافظ ابن حجر رحمه الله عن ابن
عبد البر أنه قال : « لا خلاف بين العلماء أنه (أى الزوج) لا يعزل عن الزوجة الحرة
إلا بإذنها ، لأن الجماع من حقها ، ولها المطالبة به . وليس الجماع المعروف إلا ما لا
يلحقه عزل » . وتعقب هذه المقالة بعض الفقهاء بأن المعروف عند الشافعية أنه لا حق
للمرأة في الجماع . سبحان الله ! وهل قرأ السيرة النبوية قارئاً ؟

استأنسنا بهذا الاتفاق يحيلنا على الأصل المطلق ، وهو الوحي ، لتتحرر من ربة
التقليد لآراءٍ نبتت في بيئة بشرية هي النقيض ، في بعض أوجهها ، للبيئة الحاضرة .
كان إنجاب الأطفال وموت الأطفال حدثين متوازنين متوازنين . وكان الطاعون
يضرب فيفني جيلاً . وكان الطب في طفولته . في عصرنا جاء بلاءُ الله للعباد بطب
وعقاقير وتلقيحات ووقاية صحية تقلص معها موت الأطفال ، فيختل التوازن في
مجتمعات المستضعفين . يتكاثر نسل غولج طب عصري متطور ، وتعجز الفلاحة
المتخلفة عن تغذية الوافد ، ويثقل كاهل الأمهات ، فإذا (مداخل السوء) مفتوحة
على مصاريعها .

موت الأولاد كان حدثاً مألوفاً ، وتخنو الشريعة الرحيمة على الأم الثكلى لتعزيها
العزاء الجميل ، ولتخبرها الخبر اليقين أن الأرواح الطاهرة العارضة إلى البرزخ هي
هناك تنتظر وفود الأم التي حملت وهناً على وهن لتكون لها شافعاً . روى الشيخان
عن أبي سعيد الخدري رضى الله عنه قال : قال النساء للنبي صلى الله عليه وسلم :
« غلبنا عليك الرجال ، فاجعل لنا يوماً من نفسك ، فوعدهن يوماً لقيهن فيه ،
فوعظهن وأمرهن . فكان فيما قال لهن : ما مكن امرأةً تُقدم ثلاثة من ولدها إلا
كان لها حجابا من النار . فقالت امرأة : وأثنين ؟ قال : وأثنين » .

والأحاديث كثيرة في ثواب أم فقدت عزيزاً عليها من لم يسلفوا الحنث (أى
الحلم) . صغارهم دعاميص الجنة ، حتى السقط لا يخيب الأم ولا تحرم من جزاء

التعب عليه . ذلك الثواب وذلك الوعد الصادق ماض سواء في عصر الطواغين وعصر التلاقيح . والعمل الصالح ما أنعم الله عليه بالخلق والحياة ، وما أنعمت عليه الأم بالتنشئة الصالحة : عماداً للأمة ، قرّة عين في الدنيا والآخرة .

للمرأة الحق والحرية في أن تنجب أو لا تنجب ، وعلى المؤمنة واجب أن لا تضع غشاء ، ولا تتسبب في التكثير الأرثي بينما غيرها يربي صقوراً ونموراً . تُعَقِّمُ المرأة نفسها التعقيم الإرادي الأناني لتسير في ركاب الأوربية المنفلتة كالعجلة المعطلة عن وظيفتها ، أو تنجر مع الذهنية التقليدية التي تورثها العجائز الأميات المثقلات بظلم القرون وانسياب الأرحام . ذهنية تكثير الأولاد لإمساك الزوج . ذهنية تكثير الأولاد لعل من الكثرة تنجو واحدة ويشدّ واحد فيكون سنداً للشيخوخة . والغشاء العضلي - إن سلم من أمراض الطفولة وارتفع المستوى الصحي للساكنة - لا غناء منه حتى في كسب قوته في عالم العلوم والأدغة ، فكيف يكون سنداً لغيره .

الغشاء العضلي عبءٌ للأذكىاء في العالم ، المتعلمين ، المنظمين ، الأقوياء . عبودية منظمة تسوسها عصا الحاكم المستبد ، يتلقى الأوامر وينفذ ، فإن تطور القطيع فالديمقراطية التابعة فكراً ، المعوقة اقتصاداً ، المتسولة المتقزمة ، تُسَوِّقُ إلينا العبودية مُغلّفة مزينة .

يجب بناء الأمة على أساس علمي بفقّه مزدوج ، واجتهاد ذي عينين . واحدة تتلقى من الوحي واجبها ، والأخرى تستفهم آيات الله في الكون عن مغزى بلائها وما وضع الله عليها ويضع من أسئلة في الامتحان المستمر . إن وقفت الأمة مع فقه تفاعل في زمنه وفي حدود مراميه ومسؤولياته ، فإن الواقع المتحرك الصاروخي لن يقف ، وسيسير بأفكار أخرى ولأهداف غير مقاصد الإسلام . هذا عن الأساس الفقهي .

وعن البناء العملي من الأساس تحدثنا وتحدث حين نريد للمؤمننة تعميق إيمانها وتعلقها بربها وبالدار الآخرة ، حتى تتأصل في أعماق روحها وفي أكناف قلبها إرادة

العمل الصالح ، مطمئنة إلى أن الشريعة السمحة لا تظلمها من حقوقها شيئاً إن جهلها الانحطاط التاريخي ، وكم قمها ، وعزلها وراء الجدران ، وحرّم أن يظهر ظفرها في الوجود .

أم المريدة وجه ربها ، الخائفة منه ، المشوقة إلى لقاءه ، الواثقة بوعدده ، المتعلمة العاملة بما لها وما عليها مما رسمته لها شريعته ، العاملة على ذلك ، هي الأس ، ومنها البناء .

الأسرة لبنة الأساس في الأمة ، والأسرة الصالحة أم صالحة وأب صالح وعمل صالح . وما يُصلح الأم يُصلح ما بين الأب والأم من ضوابط شرعية وسياسات . ومخالفة قدمنا الحديث عنه . فأن أن نشال الأمهات المؤمنات ويسألننا عن مهمتهن في البناء وصناعة المستقبل . مهمتهن في إصلاح العمل - الوكد - .

إن إصلاح البيئة الأسرية تهسيء لينشأ الطفل في سنواته الأولى على حسن العادات ، ولتعلّم العلم النافع من الأم والأب والإخوة الكبار ، وليستعد للانطلاق الجديدة في المدرسة . الأسرة والمدرسة لكل منهما مهمة تكمل الأخرى .

تعرض الأم الجادة فتسأل : أية مدرسة ؟ مدارس التعليم الأساسي التي لا تمحو الأمية الأبجدية إلا عن نسبة قليلة من التلاميذ ؟ أم الثانويات المختلطة التي تهضم في أحشائها المختلطة مرهقات ومرهقين لتقذف بهم في بوتقة تخريج المعطوبين نفسياً ، السطحيين معرفة ، المخدّرين المنحرفين ؟

أم هي الجامعات المختلطة الهائجة تصنع العاطلات والعاطلين بعد أن تغمسهم غمسة أو غمستين في مرق الثقافة اللفظية العالمية ، أو تُطلِعهم على مصطلحات علمية ، وتُفرّجهم على عجائب في المختبر ، يائسات ويائسين من المستقبل ، كارهين له رافضين ؟

المساعد قليل ، والظروف شاقة ، والأنام بائسة بائسة ؛ لذلك احتاج الحال لمن

يفهم أنها عقبة ، وأنها تقتحم ، وأنه بلاء ، وأن الله وعد ووعدته الحق بأن هذه الأمة منتصرة .

غريباً معه غرباء وغريبات ، هكذا بدأ الإسلام . ولو كان الرسول صلى الله عليه وسلم ممن يجوز عليهم الشك ، والخوف من البلاء المحيط ، وتعاضم قوة العدو لكان الإسلام قد قضى نحبه من لحظة ميلاده .

البناء من أساس وعلى أساس عملية شاقة ، عملية ميدانية ، عملية متابعة الماء من نبعه لكيلا يتكدر ، عملية تركيب العناصر لكيلا تختلط خلطاً عشوائياً ، عملية تعهد النفوس والجسوم ، عملية معالجة الواقع بصبر من لا يرى المثال في متناول اليد بمجرد أن كتب في الصحف : قامت الدولة الإسلامية ، ونجحت الثورة الإسلامية ، ونُصبت الحكومة الإسلامية .

ما البناء رقة بعد صحوة . وشعار وحماس . البناء ما ساهمت به أنت من وقتك وصبرك وجهادك ، ثم ساهمت ، ثم صبرت ، ثم جاهدت . تذوقين بعد ذلك لا قبله طعم النجاح . ﴿ ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا إذا ما اتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات ثم اتقوا وآمنوا ثم اتقوا وأحسنوا والله يحب المحسنين ﴾ (١) .

(١) سورة المائدة الآية : ٩٣ .

صراع الأجيال

ليست عبارة (صراع الأجيال) مما جاء بلفظه ولا بمعناه كتاب ، ولا جاءت به سنة . لكننا نستعمله عنواناً لشيوع مفهومه عند المتكلمين في السياسة والاجتماع ، ولأن أمام الأمهات المؤمنات ومن حوالينهن أجيال شتى ، تتحدث من مواقع شتى ، وتنازع وتصارع وتقاوم المشروع الإسلامي ؛ فإن كانت الدعوة استمالة وتلطفاً وتحبباً للدين فإن معرفة القوى المعاكسة والرياح التي تجري بسفين الحياة إلى وجهة لا يرتضيها الدين ضرورة وسلاح .

ما تستطيع الأم المؤمنة أن تنفرد ببناتها وأبنائها ليقع تأثيرها عليهم لا تشوبه ولا تحرفه تأثيرات غيرها . أمامها ومن حوالها مؤثرات بشرية تدبّل زهرة الأخلاق ، وتُعوّج عود الاستقامة ، وتمتص رحيق الأغصان ، وتسقي السموم ، وتلقح بذور الشيطنة .

هيئات ! فالنوافذ التلفزيونية مفتوحة تنازع ، إن أغلقتها في بيتك هفت إلى خزعبلاتها النفوس ، وتبعثها الأعين إلى بيوت الأقارب والجيران والسنيمات والمقاهي . جيل نشأ على الغدو والرواح إلى ندى التخيل والتمثيل والتهام سخافات تسخر من الدين . وذلك صراع بين حق لا يزال نية في صدور أهل الإيمان ، وباطل كاسح ماسح صراع لاحتلال مواقع الثقافة المانعة ، ولتسخير الأجهزة وما يغذي الأجهزة ويزودها ويحركها ، وتدويرها وتحويرها إلى الكعبة ، وتوحيها من استقبال هولود .

هيئات ما تستطيع المؤمنة أن تنفرد بالبنات والبنين لتصونهم عن مهب الرياح العقيمة وهم لا بد أن يخرجوا إلى الشارع ويكلموا أبناء الجيران ورفقاء المدرسة . وتلك مجالات أخرى وصراعات أخرى .

تنازع الأم المؤمنة في أبنائها أجيال تعيش من قريب قاطن ، أو مزور زائر ، من

راكن إلى مذهب المؤمنة في التربية وغير راكن . منازعون ومنازعات ابتداءً من الحماة . تريد الحماة - من جيل العجائز الأميات أو المخضرمات - أن تدخل الكنة وأولادها تحت سيطرة أهل المكان لا أن يدخل أهل المكان في سيطرة جديدة طارئة . لا تقبل الحماة أن تستقل الطارئة بالأحفاد بعد أن سرقت الابن . إلا أن تكون فاضلة ، والفواضل في الحموات كثير . تدخل المؤمنة بالظن الجميل .

تنفق المؤمنة من كنوز المحبة ، واحتياطي المداراة ، وملطفات الأجواء بالخدمة واللياقة واللباقة ، ومنجذات التحمل والصبر . وصل ما أمر الله به أن يوصل من عرى القرابة إصلاح في الأرض ، وإصلاح للعمل . لا تألو المؤمنة جهداً في تلافي ما يفصل ويقطع ويوحش .

فإن كان الأحماء من طينة بشرية غير ما تعهد المؤمنة ، وإن كانت المفاجآت وخيبات الأمل فوق ما كانت تتوقع أو فوق ما تحتل ، فذاك البرهان على أن المؤمنة لا تزال غيرة في الحياة ، وأنها لم تستشر قبل الزواج ، ولم تغلب العقل على العاطفة ، والتريث على العجلة . أو أنها قاست قياساً فاسداً فظنت العسل ليس حوله نحلاً ، وأن الرجل الصالح لا تكون له فروع لها طعم غير طعمه . وعندئذ فليس ما دون المصابرة من مقبل إلا أن يوسع الله الرزق ، وترضى الراعية المسؤولة في بيت زوجها ويرضى الزوج ، وترضى الرعية من الأجيال المنازعة بالسكن المستقل .

إن معاناة الأحماء والعجوز الأمية ليست أقل وطأة من معاناة طباع الزوج ، ولا الكياسة معهم أقل تعيناً من الكياسة معه . وإن الجدة الحاضنة الحريصة على احتواء الأحفاد وضمهم إلى صدرها لكيلا يخطفهم منها خاطف ، ولكيلا تصيبهم ريح بزكام ، ولكيلا يخطوا في الحياة خطوة وراء ما تعرفه الجدة ، لمن أهم عوائق التربية البنات المحضونات والبنون المدللون يبلغون الثلاثين في عمر السنين وهم في عمر العقل والنضج النفسي والشجاعة على مواجهة الحياة لم يخطوا الطفولة الأولى .

عجائز أميات يجزرن إلى الوراء ، دهشات من كل جديد ، أو متظاهرات بأنهن

على اطلاع بآخر ما فاه به التلفزيون . يجررون إلى خلفيات معهودهن في المدينة ، أو موروثهن من البوادي ، لا يرين للأحفاد من الطوفان الجديد إلا الانكماش في الأحضان . صراع أجيال . صراع وأجيال .

والعصر يتقدم بسرعة صاروخية ، زادك من المعلومات عن العالم وحركته ، وعن المهنة وتطورها ، يصيبه البلى والتقدم في فترات تتقارب ، فلا تكونين على مستوى الأحداث لتقول كلمة الإسلام ، وتربي تربية الإسلام ، وترشدي جيل الإسلام ، إلا بتدريب ، يتلوه تدريب ، يتلوه إعادة تدريب . والحمة الفاضلة ، وحتى العمات والخالات اللواتي أكل شبابهن ، إن كن في دوامة تدور بهن في عالم هن عنه غريات ، فإن معهن من مخزون التقاليد وموروث التدين وقابليات الفطرة ما يمكن بل يتعين أن تستصلحيه . من ذلك الحفاظ على الحياء والعفة والسمة وصنع الجميل ورد الجميل بالجميل .

محظوظة من لها حمة عاقلة تطاوعها ، وتأنس إلى خلقها فتثق بها . الحموات العواقل يشدّهن إلى مألوف العوائد تاريخ وحنين إلى الماضي وذكريات وتطبع منذ الصبا أصبح طبعاً . مما يثقل كاهل الزوجين ، ويرهق ميزانيتها ، عادة رد الهدية بهدية أجمل وأثمن . ويكثر الأقارب والأعراس والمواليد ، فتصبح الهدايا وتكاليفها وحرص الأحماء على عادة الرد موضوعاً للخصام والنزاع .

وذاك مجال للنزاع بين عادة لها أصل حميد ، وهو التهادى وتطييب الخواطر وبين عبادة هي الابتعاد والتبري من التكلف . الهدية الرمزية - من سعة - سنة ، لكن العادة تردت بها لتكون لعنة .

محظوظة من لها حمة عاقلة فاضلة ، وأنت حمة الغد ، لا تعجلي !
كوني لها بنتاً محبة تكن لك أمّاً . كوني عاقلة تكن فاضلة . بكياستك وأدبك . ولطفك حصليها في أسرك .

في الأسرة الذرية المنسوجة على منوال المجتمع الأوروبي ، المتكونة من زوجين وذريتهما ، مقطوعين ممنوعين ، يتولى الحَدْمُ تربية الأطفال . أعني أنهم يتولون تدمير الأطفال . لو لم يكن من فضائل الأسرة التقليدية الممتدة إلا وجود جدات وعمات وخالات يعطفن على الطفل ويحببنه حقاً وصدقاً لكفى . وكان مصير الطفل المحضون المدلل بين أيدي العجائز أحسن حالاً من الطفل الملقى إلى أيدي أجيعة يُشوّهن خلقه النفسى ما شاءت لهن كراهية وضعهن البيئتين ، ونقمتهم ، وبؤسهن .

تضاعف أسباب الخلاف والنزاع بين جيل الحموات وجيل الزوجات إن كان للزوجات عمل خارج البيت ، من وظيفة أوصل إليها التعلم والتحصيل والكفاءة ، أو كدح ألجأت إليه الحاجة والفقر ، ولبثت الحموات في البيوت . تشقى الحماة الفقيرة ، ما معها خادماً ، فى شؤون البيت من طبخ وكنس وتفرش وتسوق ، وتدخل الكادحة والموظفة متعبة مكدودة نائرة الأعصاب . فالنزاع يتضاعف ويتنثّل : البيت بيت من ؟ والابن الزوج لمن ؟ والأولاد من غذاهم ونظفهم وأخذ ييدهم إلى المدرسة ؟

محظوظة والله من لها حماة فاضلة يفتح قلبها لذكر الله ، فلا تعارض المؤمنات والمؤمنين أن يحضروا البيت ويجلسوا للتعلم . فى ظروف اضطهاد الدعوة تخاف الحماة على ابنها وعلى كَنَّتِها . ما لها من سابقة تجربة بالعمل المنظم الموقوت المسئول المناهض للحكم الجائر ، وما لها من علم بذلك غير ما يتضارب فى أذنيها : السمعة المصنوعة المحاربة للإسلاميين ، وشهادة الابن والزواج الطارئة بأن الإخوان والأخوات رحمة من الله وجهاد وشرف . إلى أيهما مال الأحماء كان البيت . أو يقطع الناس بعضهم حبال بعض ، وذلك إيذان بفشل المؤمنة فى الإيلاف والتأليف والتبشير والدعوة بالتى هى أحسن .

ذلك بيت فقدته الدعوة ، فالأطفال فيه ينشأون فى جو كدير . ذلك موقع صراع سقط فى أيدي العدو ، فما كان يُرجى أن يستنشق فيه الأطفال من منعشات الإيمان

تُسبِعه غازات سامة تنزع الحياة وتنازعها ، لا تهبطها .

إن يُتم الأطفال الجزئي من أم كادحة خارج البيت، كَيْتَم البيت من دعوة طردها الخوف ، وسوء التبليغ ، والقصور في التأليف . وذلك من معوقات التربية وآفاتِها .

نستريح من عناء الصراع إلى باقية من أدب الراعي رحمه الله . نقرأ له مقتطفات من قصة أب تأيم من زوجه ، وتيم أطفاله بموت العزيرة الغالية .

قال رحمه الله : « رأيت الناس قد أنعم الله عليهم أن يكونوا آباءً فَنَسَأَ (مَدَّ) بالوَد في آثارهم ، ومد بالنسل في وجودهم ، وزاد منه في أرواحهم أرواحاً ، وضم به إلى قلوبهم قلوباً ، وملأ أعينهم من ذلك بما يَقْرُ به قرة عين كانت لم تَجِدْ ثم وَجَدَتْ فهم بهؤلاء الأطفال يملكون القوة التي تُرجعهم أطفالاً مثلهم في كل ما يسرهم ، فيكبر الفرح في أنفسهم (...) . وتلك حقيقة من حقائق السعادة لا أسمى ولا أعظم منها إلا الحقيقة الأخرى : وهي القوة التي يتحول بها الكون في قلب الوالدين إلى كنز من الحب والرحمة وجمال العاطفة ، بسحر من ابتسامة طفل أو طفلة ، أو بكلمة منهما أو حركة ، على حين لا يتحول مثل ذلك ولا قريباً منه بمال الدنيا ولا بمُلْك الدنيا » .

ماتت الوالدة في الطلق ، فيقول الكاتب عن المولودة : « إنها طفلة وُلِدَتْ وكأَنَّمَا أُخْرِجَتْ من تحت الرُّدَم ، إذ وُلِدَتْ تحت ماضٍ من الحياة منهدم . وهل فرق بين هذا وبين أن تكون أمها قد ولدتها في الصحراء ثم أكرهت أن تدعها وحدها في ذلك القفر تصرخ وتبكي ! فالمسكينة على الحالين منقطعة أول ما انقطعت من حنان الأم ورحمتها ، طفلة وُلِدَتْ صارخة ، لا صرخة الحياة ، ولكن صرخة النوح والندب على أمها . صرخة حزينة معناها : ضعوني مع أمي ولو في القبر ! صرخة ترتعد ، كأن المسكينة شعرت أن الدنيا خالية من الصدر الذي يُدْفِئها . صرخة تتردد في ضراعة ، كأنها جُملة مركبة من هذه الكلمات : يا رب ارحمني من حياة بلا أم ! » .

عاد الزوج بعد دفن العزيرة إلى بيته ، قال : « أعادني قدماي إلى البيت لأرى

طفلتي - وما كنت رأيتهما - ولقد كانت الولادة أول الحياة لها، وأول الحياة لي . (...) . يا ويلتا ! لم تلتق عيني بعين الطفلة حتى انفجرت تبكي ! أتبكين لي يا ابنتي أم تبكين علي ؟ أهذا بكاءك أيتها المسكينة أم صوت قلبك اليتيم ؟ أصوتك أنت أم هو روح أمك تصرخ ترثي لي ، وتتوجع لفرط ما قاسيت ؟ يا ابنتي ! إنما أنت الحقيقة الصغيرة التي خرجت لي من كل تلك الخيالات الشعرية الجميلة ، خيالات الأيام السعيدة التي مرّت ! .

« يخلق المواليد من اللحم والدم ، وأراك أنت يا مسكينة خلقت من اللحم والدم والدموع . بقية حياة ماتت ، فهل معنى ذلك إلا أنك بقية موت يحيى ! مسكينة ! مسكينة ! لو أن نوااميس العالم متغيرة لشيء لتغيرت من أجل بسك فردت أمك إليك » .

اللهم ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار

البرج الاستراتيجي

فى وسط المعمعة هى المومنة . بيتها برجُ دفاع و ذخيرة و تخطيط للمستقبل و تدريب جند . على كباستها و حسن تصرفها يتوقف تحييد القاطنين و الزائرين المزعزين ، ثم استمالتهم ، ثم تعبئة من فيه استعداد و غناء ، لكيلا يبطلوا خطط الدفاع و أخلاق الجند .

ذلك ، أم هى كانت شُعلة حماس قبل أن تتزوج ، فلما كسبت مالا و كسبت بيتاً و زوجاً انطفأت ؟ أهى تلك التى كانت تخطبُ و تحاججُ عن الإسلام ، أم هى هذه الساكنة المنصرفه إلى شؤونها ، بين الموقد و الأطباق و آمال الدنيا و آلامها تبعثرت نياتها و انهار صرح عزمها ؟

ينازع المومنة فى نفسها و إرادتها منازع النفس و الشيطان ، و يبطها مثبط قصور الهمة ، و يصرفُ وجهها إلى الدون من الشؤون صارفٌ مُقارفةً حياة جديدة و مفارقة الصبغة الإيمانية . ينازعها فى نفسها أولئك كما ينازعها الأحماء فى توجه تربيتها .

و يتنازع المجتمعان ، التقليدى و العصري المدنى اللايكى ، أيهما يهضم المومنة و يحولها و يميم فيها الروح ، تنازعهما فى تمويت الحركة الإسلامية و تقزيمها و احتوائها . لا يزال فى الأنظمة التقليدية العشائرية رمقُ حياة ، و لا يزال فى الأجيال الأمية الملتفتة إلى الوراثة المنكمشة المندھشة المستسلمة بقايا خير . لا يزال فى بلاد المسلمين فلول الفكر اليساري بعد خراب قلاع اليسارية و تداعى بنيانها . لا يزال يحكم بلاد المسلمين فئات قومية لبرالية ، أو لبرالية متقدمة تفكر عالمياً ، هى الشوك على أرض الدعوة و الألقام تحت مسارها .

انكشفت وطنية اللبرالى و ثورية القومى عن زيف فى الوعى ، و عجز فى العمل و ارتباط بقاطرة الحضارة السيدة الماسكة بخناق كل ما يقول : نحن ،

لا يشفعها بـ ... معكم ومنكم وإيكم .

على كل المستويات صراع ونزاع أمام المؤمنة ، تعى ذلك وتعلم أن الجهاد ما هو نزعة في الحياة الدنيا ، فتصمد وتقتحم . أو ترتخي إرادتها منذ تبسّم لها الحياة بسمه أو تزرع في طريقها نغصّة ، فترتد على أعقابها ، وتُخلد إلى الأرض كالذي استهوته الشياطين إلى الأرض حيران . لها صويحبات يدعونها إلى الهدى لتراجع ، لكنّ السيل أقوى ، والغناء غناء .

ويصطفى الله من إماءته لتسليح أبراج الإسلام وتمكينها ومداومة الجهد والجهاد .

صراع على كل المستويات . في القاعدة الاجتماعية في الأسرة ، تجرّها العقلية العتيقة للخلف ، وتُلهب الظهور حياة شاقة وبطالة وفقر وبؤس ، ويفتن النفوس ويضلّ العقول إعلام داعر وشارع مذعور .

من هذه الشكّة المختلطة ، ووسطها مشمّرة لتُمسك الواقع مسكاً ، تتخذ المؤمنة برجاً استراتيجياً تغزو منه ولا تُغزى ، فإن غُزيت قاومت وصمدت ، واستعانت بالله العلى القوى ، واستنجدت بحيل أخواتها في الله الوثيق . من موقعها الاستراتيجي ترتّب المعارك التربوية ليسلم ولدها ويخرج من ارتباك . وترتب الزحف السياسي ، وتؤسس التغيير التاريخي .

موقعها الاجتماعي بصفتها أماً مؤمنة يلزمها العمل على تربية أطفالها نفسياً وعقليا وعملياً ليتأهّلوا في مهنة الاندماج الاجتماعي ، ومهنة الإنتاج الاقتصادي ، ومهنة العضوية الفاعلة المؤثرة في الحياة . تعمل على ذلك بمساعدة مدرسة هي من الأهداف السابقة للدعوة ، تحتضنها الأمهات المؤمنات ، ويسرّن إليها العافية بتألف المعلمات والأستاذات ، وتقريهن ، وتهذيهن . مستقبل أطفالهن الشخصي ونجاحهم في الحياة مرتبط ارتباطاً عضوياً بمهمتهن الدعوية .

بنات وبنون إن لا تَرْجُ بهم المؤمنات ، وبالمدرسة معهم ، في تيار الإحياء والتجديد لا يخرجون أكفاءً في حياة الكسب والفعل في المجتمع ، ولا أحياءً بحياة الإيمان . عملاً صالحاً يُرِدُّنَ المؤمنات ، ولداً صالحاً . فيحاولن ربط المستقبل الشخصي في وعى نعمة الأظفار بمستقبل الدعوة ، ونهضة الأمة . جيل يربى جيلاً ، كلمة باقية في العقب حية يأخذها اللاحق عن السابق .

لا بد للأطفال واليافعين والشباب من رفقة خارج البيت . في المدرسة وحولها تتألف الصداقات ، وندي الشيطان والمخدرات متربص في الأرجاء . لا تنكص المؤمنة وتنطبع بطابع الحماة والجدة الحاضنة : أين كنت ، ولم خرجت ؟ مراقبة لا بد منها لكن ما فائدة الردع والزجر إن كان عقل الفتاة ولب الشاب خلواً من فكرة ، يتيماً من صحبة صالحة ؟ . زودوها وزوديه بفكرة ، بمهمة إيجابية يغزو بها الساحة . اجعليها واجعليه طليعة بين الأقران . ذلك ، وإلا فالتيار جارف .

من يرجها الاستراتيجي الجهادي تبعث المؤمنة بُعوثاً في طليعتها البنات والأبناء ، حفاظاً عليهن وعليهم على الأقل ، إن لم يكن الاستعداد ليسيقي الفارس مُجَلِّياً . جيل يتقدم بالدعوة قدماً بعد جيل ، راسخاً علمه بما هي المهمة ، ثابتة أقدامه ، متوكلاً على ربه . ويكون برج المؤمنة مشتملاً لتربية الشجر الطيب ، ومنطلقاً للبعوث الغازية ، لا مجرد ملاذ في الأحضان ، ومرافق للمراكب المنكسرة ، ومطعم ومضجع .

لا تنبت في الأرض المتحركة نابتة ، لا تزدهر فيها الرياحين إن كانت الأشواك موطناً . تستقر المؤمنة في قواعدها ، تُسعد أهل بيتها وتسعد بهم ، تُشركهم كباراً وصغاراً في مشروعاتها ، وتصل لا تفصل . والوصل بين منقطعات متنازعات هو في حد ذاته جهاد ، بل جهاد كبير ، بل جهاد أكبر .

بيت منفصل عن مدرسة ، جيل القواعد من النساء لا يفهم جيل المحجبات الجديديات ، سياسة بلا دين ودين بلا سياسة ، تدين مقلد فصله التقليد عن القرآن والبيان . عزّلت وساطة الدولة ووساطة فقهاء الدولة ، وعزّلت التاريخ وفتنته ، وعزّلت

العادات ، وفصلت الفوارق الطبقية ، وفصلت الخطوط من التعليم . تجمع هذه المفصولات على كلمة موحدة يسمى سياسة . جمع الواقع على الدين سياسة . استتباع الواقع للدين سياسة . تثوير ما هو قائم إعداداً لما يجب أن يقوم سياسة . وثيقة الصلة بالله وبكتابه وسنة رسوله مصدراً للهدى ، وموثلاً للذكر ، وتعليماً للقومة على الباطل سياسة . السعي لنهضة شاملة ، لقومة القاعد ، لإفقاد الموجود ، وإيجاد المفقود سياسة . تثوير كل ذلك وإعادة تركيبه لا الإثارة الحماسية .

موقع المؤسسة السياسي وانتمائها للحركة الإسلامية يحتم عليها العمل على إنجاح المشروع الإسلامي . تشارك مع جند الله من إماء الله في التثوير والجمع . تصل مساعدة ، أمرة ومأمورة ، ما فصل . أول ما تجمع وتصل ، بعد توثيق توبتها وبيعتهارلربها عز وجل ؟ هموم ولدها بهموم دعوتها . منفصلة لا تصل ! لها نظرتان إلى الأمور أنى تجمع وهي غير مجتمعة ! .

الانجماع على الله عز وجل أولاً وآخرًا . من هذا الانجماع القوة ، بالله عز وجل القوة . من لا لها إلى ربها حاجة ومطلب كيف تستؤمن على أمانة ! تساهم بالفكر والجهد والجهاد فى صنع مستقبل الحركة الإسلامية ما دامت واثقة بأن ذلك يقرب إلى الله عز وجل ، ويخدم قضيتها الأخروية ، ويصلح أثناء ذلك الولد . أسرة ، سياسة ، تاريخ أمة . ما يجمع ذلك فى وعى ، وما يجعله أمام عقل ، وما يعينه سبيلاً لإرادة إن كانت الصلة بالله عز وجل فاترة ، والمطالب إليه حائرة ! .

أسرة لبنة . أسرة برج . أسرة خندق . أسرة مبعث . ثم سياسة لإنجاح المشروع الإسلامى ، وصنع مستقبل الحكم الإسلامى .

ومستقبل الأمة ، مستقبل الخلافة على منهاج النبوة ، مستقبل الإسلام فى العالم ينتشل الإنسان ويهديه سبيل الملك الديان ، تصنعه المؤسسة من موقعها التاريخى حيث وضعتها القدرة الإلهية ، إن سبقت لها من ربها سابقة جهاد ، واصطفائها لذلك رب العباد .

نه . ههنا خاملة الهمة ، كسيحة الإرادة ، ناضب في قلبها الإيمان . لا تُحرك ساكناً من كسلها الوجودي لتعلم هل لها من نصيب في السعادة العظمى مع المجاهدات . لا تضع قدماً في ساحتها لتخطو معهن خطوة ثم خطوة حتى يحلوا لها معهن السير . أي بيت بيتها تلك التي جانبت السياسة ، وجهلت مجرى التاريخ ، وحجب عنها الحقائق ما ترى وما تسمع من أزيز حركة الكفر في سماء الدنيا وديب ناره في الأرض ؟ .

المؤمنات يثقن بوعد الله وموعود رسوله . أقدامهن ثابتة في أرض المعارك ، وهمهن الله تعالى والمصير إليه ، مهمتهن في الحياة وهدف عمرهن تقديم دفعة في مشروع سنة ربنا الغفور الشكور لتحسب لهن جهاداً . وإن الله تعالى بالغ أمره ، وما يقلبه سبحانه في الليل والنهار ، وما يديل من دُول ، وما يرفع من قسط ويخفض ، وما ينصر من قوم ويخذل ، إن هو إلا مفصلُ بلائه للعباد . في نهاية التقلب والرفع والخفض أمر هو بالغه سبحانه ، بدفعتك من وزن الريشة ، أو يوكل الله بالمهمة قوماً ونساء .

حكمة المولى سبحانه فيما يأتي به في ليل ونهار لا مجال لنا فيها . والمستقبل الغامض في أعيننا أمر حاصل بالفعل في علمه ومطلق قدرته . سميت نفسك صانعة المستقبل تفاؤلاً أن يتاح لك موقع قدم ، أو تنهض بك ناهضة . وإلا فالمستقبل الإسلامي بمشاركتك أو بدونها فجر طالع ، يتلوه ضحى مائع ونهار ساطع . لا إله إلا الله محمد رسول الله .

في الحديث النبوي الذي رواه مسلم وأبو داود والترمذي والإمام أحمد وغيرهم عن ثوبان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إن الله زَوَى لي (أي جمع أمام عيني) الأرض ، فرأيت مشارقها ومغاربها . وإن أمتي سيلغ ملكها ما زَوَى لي » . وقد وضعنا في أول الكتاب حديث البشارة بالخلافة الثانية على منهاج النبوة .

إن اصطفي المولى عز وجل المؤمنة كانت منبتاً وأصلاً . تكون أصلاً للبذور

الطيبة ، ومنبتاً للشجر الطيب إن كان لها في سماء الإيمان والإحسان مطلع ، ومن أرض العبودية لله وحده لا شريك له مَشْرَعٌ . اكتملت فيها التربية فهي منها فائضة كالنبع الكريم يَجُود . اكتمل فيها الوعي وتكامل بين وظيفتها الأمومية ، وجهادها الحركي ، وإعدادها القوة للتغيير التاريخي الطويل النفس .

مستقبل الذرية حتى تتعلم وترشد وتزوج وتندرج في الحياة . صنع المستقبل السياسي للحركة الإسلامية مصاولةً ومحاولةً للمبطلين . صنع تاريخ الإسلام . مسألة أجيال ، مسألة قوة أجيال ، مسألة كفاءة أجيال ، مسألة إيمان أجيال ، مسألة تربية أجيال ، مسألة تأصيل أجيال ، مسألة توصيل أجيال لتستقي من ينابيع الوحي وتستنير بأنواره .

والحمد لله رب العالمين

تربية مستقبلية

سلسلتها تربية من محض نشأت فيه المؤمنة ، فزواج فأمومة يتفياً ظلالها الولدُ الصالح لينبثق إلى مدرسة تحصنها الأمهات ، ومنها إلى اندماج في المجتمع فجهااد .

خرزات بلا نظام هذه المراحل ، مشروع نظام بلا سلك . بل دُمى أسلحة في دويرية لعب سمينها برُجاً ، وزور ذخيرة ، وبُهتان قذائف إن لم يكن مشروع أمة الله وعبد الله ، يتواصيان به وتفتح أعينها عليه الذرية ، هو التقربُ من الله ، وتهيء المستقبل إليه ، وطلب الحظ منه . إن لم يكن المستقبل مع الله ، والموعد الأخرى هو السلك الناطم ، وحقيقة السلاح ، وقوة الذخيرة ، وفاعلية القذيفة فإنما الناس أقفاص بلا طائر . ما سُمي الغناء غناءً إلا لاندثار القوة الماسكة والمطمح العالي والتشوف للشهادة ولقاء الله ، لا تخيف الموت ولا ترجع عقبات الحياة .

من البيت الإسلامي تنطلق القومة ، إن كان البيت يسكنه مؤمنون ، وكانت قلوب المؤمنين يسكنها حب الله ، والخوف من الله والرجاء . من البيت الإسلامي تنطلق القومة ، وتُمرُّ بالمدرسة ، وتستقوى بعد الله بمن سَمع ، ولَبَّى ، وسأل ، وسُئل عنه ، ولَبَّى النداء ، والتف ، واجتمع ، وأيد ، وانتظم . وكلها مراحل تربوية ، تأخذ الأقرب فالأقرب السائر في الحياة بلا هدفٍ لتوقظ فيه هم مستقبله الحقيقي الأبدى ، ولتعتقد له مع الله الصلح الكبير .

يصحو المسلمون والحمد لله ، والقومة انطلقت بعون الله ، والصادقات والصادقون في توبتهم لن يجدوا أمامهم من بين أنكاث الأحزاب السياسية وأنقاض الأسرة المفككة من رُكن يأوون إليه ، وصدق يقولون عليه إلا الدعوة تمثلينها أنت يا أخت الإيمان . فانظري بأى وجه ، وبأى فقه ، وبأى تفانٍ تخدمين مع الله مستقبلك بما تمهدين ليخطو الناس ، وبما تحبين ليحب الناس ، وبما تصبرين ليصبر معك الناس .

جمع وتجميع وتصالح كبير يتسع من النواة الإيمانية الحية المهمة بالمصيرين مقترنين : مصيرى مع ربى ومصير أمتى ، يسألنى عنه ربى إن ضيعت وقعدت مع القاعدين . من النواة الإيمانية الإحسانية تتسع دائرة الصلح مع الله لتضم بحنان أهل المسجد المصلين ، وأهل الغيرة القادمين ، وأهل الغناء المؤلفة قلوبهم ، المستورة عيوبهم . يدري ضرورة طرح المشروع الإسلامى طرْحاً سياسياً جامعاً من يستشرف المستقبل وعنده بصيص علم من مطالعه ، وعنده باليؤس التاريخى العميق الذى تتخبط فى قاعه الأمة دراية .

ويدرى الأهمية القصوى لطرح المشروع الإسلامى بما هو توبة وإيمان وتربية وإحسان وموت وآخرة ودرجات عند الله وقرب من الله ، من يتعلم من الواقع ، ويعتبر بتساقط الأفراد من الدعوة ، وانساح بعض الدعوة من معانى الإيمان ومطامح الإحسان حتى لكأن بعض الدعوة حزب سياسى من الأحزاب ، إن ذكر بين المتجالسين فيه اسم الله فكلمة تلفظها الشفتان .

سقطه تاريخية عميقة ، وتتصدى لانتشال الأمة منها من لا لها مع ربها مستقبل ترجوه هذه بداية نكسة لا بداية قومة . وطليلة نائية عابدة راکعة ساجدة معزولة عن الشعب ، لا عضل لها منه ، ولا عدد ، ولا عُدَّة ، ولا عون ، ولا ثقة ولا مشاركة : تلك جولة وتراجع ، ومضة برق بلا مطر ، سحابة صيف وتنقشع .

ونُسلِكْ بَعْدَهَا بِذُنَابِ عَيْشٍ أَجَبَ الظُّهْرِ لَيْسَ لَهُ سَنَامٌ

بدون أسرة سلك نظامها المعاصرة بالمعروف والبر والتعاون عليه ، وبدون سياسة تتوسع من نواة وتشع من مركز ، وبدون مستقبلية أخرى يتوقد همها فى قلوب المومنات والمومنين ، فالعيش هون . خشاش مع الخشاش ، فى غدِير ضفادع تنق ، ومستنقع بعوض يتآكل . صورة من المشهد الغنائى . يتامى من ديننا ، بل عاقون ناقون إنما يقوى الله ، وينصر الله ، سائرنا إلى مستقبل لأمتهم وعدة الله ، وفى قلب كل منهن جمرة حزنها على ذنبها ، وإرادة الزلفى عند ربها . لها مع الله قضية هى

الحاكمة الموجهة الباعثة . هي المستقبل . وما يلفح الوجوه من حرّ حاضر الأمة وكتابة وضعها بطمأنينة وثقة تعالجه المؤمنات . لا بترام سياسى يتعجّل ، ولا بتراخ مبرر يتأجل المستقبلان ، الفردى عند الله والتاريخى فى أرض الله ، يُزحف إليهما بعد إعداد ، تُفتح عقباتهما بإرادة ، تُخطّط مراحلهما بعلم ، تُقطع المسافات إليهما بقوة لا بعنف ، الفرق بين العنف والقوة أن العنيف يحاول قلب موازين القوى فى السياسة ، وترجيح كفة قوم على قوم ، بمقتضى تعجله وتراميه لا سيراً مع سنة الله ، وهى التدرج والمطاوله والصبر . القوة تُعدّ وتثنّى وتصبر . السياسة ترام ، والتربية إعداد . والميدانان متداخلان ، تنتعش التربية بالمكتسبات السياسية زمناً ، فإن ارتدت السياسة على التربية انتهشتها ، وربما قتلتها .

القوة إعداد ، وبصر بالحاضر ، واستبصار للمستقبلين . ﴿ وَأَعِدُوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهَبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ﴾ (١) : رباط الخيل إعداد ومُدّة وجُهد . تغرس وتُسقين وتعهدين ، فإذا نضجت الثمرة فأدنى حركة يجعلها تساقط عليك ربّما جنياً ، فكلّى يا مريم الدعوة واشربى وقرى عينا .

القوة تغدّى ، وتكتسب . حملت الأمة رسالة الإسلام قوية على الحمل زمناً ، وكان لها من العلم برسالتها يقين ، ومن العلوم الكونية وسلاحها ورباط خيلها رفد ، وفي الصنائع كان لها القُدح المُعلّى . ثم عجزت وخارت قواها فهى منبّطحة . فكر معوق ، قرآن مهجور ، طاقات معطلة ، هزيمة تاريخية ، مستقبل غامض ، تجارب مرة ، كوارث وحوادث ، عدو مفترس ، هشاشة فى البنية التقليدية ينم عنها اختراق الغزو الثقافى ، خيانة القوات المساعدة للغزاة ، ينم عن خيانتهم ما يفعله الأعداء بالمؤمنين ، والخنونة جزء من التدبير طائعين بل مُحرضين .

(١) سورة الأنفال الآية : ٦٠ .

إن بسطنا خارطة الصراع بين الحضارة الغربية تعززها فيالق المرتزقة من بنى جلدتنا وبين الرسالة يحملها مستضعفون يبادون في شوارع مدن الجزائر وقرى مصر ، برزت إلينا بالآلوان المتعارضة مكان القوة والضعف . القوة المادية في يد الحضارة الغربية ، والضعف المادى فينا لا يعوضه ولا يقوم مقامه إيمان أعزّل لا علم معه بما هي خيل الساعة وما هو الرباط وما هو الإعداد .

تكون للأمهات كلمتهن في توجيه المدرسة ، بل يُلقى عليهن حملٌ من حملها ، وثقلٌ من ثقلها . المدرسة - من المهد إلى اللحد - محور دائرة الصراع المستقبلى بين حضارة الأشياء ، حضارة الاختراع ، حضارة العلوم الكونية ، وبين الرسالة العزلاء حاضراً ، لا يرجى لها بلاغ ولا فى دنيا المدافعة والمزاحمة مُطلّع إن لم تأخذ بأسباب القوة ، وتتمكن من سلاح العلوم ، وتوطن التكنولوجيا . إن كانت الصلاة والصيام والزكاة والحج تصدّق شهادة أن لا إله إلا الله أو تكذبها ، فالتصديق بموعد الله وبالحلافة على منهاج النبوة تتوحد عليها الأمة ، يكذبها أو يصدقها سعى المومنان والمؤمنين ، وجدّهم ، وتفرغهم ، واستماتتهم ، لاكتساب ما قلنا ، وتذليله وتوطينه وتسخيره .

معركة حاسمة مصيرية متسارعة فى زمن متسارع بين أدمغة تفكر وتتعلم وتصنع وتبيع وتغزو وتغلب ، وبين أدمغة أمية عضلية غثائية . مثالٌ من الجاهلية ماثل أمام أعيننا لو كنا نعتبر . اليابان تسيطر الآن على ما بين ثمانين وخمسة وتسعين فى المائة من السوق العالمية للإلكترونيات والإعلاميات . يتقلص نصيبها إلى ثمانين فى المائة فى التكنولوجيا من الدرجة الثانية ، ويتقدم إلى ما يقرب من السيطرة الكلية فى الميادين الطليعية . لو يعتبر أذنان الغرب خونة دينهم بما يجرى فى العالم لتعلموا أن اليابان المخلّقة هو نفس اليابان الغاطس فى تقاليده وخرافاته ودياناته حتى الأذقان .

لهم جذور ، لهم أرضية مستقلة من ثقافتهم ولغتهم ، لهم تصورهم للحاضر والمستقبل . لهم إرادة قومية وتاريخ هم به متبجحون . لا جرم تتوحد أقداهم فى

الحاضر ، و يغزون المستقبلَ ممتدةً ظلالهم عليه . ما صرنا نحن غُناءً ، وكلمةٌ دخيلةٌ في قاموس التاريخ ، إلا لإنكارنا أصولنا ، وكفرنا برسالتنا ، وجهلنا بما نحن ومن أين جئنا أمةً وإلى أين نصير بعد الموت فرادى .

جوهر القوة المستقبلية علوم . وردَ عِلْمٌ منها يُسمى المعلومات فحمل على متنه سائر العلوم الكونية ، وأسرع بها سرعة الإلكترون . احتمل علوم الذرة وكانت متفجرات فتقدم بها لتكون الطاقة المكبوتة الخادمة . واحتملت الإعلاميات الطب ففتحت أمام هندسة الوراثة ، وتشخيص الأمراض ، وتركيب الأدوية ، وتجريب المنقحات آفاقاً بعيدة لا يتراءى مداها المتطلعون .

واحتمل المارد المعلوماتي الفلاحة والهندسة النباتية ، فلولا أنه مارد لأفاض على الإنسانية الخير حتى لا يبقى على وجهها جائع . لكنه يسخره المال والربح وحساب السوق ، فلا يخدم إلا أنانية من فى يدهم المال والسوق ، إلههم المعبود الربح ، والهبلُ لأم الأخلاق والإنسانية .

علوم المستقبل معلومات وإلكترونيات وبصريات وتواصلات . الإدارة المستقبلية لا كإدارة الورق والأضابير والملفات والغبار العتيق . معمار المستقبل توازن فى الأعلى معنق على أعمدة درسها الإلكترون . التدبير المنزلى المستقبلى خدَم معلوماتى . معامس المستقبل أزرار يلبي طقطقتها جيش من العبيد المكهربين . اقتصاد المستقبل تدفع به التسهيلات المعلوماتية ليكون حسابه أثبته بالعلم الدقيق .

قبائل ماردة من العلوم المستقبلية ، ما يفعل غداً بها أعداء الإنسانية ؟ ما يفعلون بها الآن وهى فى يدهم أداة سيطرة ؟ لو استفاق شيطان مثل النازية وقرر إبادة الأجناس المنحطة فى نظره ، وعقم ، وصنع الجنس السيد ؟ لو قرر شيطان إلكترونى الدماغ تصفية العرق والدم غير النقى بأسلوب علمى غير أسلوب الصرب الهمجى ؟

همجية علمية تتحكم فى العلم بنظم بيولوجية تغير خلق الله ، وترنوا إلى ما ادعاه فرعون من ألوهية . منذ الآن تسخر علوم المستقبل لخدمة أغنياء العالم وعلاج

أمراض الأغنياء لا لتغذية جياح العالم . تسخر لتصنيع الصواريخ الذكية والطائرات
الأشباح . الحكماء العلميون وحفظة أسرار الاكتشافات ضماير في قبضة الهيئات
الرأسمالية الحاكمة ، وهؤلاء في قبضة السوق . والسوق جاهلية ما لنا فيها موقع قدم
ما لنا فيها متجر إلا أن نبسط على الأرض معرض فواكهنا البرطبة ووجوه نساءنا
يرقصن للسياح .

الثقافة الأبجدية الورقية ماض عتيق . والمستقبل صور رقمية ، ودماغ بشري
يوصل بأنظمة إعلامية فتعزز ملكاته . المستقبل تلفزيون مدق ، ثم تلفزيون مجسد .
استغنى الدماغ العلومي فطغى ، فهو يستطلع ما وراء المادة ، يحاول خرق الكون
المنظور ، يصنع بآلاته المستقبلية علماً عجائبياً ، يلعب بالرموز الرقمية ، يحلم ، يفرق
في الخيال مركباً من الذاكرة الإلكترونية برامج مبرمجة تصنع له الجنة . يبحث عن
الله ، لا يعرف الله . يبحث عن المجهول عسى يتفتق له المستقبل عن شيء .

اللهم ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار

تربية علمية

أنسب إلى الجمع نسبة لا يحبها النحاة القدماء الذين لم تُربكهم الحاجة إلى التمييز بين ما هو دوليٌ مثلاً ، كمؤسسة دولية خاصة بدول ما ، وبين ما هو دولي مشترك بين دول عديدة ، كالمنظمات الدولية . كم من خدمة تنتظر منا اللغة العربية الشريفة ، لغة الإسلام لغة القرآن ، التي وَسَّعَت الْعِلْمَ بالله وبرسالة الله إلى الإيمان لتستوعب العلوم الكونية سلاح الحاضر والمستقبل . أحوج ما تكون أمة الإسلام لخدمة الآلة اللغوية حتى لا تطفئ على القلوب عَجْمَةٌ تحملها في أحشائها هذه العلوم المادية الصمُّ أهلها ، البُكم عن كلمة الله .

العلمُ العلمُ بالله ، وبكتاب الله ، وبرسل الله ، وبقدر الله ، وبملائكة الله ، وبلقاء الله . مصدرُ هذا العلم الوحي ، وعاء نوره القلب ، والعقل الإيماني المنفتح المنافذ على القلب يتلقى الأمر والنهي ، يعرف الحق .

والعلوم الكونية اطلاع العقل المعاشي المشترك بين البشر ، متفاوتين في ذكائه أفراداً ، متقدمين أو متخلفين في مضمار فروسيته أمماً وعصوراً . العقل ، العقل ، العقل . كلمة يرددها الناس غير عابئين بتعريف ما هو العقل الذي يتحدث عنه القرآن ، وما مدلول العقل في ميادين المعاش . قلوب تفقه عن الله ، تعقل عنه تتلقى وحيه بالقبول . وقلوب مختوم عليها ، منسدة قنواتها ، لا تقبل الوحي ولا تعرف الحق . ومع ذلك فعقولها المنطقية المعاشية المنقبة المستنتجة الصانعة المكتشفة لها الفاعلية في الكون تُطور مادياتها ويبقى العقل الإيماني كسيحاً .

إن الحضارة المركز ، حضارة الصاروخ والذرة ، والإعلاميات والثروة والصناعة والخبرة والسيطرة في العالم ، لا تقبل مع وجودها وجوداً إلا أن يكون مثلاً وذلاً . وهي بخيلة بحصيلة العلوم التي أفضت إلى عهدتها من حصيلة جهود حضارات بشرية متعاقبة ساهمت أجيالها في إرساء قواعد التفكير وتسخير ما في الكون ، بما

سخره الله للعقل الساعي المجرب ، لحاجات معاشها وشؤون حياتها . وكان للمسلمين شرف احتضان العلوم مدى قرون ، كانت عليها الأمانة الراعية المحسنة . أثنى المسلمون العقل البشري بأثمن مكتسباته التاريخية ، ألا وهي الطريقة التجريبية التي ولدت من رَحمِ التعليل والتقسيم والتثبت الإسلامي ، بعد أن تعوّقت في المَخاض عند اليونان والهند والسند .

ولدت الطريقة التجريبية أم العلوم على فراش مسلم ، فإن احتجزها ورثة عاقون محتكرون ، فالفتاة لنا ، من دمنا ، نستردها . بضاعتنا نستردها . لكن العلوم الكاثرة التي نسلّت منها إن صكت أسماع العالم وأعمت أبصار الأنام عن العلم الحق ، فحقها علينا أن نوظفها - بعد استرجاع الأم والحفيدات - لنخدم الحق لا لتبني في ديار الباطل . وهو جهاد كبير .

تتنامى الصحوة الإسلامية ، والحديث عن الإسلام ، وتجفل النخبة المثقفة بشقافة الغرب ، الجاهلة كلاً أو بعضاً بما هو العلم ، وكأن الإسلام كلمة طارئة في العالم ، وكأن العلوم الطائرة بسكان العالم نور لا يبقى معه ظلام . الظلام في نظر خفافيش ملحدة منبهة هو الدين والوحي والله ورسوله .

في القرية البشرية الكرة ، التي تقلص فيها الزمان وتقارب المكان وحمي سوق العلوم ، قوى محتكرة هي الأمم الغربية تماورها أم شرقية وتسابقها وتسبقها ، اليابان اليوم ، والصين المارد حين يستفيق غداً . مانعٌ خارج أسوار الأمة الإسلامية لن وجود بعلوم ، لكنه يبيعك آلات بالثمن الباهظ ، يسمى البيع تحويلاً للتكنولوجيا ، وكأن التكنولوجيا شيء مشياً تشتريه جاهزاً ، معامل بمفاتيحها أسكن فيها البائع عجائبه ودرّبك على وضع الإصبع على الزر .

وفي الربوع مانع آخر تابعٌ إلى طاعة الأقوياء مسارع . هذا المانع المحلي مصلحته إن كان صناعياً تاجر أن يستورد أكبر قسط من التكنولوجيا الجاهزة . فإن كان مثقفاً ديمقراطياً استاذاً خبيراً ملحداً فوطنيته تُعلي عليه أن ينظف الأرض من خرافات

الوحي والدين ، ليحرر العقل المسلم ، فيستقبل العقل العلوم سليماً من شوائب اللاعقلانية .

مَن يستنقذ العلوم ويعيد تأصيلها على قواعد مُسلمة من يد المحتكر الخارجي .
مَن يجمع من أذكّاء الأمة وعابرة الأدمغة المهاجرة عبدة الدولار نواة نهضة وطلبة جهاد ؟ من يفرش للمتأثر من أهل الكفاءات العلمية بساط ترحيب ليؤلفوا جنداً مخلصاً لله يصنعون مجد أمتهم ومستقبلها ، مكافئين اعترافاً بالجميل وتقديراً للكفاءة ، مرجواً لهم عند الله حسن المآب إن هم سألوا أنفسهم سؤالاً علمياً عميقاً :
نِم كُل هذه الأسرار في المادة ؟ ماذا وراء المادة ؟ لِمَ أنا ، ومن أين أنا ؟ وإلى أين أنا .
من كان منهم على قاب قوسين من الفطرة لم ينسلخ عن دينه فذلك نرجوه . ومن كان منهم مؤمناً بالله ورسوله حقاً وصدقاً فاليبت بيته ، ومن كان منهم مصلحاً تقياً - وهم كثير والحمد لله - فالمسؤولية ومسؤوليته ، وإعداد القوة لأمته فرض كفاية عليه ، يأثم أشد الإثم وأنكره إن خذل ، ويرشح نفسه لأكبر المنازل عند الله إن نذر حياته وجهده وجهاده للمهمة النبيلة .

من فعل ذلك ومن فعلت . وليس دماغ المرأة أقل كفاءة يا من يقرأ نبذة عن انكشاف الطليعية مدام كوري ، ويا من يقدر دقة النساء وقدرتهن على الإنجاز .

حاجة الأمة ملحة ضاغطة لتربية لا تَمَوُّن المتسوق من البضائع المعرفية ومخزونات الإنتاج العلمي مما يبيعه المخترعون ، بل تَمَثِّل الرصيد العلمي وطرائقه لتبدع وتخترع وتكيف .

في الأسرة ينسجم الدين والخلق والسلطة الأبوية الأمومية في حضن المحبة لتتألف عناصر التربية المتكاملة . في المدرسة الأساسية ، من حيث تنطلق مسيرة اقتحام عقبة العلوم ، ثم الثانوية والجامعة ، ينبغي انسجام جديد غير تجميع (الموارد البشرية) وترتيبها وامتحانها الإداري وعقابها وتخريجها بعد لسوق شغل غير موجودة .

في المدرسة الإسلامية المرجوة نريد انسجاماً جديداً تنقلص فيه الإدارية الدولية ، وتحمل الدعوة القلوب لتهئ النفوس الفتية ، فلتتقي الرغبة بالتوجيه التعليمي ، وتلقاه راضية مقتنعة منساقاة لا مسوقة . منذ تعلم النفوس الفتية ما قيمتها في الوجود ، وما مصيرها ، وما حاضر الأمة التي تنتمي إليها ، وما فرصة المشاركة في إنهاضها ، ومنذ تثق بالموجه المعلم ، وبالمریبة الأستاذة ، يتكون في النظام التعليمي جو آخر ملائم للتعلم غير الجو السائد في مدارس الثقافة التابعة والبطالة غير الصانعة .

تثق النفوس الفتية التي بآكرها الإيمان وباركها على يد الدعوة بالأستاذ لا يخون أماته ، وبالتوجيه لا يملحيه السياسي الحاكم من منصة التهريج ، وبمستقبل تساهمين فيه بجهد يجد مكافأته المادية العادلة في مجتمع لا يترقى فيه الناس السلم بالرشوة والقرابة والمحسوبية ، وبجهاد تجدين ثوابه عند الله إن حققت عبقرتك ما عليها ببذل أقصى ما تقدرين عليه لصنع مستقبل أمتك .

مثال يا مثال ذل من لا مثال له خنس من لا طموح له خاب من لا إيمان له بموعود الله ورسوله روح الدعوة تسري في المدرسة من نفحات الأمهات المعلمات المربيات ، لتسحب منها روح السيطرة الإدارية ، وخيانة المكتبية التي لا تبالي ، وقانون المذكرات الوزارية الغائب من يكتبها عن الميدان ، وقطيعية العدد العديد الذي يجد فيه النشء نفسه أرقاماً مجهولة .

ليس بالروح والمثال تنغذى الأجسام ، بل الأجسام وغذاؤها قوام الروح . فالمدرسة ، والجامعة بعدها ، واقتناء علوم المستقبل ، وتوطین البحث العلمي ، ومشروعات تموت جوعاً إن سرت الروح في المدرسة وانسحب الاقتصاد .

العلوم المستقبلية ما هي فراشات مجنحة ترشّف من رحيق الأزهار ، بل هي ساكن راحل مشواه الاقتصاد ، يحلّ إن حلّ ، ويرحل إن رحل . ساكن ومثوى ، وغذاء يسمى الصناعة ، الصناعة بكفاءة ، الصناعة بسرعة ، الصناعة بتنافسية ، الصناعة والتسويق في عالم الشطار المتفوقين . تراحمين الكمّ المادي والكيف

البضاعي أو تموتين . تطعنين فيشطب على اسمك من السوق . اقتصاد ومعاش ، ألسنا
مع العقل المعاشي ؟

زحف على قطار سريع . زحف يبدأ من فجر المدرسة الأساسية ، حيث يتعلم
الطفل وتتعلم الطفلة سطوح الأشياء ومبادئها ، ومسميات الأسماء ، والقراءة
والحساب . وأثناء ذلك تدريب على التطلع لأعماق ما وراء الواجهات ، وألوان
الصُّور ، وأرقام الحساب . يدرب الطفل على العمل الجماعي والتعاون مع الأقران ،
وتدكي روح المنافسة .

تتولى الأمهات الحديبات على فلذات الأكباد ، لا الوظائف الساليات يرتبن
الملفات في إدارة الدولة ، توجيه العبقريات المتبرعمة والمواهب الكامنة التي تكتشفها
المراقبة الحنون كما يراقب الزرع الغمام سنة القحط . وتُدرب البراعم التدريب
العقلي العملي لتنمو فيهم القدرة على وصل النظرية بالتطبيق ، والبحث بالنتائج ،
والنتائج بالمصلحة والمنفعة . في الجامعة والمدارس العليا يزدوج النظري والتطبيقي ،
ويكبر موضوع البحث ، ويدخل حساب الربح والخسارة ، وتوصل النتائج بسوق
الشغل الآني ، ويوصل الكل بمشروع مستقبل الأمة .

تصنع المدرسة الأساسية شعباً واعياً من عموم الأطفال ، ثم ينفرز الموهوبون
أفواجاً متوسطة تدرب التدريب المهني ، وتوجه الطلائع الذكية لتنال أعلى ما يمكن
من التخصص . والنخبة العليا لا ينبغي أن تكون أنفاسها بالحجة الدماغوجية الباطلة
حجة المساواة . فإن الله رب العباد زاد بعض العباد بسطة في العلم والجسم .
فالأكثر من النخبة العليا إحساناً لفن التوصيل والتواصل والإفصاح ، يزودون
بالمعارف والخبرات العملية ليكونوا أساتذة ، بنات وبنين . أشرف ما تنذر نفسها له
المؤمنة التعليم .

أما البحث العلمي العلمي فيريد ذوات القدرة وذوي القدرة على التركيز
والصبر والمصابرة والمثابرة والفضول العلمي والاطلاع على ما في العالم من دراسات

تنشر، وخبراء يبرزون، وكشوفات تنسخُ كشوفات . قبل ذلك الإخلاص لله تعالى والولاية لأمة الإسلام . وبعد ذلك وأثناء مكافأة الجهد، ورصد أموال، وإرساء مؤسسات، ودعم مؤسسات .

كيف ينسجم كل ذلك في مدرسة إسلامية وجامعة؟ كيف تكسبُ علوم هدفها خدمة الدين وقوام نشأتها وحياتها الذكاء والخلق والسلطة المعنوية من أعلى، والمكافأة العادلة من تحت؟ ما المنهاج التربوي والهيكلية الإدارية، والعلاقة بهذا الجانب وذاك؟ ما الآداب العامة والعلاقات البشرية بين معلم ومعلم، بين تلميذ وتلميذ، بين طالب وأستاذ؟

لنكون علميين في فقه نصب الآلة وتشغيلها كما كنا علميين في تخطيط الأهداف نقول: بعد توفيق الله وبركته نعتمد الشجاعة والتجربة، ونتعلم من الخطأ، ونحاول ونثابر، ونسدّد ونقارب، وننسق ونستعين بالله . وعلى الله قصد السبيل .

تربية قرآنية

إن اكتساب العلوم والتقنيات المتقدمة والاستغناء بالمقومات الاقتصادية شرط للبقاء، مجرد البقاء، في الحياة لأمة تطمح أن يكون لها موقع من الإعراب في عالم الغد.

أما أمة تحمل رسالة للإنسان، وهي ممزقة ضعيفة منهوبة مغلوبة، فإن كسب العلوم في حقها أشد ضرورة، إذ هي وسيلة القوة، والقوة العماد المادي لمن له مغزى في الوجود، وشرف في الوجود، ومعنى في الوجود، يريد أن يقول كلمة تُسمع.

الإنسان هدف هذه الكلمة، والمقصود بهذه الرسالة. ما دمنا سائرين على تعثر في مقالعات الأحجار والهورل العدائي من جانب الأقوياء يورق ليلنا، وسيط الآلام تلهب ظهرنا، فانصرفنا كلياً للدفاع عن النفس، والتنديد بـ (المؤامرة) التاريخية ضدنا، والتسلي بإيقاظ ذكريات الأمجاد الحضارية عسى تنير القاتم من حاضرننا. فترة تاريخية عصيبة نعيشها وتمضي إن شاء الله. ونكسب القوة ونفتح أمامنا أبواب مستقبل الوحدة بإذن الله.

عندئذ تتغير نظرتنا إلى أنفسنا وإلى العالم، فنكتشف أن معنا رسالة إلى الإنسان أنسبناها، وعجزنا عن حملها، وارتبكنا حتى في فهمها لتتویر أنفسنا. عندئذ ينتظر منا الإنسان كلمة الدلالة على الله، لا تشوش عليها عداوة الإعلام الغربي التي تخيم الآن على آفاق التواصل بيننا وبين الإنسان. عندئذ، والقوة في يدنا، نكف عن اعتبار الإسلام دين قتال ونزال. القتال بقوة المستقبل دمار شامل للكرة ومن فيها. ونحن من في الكرة هو مقصودنا، نبلغه رسالة الله ليسمو عن مستنقع الأخلاق الرديّة، وبؤرة الشقاء الكفري، ومصير النار.

في انتظار ذلك لا نستطيع نحن نسمو ، بل ننحط ، إن خذلنا الوسائل المادية . كيف تريدون فلذة الكبد عالماً منتجاً على أعلى المستويات ، إن كلفته الصوم عن الدنيا تصرعه الدنيا ويدوسه بالأقدام أبناء الدنيا وبناتها .

لا نستطيع نسمو إن كان معنا القرآن وما معنا خبز ، وما معنا استقلال غذائي ، وما معنا صناعة ، وما معنا من أموال المسلمين إلا غُصَّةُ التفرج عليها وهي تلعب بها الثعالب والذئاب . بعد سنتين ونصف من غزو بغداد حسب خبراء الغرب أن خسارة العرب في تلك الكارثة ست وسبعون وستمائة مليار دولار . قبل ذلك حسب الخبراء أن عشرين مليار دولار لو أنفقت لاستصلاح الأراضي الشاسعة في السودان لكاد العرب أن يشبعوا خبزاً من زرع أيديهم . معظم الخسارة سلمه أمراء النفط ثمناً لأمريكا مغیثة العرب من بأس العرب .

مقياس من مقاييس سفاهتنا - أعنى سفاهة حكام الجبر - وموقوفاتنا وقصورنا عن حمل الرسالة وتبليغها . فلأن أمام طريقنا أحجاراً ومصانع كوارث لا نقدر حق قدرها الأمانة العظيمة التي أنيطت بخير أمة أخرجت للناس . يخرج لنا نادي المكتسبين بالحرير عُريان في الأسماك ؟ يخرج من رُمحه قصبة إلى من رماهم الصواريخ عابرة القارات ؟ يستحي من يتكفّف لقمة العيش من الناس أن يزعم للناس أن معه من الله نوراً وبرهاناً وفرقاناً . أنت سبّة على رسالتك ، ظلمة في وجه النور ، دحض للبرهان ، خلط بلا فرقان . وإلا فهاتِ هاتِ .

موعدنا مع الإنسان لنسلمه الرسالة فيقبلها معتزلاً بنا أن جئناه وقرعنا بابه يوم من أيام الله يكون نشأ فيه جيل قرآني مسجدي . القرآن الرسالة والمسجد عاصمتها . ما أحوجنا إلى المعاهد التكنولوجية ومرافق البحث العلمي . مثل الناس نحتاج ، وأكثر من الناس نحتاج . وقد قدمنا أن التربية العلمية تسري فيها روح الدعوة بما يحملها إليها في شغاف القلب الأمهات الحاضنات ، والولد الصالح نشأ في أسرة صالحة فشرّب من معين الإيمان . ولا بد للدعوة السارية روحها من موعد لقاء ، وبرنامج لقاء

الموعد المسجد ، والبرنامج القرآن

إن لا يأت إلى المسجد تلامذة المدرسة وطلبة الجامعة ، يأت إليهم المسجد . في المدرسة والمعهد والكلية مسجد وقرآن . أول خطي الطفل إلى المسجد ، يأخذ بيده إليه أبوه وعمه وأخوه ، مناسبة يُحتفل بها في الأسرة ، ويُلبس الطفل لباس الأعياد ، ويصور ليحتفظ في ذاكرته بحدث مهم في حياته . كان أجدادنا رحمهم الله أفضل منا ولأء للقرآن ، يختم الطفل ختمة كاملة فيركب فرساً ويُزف كما تُزف العُرسان ، احتفاءً به أن حفظ من آيات الله . ويختم نصف ختمة وربعها وعشرها فيُفعل به من البر والاحتفال . ذكريات الطفولة مؤسّساتٌ للشخصية ، تربطها بالمسجد والقرآن ، لا نترك المناسبات الاجتماعية تنسج ثوبها .

ليس معنا وقت لنقف مع من يصرخ : بدعة بدعة ما يساعد على الدين سنة حسنة . البدعة والضلالة أن نترك بذور الشر والغفلة والعادات السيئة تنزرع في نفوس الصبية . كل ما أصلح تربة النفوس لتتغرس فيها آيات الله وحب بيوت الله عمل صالح . وما خلد في نفس الفتاة ذكرى يوم احتجابها واختمارها في اللباس الشرعي من حفلة واجتماع واهتمام عدل صالح تُرجى عوائده مدى الحياة إن تُعهد بالتربية ، وصين في بيئة قرآنية .

كان من قبلنا رحمهم الله أقرب إلى السنة بعمارته المسجد يعقد فيه النكاح ، وتُعلن الخطبة ، ويخرج منه العريس . وتعود إلى المسجد مركزته في دولة الإسلام ووظائفه . في بنائته العامة وما حولها من مرافق .

طفل وطفلة أغنتهما الأسرة ، وعلمتهما البذل ، وتابعت مسيرتهما من المسجد إلى المدرسة ، إلى الجامعة إن كان ، إلى النجاح المهني حيث تُنال وسائل البذل . ذلك حق الولد الصالح على الوالدين الصالحين لصنع مستقبل الولد عنصراً صالحاً في محيطه .

وحق الأمة وحق الرسالة أن تكون الأسرة وامتداد نفوذها وتأثيرها في المدرسة والجامعة قد غذّت الولد منذ صباه الباكر بالقرآن والتوحيد . أول كلمة تفرحين بها تخرج من فم الصبية والصبي لا إله إلا الله . وأول جملة قل هو الله .

ثم يكون القرآن محور العملية التربوية ومورد العلم وجامع العلوم . لاسيما في السنوات التسع الأولى حين يتكون النسيج الأساسي للشخصية . هل يستوي في فرص علوق الإيمان بالقلب مَنْ غذّيه بالأغاني رضيعاً وَمَنْ ألقمهُ مع ثدي اللبن ثدي التغني بالقرآن ؟ قلت : فُرص العلوق . وإلا فالهداية الإلهية والرحمة تصيب من شاء الله كما يشاء الله .

حفظ القرآن يكون مادة أساسية في المدرسة الأساسية وما بعدها . ألم يكن ما مع المؤمنين من القرآن مقياساً للتقدم في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ؟ ألم تكن السورة يحفظها المؤمن وتحفظها المؤمنة كالوسام يفتخر به ، وكالكنز يسعى إليه ، وكالمورد يأتي الناس عطاشاً ليشربوا منه ؟ حفظت سورة البقرة حادثة ومزية تهمس بها الإسلاميات فيما بينهن اليوم ، وفي غد الإسلام إن شاء الله يكون الحفظ شرطاً للمرور والنجاح .

من القرآن يتعلم الأطفال القراءة والكتابة . ومنه يتضلعون من اللغة ، نحوها وصرفها وبلاغتها . كان التلقين التقليدي على الألواح بركة . لاشك . ومن قرعوا في الألواح وحفظوا يميزون ، لا يزالون ، بالتمكن في اللغة العربية ، لا كما يجرح اللغة ويخدش وجهها دكاترة ودكتورات ما فتحو المصحف يوماً . توضع أرقى وسائل التعليم المادية ، وتوضع الخبرة التربوية أحدث ما وصلت إليه العبقريّة العلمية في خدمة حفظ القرآن . الله أعلم ما تصير إليه الأوراق والأقلام والتهجي الأبجدي في مستقبل سيادة الحاسوب . لكن التربية القرآنية ، والمصحف كما نعرفه اليوم ، ينبغي أن تصل بين الأجيال المؤمنة لا أن تفصل .

نريد للأجيال الصالحة أن يزول ، بالعلم لا بالتطاول ، ما بينها وبين القرآن من فواصل الآثار ، لتستقي من النبع جاثية أمام منبر الرسول صلى الله عليه وسلم مباشرة نسمع وتدبر وتجتهد وتطيع . لكننا لا نريد أن تفصل الإلكترونيات السريعة الطائفة بين أجيال الصلاح وبين ذخائر الفقه وعلوم السلف الصالح رضي الله عنهم .

واضع المناهج الدراسية ، ومهندس المدرسة وبانيها ، والأمهات الحواضر ، والمعلمة المريية ، يضعون نصب أعينهم مواصفات الشخصية القرآنية المطلوب تخرجها . هذه الشخصية تنجمع فيها العلوم حول نواة العلم ، أي يوجه فيها القرآن الإنسان .

فمن الخطوات الأولى إلى مدرسة الحضارة ، وبستان البراعم ، يُعلم التهجي من آيات القرآن وسوره القصيرة . ويُعلم الحساب من عدد ركعات الصلاة ، ويُعلم ضبط الوقت من مواقيتها . وتتفرع علوم الرياضيات والهندسة في مراحل أخرى من تحول الليل والنهار ، ومن أنصباء الزكاة ، ومن فلكيات الشهور وتغير مواقيت الظهر والعصر .

آيات اختلاف الليل والنهار ومطالع الشمس والقمر مدخل لدراسة الجغرافيا . قصص الأنبياء عليهم السلام مقدمة ومعيار لدراسة التاريخ . آيات الخلق والإبداع الإلهي فتح لباب الاطلاع على الكون المرئي من ساحة الغيب . آيات النبات والثمرات والأعشاب والنخيل والرمان كتاب كامل لمعرفة جنات الدنيا وجنات الآخرة آيات الخيل والبغال والحمير والأنعام امتنان إلهي على العباد يُفضي العلم به إلى البحث في الاقتصاد وعلوم الأحياء . آيات نشأة الإنسان في الأرحام من نقطة إلى علفة مُضغّة مخلّقة وغير مُخلّقة : تذكير بالخالق ، وتَعْجيب للإنسان الذي أطفأت فيه الحضارة المادية العجائبية فطرة التعجب من وجوده . ثم هي منطلق لدراسة مقدمات علوم الأحياء والطب وتركيب الجسم وقواعد الوقاية والصحة .

في المدارس التي يديرها العقل المعاشي اللايكي شتاتٌ من مواد لا رابط بينها . كونيّات متبرّجة خلافة مشتة لا مغزى لها وراء الكون المادي . تصنع هذه الأشتات

شخصية مُعرضة عن الله مقبلة على الدنيا . ونحن نريد دراسة مخلوقات ، تركيز مفهوم الصلة بين الخالق والمخلوق ، تركيز ضرورة خالق للمخلوقات . تركيز عقلي يوطد في النفوس ما كانت التربية المبكرة غرسه عن طريق الحب الفطري والإخبار الفطري (قولوا لا إله إلا الله تفلحوا) . حديث نبوي ، خطاب فطرة كان هو شعار الرسالة سمعه العرب من فم الرسول الكريم .

إن ثقة العقل الناشئ بالكمّ والمقدار والمعيّار والقياس والتجربة والتحقيق من النتائج هي البنية السليمة للعقل الذي يراد له اكتساب علوم اليوم والغد . هذا العقل الناشئ لا يكون مسلماً فأحرى أن يكون من جند الله المُغيّرين على دنيا العلوم إن لم تكن قراءته للكون قراءة نقدية من جانب طُور الإيمان بالله الخالق ، وإن لم تكن يقظته العقلية مصحوبة مسبوقة بيقظة قلبية لا يحجب الخلقُ معها الخالق . إن لم يكن خلق الله من إنسان وحيوان ونبات وبيئة وشيء براهين دالة على الله ، وإن لم يكن احترام ما سخر الله من شيء ، والتكوين الذاتي المستمر استجابة لـ ﴿وقل رب زدني علماً﴾ ^(١) آية أنزلها الله ، وإن لم يكن تقييم سلوك النفس والغير واستشراق المستقبل خاضعاً لشرع أنزله الله ، فتربصوا حتى يأتيَ الله بأمره . لا إله إلا الله محمد رسول الله .

(١) سورة طه الآية : ١١٤ .

تربية خلق جديد

عَقَّتْ وما بَقَّتْ امرأة قامت بوظيفة جسمها كَرَّهاً ووهناً فألقت إلى الوجود أجساماً ، ولم تُؤَدِّ واجب عاطفتها وعقلها وإيمانها . أخرجت إلى الوجود جسماً جديداً ، فلما أرسلته هملاً ساءَ عملاً ، فهو غشاء بال وإن كان الجسم في ريعان الشباب .

أخبرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الله عز وجل يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها . وقرأنا في الحديث الشريف أن الإيمان يبلى في جوف الناس فيتجدد بذكر الله . رجاؤنا من الله وحاجتنا إليه أن يبعث من هذه الأجيال الصاحبة والناس نيام ، الغرباء في ديارهم ، جيلاً أوفى من جيل ، ومائة أربى من مائة حتى يملأها الإمام المهدي عدلاً بعد أن ملئت جوراً ، وحتى ينزل عيسى عليه السلام فيكسر الصليب ويحكم بشرع محمد صلى الله عليه وسلم ، وحتى يرث الله الأرض ومن عليها ، وهو خير الوارثين . ألا وإن الأحاديث ضافية ، تلك التي بشرتنا بأن طائفة من هذه الأمة لا يزالون ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله . وكان وعد الله مفعولاً .

ومن سنته تعالى أن يستبدل قومًا بقوم ، يخيس قوم بالعهد ، أو يكفرون ، فيذهب الله بهم ويأتي بقوم آخرين . ذلك بينته آياته الكريمة في مثل قوله عز من قائل : ﴿ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ ﴾ ^(١) ، وقوله : ﴿ إِنْ يَشَأْ يُكَفِّرْكُمْ أَوْ يَذْهَبْكُمْ وَيَأْتِ بِكُفْرٍ لَّهُ لَوْلَا فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ ﴾ ^(٢) ، وقوله : ﴿ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلَفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَةِ قَوْمٍ آخَرِينَ ﴾ ^(٣)

(١) سورة النساء الآية : ١٣٣ .

(٢) سورة الأنعام الآية : ٨٩ .

(٣) سورة الأنعام الآية : ١٣٣ .

خطاب عام لبني الإنسان ، لا تتخلف سنة الله محابة لقوم مؤمنين ، فهم أيضاً تحت المشيئة تخاضبهم آياته الكريمة : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (١) .

الاستبدال من سنته تعالى ، والمؤمنات والمؤمنون أسوتهم رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي عفا عن قريش راجياً أن يخرج الله من أصلايهم من يوحده الله . ما الصحوة الإسلامية إلا بعث إلهي واستبدال متدرج . فالحمد لله الذي أذهب عنا الحزن بيشائر مستقبل الإسلام ، واجبنا أن نستقبل هذا الخلق الجديد بما له على المؤمنات والمؤمنين من حق الرعاية والتربية وحسن التوجيه . ذلك أن الهداية إن كانت منه سبحانه لا من غيره ، فإنها تصيب من شاء على يد من شاء : ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾ (٢) قراراً من عندك ، ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ (٣) قدرأوسنة من عندي . الهداية والتوجيه وتربية الشخصية لها أمومة وأبوة كما لخلق الجسم أمومة وأبوة . الخلق خلق الله ، والهداية هداية الله ، لكن الأم والأب يحسان رعاية الجسد وتنشئته أو يُسيئانه فتقوى بنيته أو تضوَى ، ذلك مسؤوليتهما . ويتخذان للنفس الجديدة والعقل المتكون والقلب الفطري مأوى حاضناً فيصلح عملاً ، أو يتركانه فيرعى مع الهمل هملًا .

ذلك ما أخبر به الحديث الشريف الذي رواه الشيخان وغيرهما عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما من مولود إلا يُولد على الفطرة ثم يقول اقرءوا فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم » زاد البخاري في روايته : « فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه . كما تنتج البهيمة

(١) سورة المائدة الآية : ٥٤ .

(٢) سورة القصص الآية : ٥٦ .

(٣) سورة الشورى الآية : ٥٢ .

بهيمةً جمعاء . هل تحسونَ فيها من جدعاء ؟ . الجدعاء هي التي قطع منها عضو .
عند مسلم : « فهل تجدون فيها من جدعاء حتى تكونوا أنتم تجدونها » .

الفِطْرَةُ الخَلْقَةُ . والحديث يخبر أن المولود الجديد يولد مسلماً كاملاً الاستعداد
لتلقي العلم بالله والقبول ، إنما تتناوله تربية الأبوين الكافرين فيحرفانه عن الإسلام
ويهودانه وينصرانه ويمجسانه . أستغفر الله العظيم قبل وبعد : أو يَغَوَّثَانِهِ . قياساً على
أن التهويد والتنصير والتمجيس درجة قصوى من تحريف المولود ، فالتغويث وهو
درجة أدنى ، أهْوَنُ أن يَنَالَ وبأله المولود من فعل الأبوين . ويقاس كل مؤثر تربوي
على الأبوين في مسؤولية الحفاظ على فطرة المولودين أو تحريفها .

في رواية لمسلم : « ما من مولود يولد إلا وهو على الفطرة » . والملة الإسلام .
اندرجت مسؤولية المربين ، من والدين أساساً ، ثم مدرسة ورفقة وجامعة ، وهلمَّ
جراً إلى كل ما يخاطب العقل ويناجي السر من مؤثرات البيئة ، في مشيئة الله وقدره
إن شاء سبحانه قبض علماء أجلاء مربين سماهم في زمام اضطفائه حسن البناء
والمودودي والندوي وقطب وسائر هؤلاء الأئمة الرافعين لواء البشارة بغد الإسلام ،
المنيرين فجر الإسلام ، هذه أشعته في طلعة أجيال الصحو . تتلوها يقظة إن شاء الله
فقومة ..

ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا .
ربنا إنك رؤوف رحيم .

خلق جديد أمام أعيننا يعنه الله والحمد لله . طوبى لمن سارعت لتكون قدراً من
قدر الله ، تبرأ من مسؤولية التغويث ، لتقوم بواجبها التربوي كاملاً ، ذلك الشكر لله
على ما أنعم وهدى . واجب المؤمنة التربوي إزاء الخلق الجديد أن تستنير بالوحي
وتعمل عليه لتسير على بينة . وإلا فالشعارات المجددة تملأ الدنيا صياحاً . ما من ثورة أو
انقلاب أو تغيير حكومة أو بروز فلسفة إلا وصنع (الإنسان الجديد) بند في ميثاقها
وثمره مرجوة لبرنامجها .

فلكيلاً يكون التجديد والخلق الجديد شعاراً فارغاً ، نقرأ القرآن لنعلم ما موقع (الخلق الجديد) الذي تنوه به آيات الله من مجموع حركة الدنيا وعلوم الدنيا ، ومن مآل الأخرى وفلاح الأخرى . فرب جديد ملأ الأرض عياطاً ما له عند الله من حسن مآب .

جاء ذكر الخلق الجديد في آيتين من كتاب الله : في سورة إبراهيم وفي سورة فاطر . قال الله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ۚ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴾ (١) . جاءت الآيتان في سياق الحديث عن الأقوام الذين كذبوا الرسل ، فأهلكهم الله وأسكن الأرض من بعدهم قوماً خافوا مقامه وخافوا وعيده . استبدال الله يقوم كذبوا الرسل وهددوهم وخيروهم بين أتباع ملة الكفر أو يُخرجون ويُطردون . ما أشبه الليلة بالبارحة ! وسنة الله غادية راححة .

خاب الظالمون الجبارون في الأرض العنيدون . ويعرض القرآن الكريم علينا لوحة أخروية عن مصير الظلمة المستكبرين ومصير أذنانهم التابعين . الكل في جهنم . قال الله تعالى : ﴿ وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهْدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرٌ عَمَّا أَصَبْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ ﴾ (٢) .

التربية الجديدة للخلق الجديد ما كان اتباعاً للرسل لا اتباعاً للمستكبرين الجبارين ما كان خوفاً من مقامه سبحانه ووعيده لا خوفاً من بطش الجبارين . فالدرس من سورة إبراهيم هو أن التربية العلمية القرآنية إن هذبت العقل ونورت القلب تُكْمَلُ بالتربية الروحية ، أي التزكية التي تصقل الفطرة وتُسْكِنُ في النفس مخافة الله فيَهْوَنُ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فِي عَيْنِ جُنْدِ اللَّهِ ، وينبسط جند الله للقاء موعود الله . سنته ووعده ، واستقامة على سنن من كُذِّبُوا فصبروا ، ونصروا الله فنصروا .

(١) سورة إبراهيم الآية : ١٩ ، ٢٠ .

(٢) سورة إبراهيم الآية : ٢١ .

وفي سورة فاطر يقول الله عز وجل مخاطباً الناس جميعاً ببلاغ سنته: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ۚ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ۚ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ (١). كيف يعزّ على قدرته ويمتنع وهو سبحانه بيده ناصية كل شيء.

الآيتان توسطتا بين تبكيت المشركين الذين يجعلون مع الله آلهة أخرى يعبدونها من دونه، ويعطونها ولاهم، ويهيّمون فيها مع أنها لا تسمع دعاء ولا تستجيب لدعاء، وبين قوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ (٢). قوم جاهلون يعبدون من دون الله أوثاناً وإفكاً، هُذِّدُوا بسنة الله تقضي عليهم وتأتي بخلق جديد، وذُكِّرُوا بالمسؤولية عمّا يصيهم من نقمة الله في الدنيا والآخرة.

إلى الوعي الشامل الكامل تدعونا آيات الله لكيلا تقذِف بنا خارج مجال الإيمان عواصف المذاهب الجديدة المشركة الغافلة عن الله، الهائلة المهيّمة بأفكار العصر وتحاليله المادية الأرضية التي لا يذكر فيها خالق ولا مخلوق ولا مصير خارج التاريخ وبعد التاريخ. الدين أنين تجدد المؤمنين إيمانها بذكر الله، وتتلو آيات الله غُدْواً وعشياً وتخفظ منها ما تيسر، وتتغنى بها وتجوّد، حتى تنقشع عن سماء روحها وعن آفاق عقلها عوارض العذاب الأليم لِمُطَرِّهَا سحائب الرحمة. حتى تطرد المسلمات الكفرية الدوائية وما تتداوله حاطبات الليل من ثقافة عالمية جف منها الإيمان. وحتى تستقيم لها الوجهة سالكة في الدنيا وتعاريجها، ماضية من الدنيا للآخرة. وحتى تكون قاعدة التفكير، ومرجعية العلم، الوحي الحق، الحق الوحي، لا الفلسفات المادية التاريخية المشركة.

قال ماركس قولته وانسحب إلى جهنم، وهذرت الثورة الماركسية اللينينية هذرها التاريخي وماتت. وبقيت الفلسفة الملهدة تقول على لسان اليهودي المؤسس

(١) سورة فاطر الآيات: ١٥ - ١٧.

(٢) سورة فاطر الآية: ١٨.

« إن الدين هو أنين الكائن المضطهد ، وقلب العالم عديم الرحمة ، وحس الظروف القاسية ، إنه أفيون الشعوب » . وتتلמד السوسيولوجي والمؤرخ والمثقف عامة على القولة صراحة أو ضمناً إن لم يكن ماركسياً قحاً ، فحكم أن الدين الشعبي وما تجدد فيه من قبور ومزارات وزوايا إنما هي بحث عن حلول للمشاكل الاقتصادية المعاشية النفسية .

وحكم أن الصحوة الإسلامية نعلّة تستعملها الطبقة الفقيرة المهمشة للتخفيف من آلامها . وحكم أن الحيوية الدينية تعبير عن أزمة ، ووسيلة للتنفيس عن غمة ، والتخفيف من صدمة . إن كانت الصحوة إسلاماً ثورياً فهو والتدين الشعبي بمزاراته وقبوره تعبير واحد ، وأنين واحد ، ورفض للواقع وهروب منه .

الدين صرخة المضطهدين ، وآلية لتحريك الجماهير . والباقي خيال ومرض نفسي ، ومخدر وأفيون .

ماتت الماركسية مشروعاً ثورياً بعد أن بثت فلسفتها في شرايين عقول المثقفين مبادئ الجدلية التاريخية . كلمة (ثورة شيوعية) هي في أذن التاريخ أبرّد من يخ ما أسرع ما تراكم غبار المقت على ثورة فشلت وسقطت وتسولت الخبز بعد أن وعدت بمستقبل جديد للإنسانية ، وصنعت إنساناً جديداً في الجولاج وفي أوساط الحزب الشيوعي الرابع - كان - عند قدمي ستالين .

سقط ذلك الجديد الكاذب ، لكن الفلسفة المادية الإلحادية الدّهريّة ، باقية عاتية متلثمة أو سافرة ، تتعايش مع الثقافة الهوليودية المائعة جنباً إلى جنب في فكر من يُنازِعُكَ يا أخت الإيمان أمومة الجيل وتوجيه الجيل وتربية الجيل . وعلى الله قصد السبيل .

تربية حكيمة

قَطَعَ أبونا إبراهيم عليه السلام ووصل . أنتِ على ملته وهو لك أسوة حسنة ، تقطعين مثلما قطع وتصلين . قال الله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ۖ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يُرجِعُونَ ﴾ (١) . تبرأ من أبيه لما تبين له أنه عدو لله ، وتبرأ من قومه لما أصرروا على عبادة الأصنام . فهذا قطع ومقاطعة محرّفي الفطرة . وأعلن تعلقه بفطرته الذي سيهديه ، وجعل كلمة التوحيد وصية وتراثاً في عقبه يتوارثونها من بعده سليمة . فهذا وصل .

وأخبر الله تعالى عن كاسر الأصنام عليه السلام مقيم الفطرة قال : ﴿ وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ۖ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لربِّ الْعَالَمِينَ ۖ وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ ۖ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتَ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهاً وَاحِداً وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ۖ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (٢) .

هكذا الأبوة الصالحة ، والأمومة أيضاً : كلمة باقية في الأعقاب مورثة لسلامة الفطرة ، ما هي إنجاب جسوم فحسب . أوصى إبراهيم بنيه وأوصى يعقوب في حياته وعند وفاته . وسألهم واستشهدهم . ما أحرقت النار إبراهيم عليه السلام ، وما منعه أن يبلغ رسالة ربه ، فخص بالتبليغ وعمّ ، لذلك اختاره الله تعالى لنا أباً وسمانا

(١) سورة الزخرف الآيات : ٢٦ - ٢٨ .

(٢) سورة البقرة الآيات : ١٣٠ - ١٣٤ .

الله بما سمعنا به أبونا : ﴿ مَلَّةٌ أَيْكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمْ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلِ ﴾ (١) .
سمعنا الله ، وسمعنا أبونا في دعائه : ﴿ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا
أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ ﴾ (٢) . ودعا الأبُ عليه السلام ربه أن يبعث في ذريته رسولاً :
﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ
وَيُزَكِّيهِمْ ﴾ (٣) . فكان سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم يقول : « أنا دعوة
إبراهيم » .

فعلم إبراهيم إعادة الفطرة إلى سلامتها ، نتلو في كتاب الله وصيته ووصية
يعقوب عليهما السلام . وعلم محمد صلى الله عليه وسلم آيات الله ومنهاج التزكية
وعلم الكتاب وأسلوب الحكمة ومضمون الحكمة . وهكذا تتأسس أخت الإيمان
بالرسل عليهم السلام لتقطع بحكمة التأثير السلبي لرائدات المزارات والقبور ،
وارثات الخرافات من الجذبات والحالات ، ولتكسري أصنام التأثير الإلحادي ، ولتدفعي
من يئاز عونك في أمومة الجيل .

ما فعل المعلم الاستعماري المخلص لرسائله اللايكية ، وما فعله نسله الثقافي من
بني جلدتنا من بعده ، فَعَلَّتَهُمَا بِإِسْلَامِ الْبَنِينَ وَالْبَنَاتِ إِلَّا لِأَنَّ الْأُمُومَةَ كَانَتْ مَجْدُوعَةً
الأنف معوقة بالجهل والامية ، ولأن الأبوة كانت مشدوهة أمام الغزو الاستعماري
العسكري . وهذا أوان جهادك . ومناطق مسؤوليتك أن تقاومي الغزو الفكري المستمر
وتصلحي العمل وتصوني الفطرة .

إن نوعية الصلة في الأسرة بين الوالدين والمولودين ، وصدق التوجيه ، وحنان
المشفقة والمشفق على البنات والبنين ينبغي أن تعكس روح الولاء لله رب العالمين ،
والبراء من أعداء الله المارقين . ما لهذه الأجيال المضطربة لا تكاد تميز بين الحق والباطل ،
بين الشرك والإيمان ؟ انقطع حبل فضليه ، وتلوث بيئة فطهرها .

(١) سورة الحج الآية : ٧٨ .

(٢) سورة البقرة الآية : ١٢٨ .

(٣) سورة البقرة الآية : ١٢٩ .

وانقلبي روح الولاء والبراء إلى موطن تكميل التربية ، إلى المدرسة ؛ لتكون الصلة بين المعلمات والتلميذات ، وبين الأستاذات والطالبات صلة تأمر بالمعروف ، وتناه عن المنكر ، وتواصل بالصبر . تبعثين إلى المدرسة والكلية والمعهد نشأ حياً يحمل رسالة ، ويناقش ، وينتقد ، ويدعو ، ويشارك المشاركة الفعالة الأساسية في تغيير جو معاهد التعليم .

وتعملين - ينبغي أن تكون لك كلمتك - على أن تسود في المدرسة والمعهد والكلية الصلات النوعية بين المعلمين والمتعلمين ، محفوفة بالمودة وآداب الصحة من توفير الصغير للتكبير ، ورحمة الكبير بالصغير . « ليس منا من لم يوقر كبيرنا ويرحم صغيرنا » . حديث شريف . آباء وأمهات في المدرسة بدلاً عن أمهات البيت وآبائه .

يتعرف المعلمون على المتعلمين اسماً وأصلاً وأسرة ، ويتفقدون الأحوال ، لا يكون المتعلمون أرقاماً وملفات . لا يكون القمع والمراقبة والاستعلاء . لا تتكبر المعلمة الدكتوراة بعلمها ، فالعلماء بحق يعرفون من تواضعهم . استمالة القلوب الغضة فن ، ورفع الكلفة في نطاق الاحترام المتبادل سياسة رقيقة . والمعلم الحكيم والأستاذة الفطنة يجد عندهما الطالب والطالبة أذناً صاغية وقلباً مفتوحاً ونصيحة حكيمة في الفترات الحرجة والأزمات الطارئة . تجد الطالبة ويجد الطالب توجيهاً حكيماً ليستوعب في سلوكه العملي ما يستجد عنده من معلومات ، وليتجسن خلقه باتساع مداركه . لا كتمل الحمار يحمل أسفارا .

صناعة جيل لمستقبل حياة أمة ينبغي أن تعتمد على تحرير التلميذ والطالبة من عقدة القصور أمام أستاذ يعلم كل شيء . تنمى طاقات الجيل ويفتح الصدر ، ويفتح المجال للمناقشة والمجادلة والاحتجاج بأدب لتكبر الشخصية الحرة المسؤولة . وإلا فالقفاضة من جانب المعلمين ، والقمع السياسي من جانب الدولة ، عصاً لا تربى إلا الحمير . وعلى رأس الضارب تعود الضربة .

« إنما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين » . حديث شريف . ﴿ ادع إلى سبيل

ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادهم بالتي هي أحسن ﴿١﴾ . قرآن كريم .

قرأنا الحكمة مُجَمَّلة في وصية إبراهيم ويعقوب عليهما السلام ، ونقرأها مفصلة في وصية لقمان ، عبد آتاه الله الحكمة ، فهي تتلى في كتاب الله عشرَ وصايا : يا بني لا تشرك بالله ، والوصية بالوالدين ، ومراقبة الله عز وجل ، والصلاة ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والصبر على المصائب ، والتواضع للخلق لأن الله لا يحب كل مختال فخور ، والقصد في المشي ، والغض من الصوت لتكون يا بني من عباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً . إن لم تكن من عباد الرحمن وترفع الصوت افتخاراً وتعصباً فإن أنكر الأصوات لصوت الحمير .

قرأنا الحكمة التربوية مجملة ومفصلة ، ونقرأها مطبقة في عمل سيد الحكماء محمد صلى الله عليه وسلم . تقرئينها لتعضي عليها بالنواجز ، وتتخذينها ديناً لتقطعي آثار العلم الاستحماري المخلص ، وآثار ما يفعله المخلصون للطاغوت ضعفين من بنات جلدتنا وبنيتها ، ولتصلحي ما يفعله إخوة يوسف يوسف يلقون الجليل في غيابات الحب . الحكمة حنان ومجبة ورفق بالجيل .

روى الشيخان وأصحاب السنن عن أبي هريرة قال : « قَبْلَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ ، وَعِنْدَهُ الْأَقْرَعُ بْنُ حَابِسٍ التَّمِيمِي . فَقَالَ الْأَقْرَعُ : إِنَّ لِي عَشْرَةَ مِنَ الْوَلَدِ مَا قَبِلْتُ مِنْهُمْ أَحَدًا . فَنَظَرَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، ثُمَّ قَالَ : مَنْ لَا يَرْحَمُ لَا يُرْحَمُ » . وَقَالَتْ أُمْنَى عَائِشَةُ : جَاءَ أَعْرَابِي إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ : إِنَّكُمْ تَقْبَلُونَ الصَّبِيَّانَ وَلَا تَقْبَلُهُمْ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « أَوْ أَمْلِكُ لَكَ أَنْ نَزَعَ اللَّهُ الرَّحْمَةَ مِنْ قَلْبِكَ » . أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ .

وصى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من عال جاريتين حتى تبلغاً جاء

يوم القيامة أنا وهو . وضم أصابعه . رواه مسلم عن أنس . ووصى صلى الله عليه وسلم قال : « ما نَحَلَ والدٌ ولداً من نَحْلٍ أفضلَ من أدبٍ حسنٍ » . حديث مرسل رواه الترمذي عن سعيد بن العاص رحمه الله .

رحمة مؤدبة قست قلوب وكتلت عقول عن بذلها لَمَّا نزع الله الرحمة من القلوب والحكمة من العقول . كان للأقرع أليف الجاهلية الأولى عشر من الولد . ومعنا اليوم بين ظهرانينا ولَدٌ غثائي كثير مغطوس هو والوالدان في مجتمع الكراهية والبؤس ، فما في قلب الأمهات البائسات من بقايا الفطرة الرحيمة يثنّ مَوْجِعاً . وما من حكمة ينطق بها ناطق مخافة سَلَى السنة جِداد فقيهة ومتفقهة تقول : تحديد النسل حرام ، ومؤامرة من أعداء الإسلام لقطع نسل المسلمين . لو كان لنا من الفقهاء مربون ومن المال بسطة ، ليكثر نسلنا كما ويصلح نوعاً ثم لا تعوض الأمومة المربية أبداً .

أمهات بائسات مكشرات لهن أنين ، وأخريات مترفات ينتظرن مصير الأم الغريبة والأب الغربي إن كان بقي ثم للأمومة والأبوة وجود ومعنى . تربي الشقراء والسمرء كلباً يضربه المخص فتتوجع ، وتعرّج سلحفاة البيت فيؤرقها الألم على بنتها وتدخل البيت فتناغي السمكة الحمراء بعد أن ودعتها خارجة .

يا حكمة الله

حب البنين والبنات واللطف بهم ونحلهم النحلة - وهي العطية - الحسن سنة مؤكدة . قال البراء بن عازب : « رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم والحسن بن عليّ على عاتقه يقول : اللهم إني أحبه فأحبه » . رواه الشيخان والترمذي . وعند الترمذي عن عبد الله بن عباس قال : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم حاملاً الحسن بن عليّ على عاتقه : فقال رجل : نعم المركب ركبت يا غلام فقال النبي صلى الله عليه وسلم : ونعم الراكب هو » . وأخرج الشيخان عن أبي هريرة قال : « خرجت مع النبي صلى الله عليه وسلم في طائفة من النهار ، لا يكلمني ولا أكلمه حتى جاء سوق بني قينقاع . ثم انصرف حتى أتى مخبأ فاطمة (مخدعها وبيتها)

فقال : أَمْ لَكُمْ ؟ (لكع اسم تصغير وتحبب ورحمة) - يعني حسناً - فظننا أنه إنما تحبسه أمه لأن تغسله أو تلبسه السَّخَابَ (قلادة من قرنفل ونحوه) . فلم يلبث أن جاء يسعى حتى اعتنق كل واحد منها صاحبه . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اللهم إني أحبه فأحبه وأحب من يحبه .

وحدث أسامة حِبُّ رسول الله صلى الله عليه وسلم وربيب بيته قال : « طرقت النبي صلى الله عليه وسلم ذات ليلة في بعض الحاجة ، فخرج النبي صلى الله عليه وسلم وهو مشتمل على شيء لا أدري ما هو (أي حمل ذلك الشيء وخباؤه تحت شملته التي تُلَفُّ جسمه) . فلما فرغت من حاجتي قلت : ما هذا الذي أنت مشتمل عليه ؟ فكشفه فإذا حسن وحسين على وركيه . فقال : هذان ابناي وابنا ابنتي . اللهم إني أحبهما فأحبهما وأحب من يحبهما » . رواه الترمذي . وروي عن يعلى بن مرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « حسين مني وأنا من حسين . أحب الله من أحب حسيناً . حسين سبط من الأسباط » .

وروى الشيخان وغيرهما عن أبي قتادة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يصلي وهو حامل أمّانة بنت زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم من زوجها أبي العاص بن ربيعة . فإذا سجد وضعها وإذا قام حملها .

غاية ما يكون العبد في ذكر ربه أثناء الصلاة . لا يستطيع أحدنا أن يقبل على ربه والصبية المحبوبة على عاتقه . لكن فعل ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم - وهو أتقى الناس - لينظر ناظر أي مرقى ترقاه البنات . وروى البخاري عن أسامة بن زيد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأخذني فيقعدهني على فخذه ، ويقعد الحسن ابن علي على فخذه الآخر . ثم يضمنا ، ثم يقول : « اللهم ارحمهما فإني أرحمهما » .

اللهم ربنا آتنا من لدنك رحمة وهب لنا من أمرنا رشداً . وآتانا حكمة

تربية واقية

قال الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاطٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ (١) .

تحذير من المولى عز وجل وتكليف وتخويف . لا يد لأحد يوم العرض بوقاية أحد من بض الملائكة الغلاط الشداد ومن بطش ربنا الشديد إلا شفاعة محمد صلى الله عليه وسلم أو شفاعة رسول ونبي وصالح وصالحة من المؤمنين . الوقاية من فعل ما يبعد من الله ويُقرب من غضب الله يكون إبانها يومئذ قد فات . إبانها هنا في الدنيا . ووسيلتها التربية على الاستقامة وحفظ الأمانة التي أودعها الله عز وجل بين أيدينا من هذه المولودات التي خلقها على الفطرة ونسب إلينا مسؤولية ما يصيب الفطرة من تشوه وانحراف من جراء إهمالنا .

يقول الإمام الغزالي رحمه الله في الإحياء : « اعلم أن الطريق في رياضة الصبيان من أهم الأمور وأوكدّها . والصبي أمانة عند الدية . وقلبه الطاهر جوهرة نفيسة ساذجة (أي سليمة صافية بريئة) خالية من كل نقش وصورة . وهو قابل لكل ما نُقش ، ومائل إلى كل ما يُمال به إليه . فإن عود الخير وعلمه نشأ عليه ، وسعد في الدنيا والآخرة ، وشاركه في ثوابه أبواه وكل معلم له ومؤدّب » .

قلت : شاركه في ثوابه حيث أصلح فيه عملاً فكاننا سبب استقامته بما هدانا ورينا ، ثم يجنيان ثواباً لا ينقطع بدعائه ودعاء من بعد من ذرية صالحة حسية أو معنوية تدعو الله تقول : ﴿ ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ﴾ (٢) . المعلمة والمعلم أبوان للروح وانعنى .

(١) سورة التحريم الآية : ٦ .

(٢) سورة الحشر الآية : ١٠ .

قال الإمام رحمه الله : « وإن عود الشرِّ وأهمل إهمال البهائم شقي وهلك ، وكان الوزر في رقبة القيمِّ عليه والوالي له . وقد قال الله عز وجل : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِكُمْ نَارًا ﴾ . ومهما كان الأدب يصونه عن نار الدنيا ، فلأنَّ يصونه عن نار الآخرة أولى . وصيانته بأن يؤدبه ويهذبه ويعلمه محاسن الأخلاق ، ويحفظه من القراء السوء . ولا يعودّه التَّعَمُّ ، ولا يحجب إليه الزينة وأسباب الرفاهية فيضيع عمره في طلبها إذا كبر فيهلك هلاك الأبد » .

قال رحمه الله : « بل ينبغي أن يراقبه من أول أمره ، فلا يستعمل في حضائنه وإرضاعه إلا امرأةً صالحةً متدينةً تأكل الحلال . فإن اللهن الحاصل من الحرام لا بركة فيه . فإذا وقع عليه نشوء الصبي انعجت طينته من الخبث ، فيميل طبعه إلى ما يناسب الخبائث » .

قلت : من يتكلم في زمننا عن الشبهة واللقمة الحرام ؟ عمت الفتنة المجال السياسي والاجتماعي والمعاشي ، فالدرهم درهم وكفى . والطين البشري انعجن بالموجود . وقانا الله الشر ، وصنع لنا حتى يتميز الخبيث والطيب ، ورزقنا حلالا .

أكل الخبيث ومخالطة الخبثاء . كلاهما تغذية لنفوس الصغار والكبار بالسموم المهلكة . يقول الإمام رحمه الله يحث على استنكار السلوك المنحرف وذمه وحفظ الصبي منه بحفظه : « عن مخالطة كل من يسمعه ما يرغبه فيه . فإن الصبي مهما أهمل في ابتداء نشوئه خرج في الأغلب رديء الأخلاق كذاباً حسوداً سروقاً تماماً لحوحاً ذا فضول وضحك وكيد ومجانة . وإنما يحفظ عن جميع ذلك بحسن التأديب ، ثم يشغل في المكتب ، فيتعلم القرآن وأحاديث الأخبار وحكايات الأبرار وأحوالهم لينغرس في نفسه حب الصالحين . ويحفظ من الأشعار التي فيها ذكر العشق وأهله . ويحفظ من مخالطة الأدباء الذين يزعمون أن ذلك من الظرف ورقة الطبع . فإن ذلك يغرس في قلوب الصبيان بذر الفساد » .

تَرْجَمِي أُنَحْتَ الْإِيمَانَ التَّريبة الوقائية الغزالية إلى لغة العصر وأقرئي حفظ الصبيان
والغلمان والفتيان من تيار الإباحية . وأقرئي ضرورة تعويض الأدب المنحل والشعر
المعتل بأدب إسلامي يُذكر فيه الصالحون والصالحات من النماذج لا هذه القصص
والروايات المائعة التي تُفحش أشدَّ الفُحش فتصفق لها من أرض الفحشاء أكاديميات
تضع الأكاليل والجوائز على جبهة الفنان الأدبي العبقري من بني جلدتنا ، ويُترجم
هوَّسه إلى عشر لغات .

قال الإمام رحمه الله : « ثم مهما ظهر من الصبي خلق جميل وفعل محمود
فينبغي أن يُكرَّم عليه ويُجازى عليه بما يفرح به . ويُمدَّح بين أظهر الناس » .

قلت : وها قد وضعنا الغزالي على ناصية الطريق في (رياضة الصبيان) .
الترويض معالجة العضو الحي ، والغصن اللين ليستقيم على شكل نرتضيه . لا يبقى
حيّاً ليناً غصن أصابه الحريق فتخشب وتفتح ، أو أصابته الجراثيم فاهترأ .

يُسجِّع الصبيان والغلمان والفتيات على كل حميد من الخلق وجميل من الأفعال
مما يقربهم إلى الله ويعددهم من غضب الله . الصلاة ، والقرآن ، والرحمة بالضعيف
والنظافة ، والصدق ، والحياء . الحياء أبو الفضائل ، الحياء من أهم شعب الإيمان .
الحياء وقاية ذات حدّين : حياء من الله وانكماش عن فعل يكرهه الله ، وحياء توقير
واحترام وأدب ولياقة . فتلك الفضائل . أو ينقلب الحياء على صاحبه فتصبح العافية
داءً ، وذلك الخجل ، قاتل الفضائل .

يربي الصبيان والناشئون على حب الله ، والحب في الله ، والبغض في الله ،
والشجاعة في الحق ، ونصرة المظلوم ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، والعزة
على الكافرين تزيينها الذلة على المؤمنين ، وذكر الله المستديم ، ودعاؤه سبحانه ،
والتوكل عليه إقداماً وعملاً جاداً ، وامتلاك النفس عند الغضب ، وحفظ اللسان .
إلى سائر شعب الإيمان ومنورات الإحسان .

تلك نبذة من الوقاية النفسية القلبية الروحية ليُحفظ النشء من بطش الملائكة الغلاظ الشداد يوم القيامة . والوقاية الجسدية حفظ للأرض التي تُنمى فيها الغرسة . إن مَرَضَ الجسم ، وأُهْمِلَ ، وضربته العاهات ، فماذا تربيْن ؟ من الأمهات من يرعين الجسم أحسن رعاية ويتركن تربية النفس والخلق لغيرهن جهلاً أو تجاهلاً ، أو بمنطق التكاثر الغثائي ، ما لها وقت ولا قدرة على بذل غير الضروري لحياة الأجسام وبقاءها من غسل وتغذية وكدح لكسب لقمة العيش .

ومن الأمهات من لهن مال ووقت ، لكن مَوَاتَ الإيمان في قلوبهن ، واكتساب الإنسانية في نفوسهن ، يؤدي بهن إلى إهمال التربية الخلقية الإيمانية في النشء ، فيُهمل إهمال البهائم .

للوَاقاية الجسمية مكانها وأهميتها . تواكب الصحة الجسدية الصحة النفسية القلبية ، أو يقع اعتلال النفس لاعتلال البدن . كما تتعاون الأمهات المؤمنات في مجال الدعوة ، يتعاونن في مجال تنشئة الصبيان . المنقطعة من الأمهات لا تجري إلى بيتها روافد المعرفة وفوائد التجربة . تقتني المعرفة ممن سبقنها بأمانة ، وتحضر مجالس خاصة ، ومحاضرات . وتقتني كتباً ومجلات لتكون مطلعة على أعلى مستوى مما تصل إليه الخبرة البشرية في علوم طب الأطفال وفن تربية الأطفال . فذلك قدرٌ مشترك بين أمهات العالم . أعني تعهد الجسم وتطبيبه . وأعني مشاركة الأمهات المؤمنات وإطلاعهن على الأمور التطبيقية العملية ، لا أن يصحن في مرتبة الطببة المتخصصة التي ينبغي أن تفضل في كل جلسة إيمانية تحضرها ببذل بعض ما عندها من علم .

صحبة بين أمهات ، وطبيبة ناصحة من الأخوات المؤمنات ، وكتب ومجلات ، ليكون الحمل ووَحمه وغذاء الحامل وراحتها وغثيانها وتوعكاتها مما تعلمه الأم الجديدة لا مما تتوهمه وتتوَجس منه خيفة . وليكون الوضع وآلامه والعناية الأولى بالمولود أوضاعاً تدربت عليها . ثم ليكون الرضاع طبيعياً ، والتلقيحات الطبية في

مواقبتها مضبوطة ، ثم لتعلم الأم الأهمية القصوى لنظافة حواس المولود وأعضائه ولباسه وأواني غذائه ومضجعه وملعبه ولعبه .

تصاحب الأم نمو المولود ، وتراقب حركاته وهو يحبو ، وجسمه ينمو ، وعقله يتكون ، ولسانه ينطلق . لقنيه لا إله إلا الله لتكون أول ما يلفظ به عسى بركتها تجري عليه مدى عمره .

تراقب الأم سلوك الطفل وعوارض مرضه لتتدخل الطبية المختصة إن كانت الأم طبيبة البيت قد تجاوزتها الأحداث .

تعود الصبي نظافة الأسنان من لدن قيامها بذلك عنه يوم بروزها إلى أن يستقل بتسويك نفسه مستقلاً ، وتلك سنة نبوية مؤكدة أشد التأكيد ، من تخلى عنها صغيراً أو كبيراً تلفت مع أسنانه صحته ، وتأذى من بخره الملائكة والناس .

النظافة المبكرة تنتظر الأم أن يحملها عنها المولود حملاً متدرجاً . فإذا بلغ السابعة فالطهارة والوضوء والصلاة ترغيباً وتحبباً . وقاية الجسم مع وقاية الروح تجتمع قاس أطباء فرنسيون المياه التي تفاض على الجسم في وضوء المسلمين ثلاث مرات ، فوجدوا أن الغسلة الثالثة لا تبقي من الجراثيم شيئاً . وما يخرج الوضوء من خطايا النفس لا يقع تحت مجهر الأطباء . ويخبر عنه الوحي من كلام النبوة . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه : « رأيتم لو أن نهراً بباب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمس مرات ما تقولون ذلك يقي من درنه ؟ قالوا : لا يقي من درنه (وسخه) شيئاً . قال : فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بها الخطايا » . رواه الشيخان وغيرهما عن أبي هريرة .

درن حسي يغسل في النهر مثل به رسول الله صلى الله عليه وسلم لدرن القلوب يغسلها الوضوء وتغسلها الصلاة .

تراقب الأم مولودها مراقبة دقيقة بعناية ودراية . المحبة بلا دراية كساع إلى

الحرب بلا سلاح . ومن لا دراية له ولا محبة فتوكيله على الأطفال كتوكيل الثعلب على الدجاج . الأطفال في أيدي الخدم كارثة . ومن أنواع الخدم المأجورين محاضن ربحية تغدو الموظفة الكادحة بفلذات كبدها إليها لما ترى من زخرفة الإعلانات ولباس (المربيات) ولعب الساحة . من أهم ما تندب إليه المؤمنات أنفسهن إنشاء محاضن تعمل فيها أمهات متطوعات صالحات يصلح حضورهن ومراقبتهن ومثال إخلاصهن وإشعاع إيمانهن ما تميل الأيدي الأجيرة لإهماله وإفساده .

ومن أهم ما تندب الأمهات الصالحات والآباء الصالحون إليه أنفسهم إنشاء جمعيات من الطبيبات المحسنات والأطباء والفضلاء لرعاية الشباب وتوجيهه في طور المراهقة . طور يحتاج فيه الشاب وتحتاج الشابة من ينصح ويزود بمعلومات دقيقة عن كنه الثورة الجسدية وانقلاب الكيان البيولوجي . يحول الخجل وتحول العادة دون تلقين الأبوين معرفة البلوغ والمراهقة ومشاكلها . فالجمعيات الطوعية تنوب فيها أم عن أم في ترشيد البنات ، وينوب أب عن أب في ترشيد الابن . ثم الكتب يؤلفها الطبيب المؤمن وتوضع في يد المراهقين تيسر وتبصر . من مآسي غياب التربية الجنسية الوقائية فظائع الزفاف . كان يغني عن المآسي كتاب ، إن كنتم العلم مجرب وعز ناصح وخجل الطالب والمطلوب .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

الفصل الخامس

حظ المؤمنات من الجهاد تعبئة أمة

* خير نساء طلعت عليهن الشمس

* مجاهدات

* راعية ومسؤولة

* جدال فقهى

* أطوع الناس فى الناس

* بنو آدم الخطأون التوابون

* دعوا لى أصحابى

* خشية الله ومحبة رسول الله

* بسط الدنيا

* دروس تربوية

* خاتمة

خير نساء طلعت عليهن الشمس

لِمَ الالتفات إلى الرءاء والتقدم خط مستقيم ، والإنسان يتطور من المجتمع البدائي إلى ... سؤال واعتراض تورده كل نفس حيوانية سكنت في جسد بشري . انتهى الرقي الحضاري في نظر هذه النفوس إلى زمن يحكمه المال والاقتصاد والحركة السريعة للتكنولوجيا الإله صنعها العقل الإله ، فقيم ذِكرُ أولئك القوم البسطاء البدويون البدائيون ؟

لو كانت الدنيا محط الرجال ، والرفاهية المادية هي الغاية التي من أجلها وجد الإنسان لكان النموذج راقصة حسناء مغنية في عواصم الغرب تعبد بها الجماهير ، وتنهال عليها الأموال ، وتحظى بالاحترام ، وتنعم بملذات الحياة تعبها عباً . أما الإنسان أوجده غيره ، ما وجد من ذاته . أما والراقصة الممثلة الناعمة تنتحر يوماً بعد أن شربت كأس الحياة حتى الثمالة فكرهت الحياة ، أما والحضارة الصانعة آلة عملاقة تدير الإنسان حول أصبعها من حيث يظن هو أنه المحرك ، أما والتقدم الخطي يفقد الإنسان معناه كلما تقدم به منطق الآلة ، فإن النموذج المادي المتمثل في بنت رائعة المظهر من بنات الدنيا ، متخمة من لذات الدنيا ، إنما هو مثال لتقهقر الإنسان ، وشقاء الإنسان بمكتسباته المادية .

الإنسان المثال يُبحث عنه بين من تلقوا العلم بما هو الإنسان من أناسي ليسوا كسائر بني الإنسان ، هم الرسل عليهم السلام ، خلفاء الله ، أحياء الله ، خير بشر طلعت عليه الشمس . يبحث عن النموذج المثال بين من تلقوا من رسل الله العلم بأن الروح تبقى بعد الموت خالدة ، تحشر في نشأة أخرى ، وتبعث ، وتعرض ، وتجزى ، فتخلد في الجنة على درجة من الكمال ، أو تلقى في النار حصصاً لها وحطبا .

إلى النماذج الكاملة من بنات البشر تشرئب أعناق المؤمنين ، وإلى جهاد يلحقهن بهن - على درجة من الكمال - يتعبان ويعبثن أجيالا . باحتذاء النماذج الأكمل ، وهم الرسل عليهم السلام ، وبصحبتهم والاتصال بهم أمهات وزوجات

وبنات ، نالت مريم وآسية وخديجة وفاطمة وعائشة كمالهن . أفان كانت تلك الكواكب يَخْتَرِفْنَ من تَمَرِ النخل طعاماً ، وتعتبر إحداهن مدين من الشعير مَادَبَةً ، وَيَسْكُنُ بيوتاً يقف الغلام فتبلغ يده سقفاها ، ويلبسن الخشن ، ويركبن الإبل لا الطائرات والصواريخ ، يطغى علينا الميزان المادي فنطرح في الاعتبار الإيمان بالله وباليوم الآخر ، وطهارة القلوب وسمو الخلق ، والقرب من الله عز وجل وهو غاية الغايات ؟

إلى النماذج الكاملة تشرب أعناق المؤمنين . إلى مريم ابنة عمران وصويجاتها في مقعد صدق عند مليك مقتدر . وإلى الأكمليين المرسلين ترنو أعين المؤمنين والمؤمنين ، تتعلم الأجيال أن تقتحم ، سباقاً مع أبناء الدنيا ، عقبات كسب القوة في الدنيا ، وعين القلب على من جعلهم الله لنا أسوة . تلك التبعية الجهادية وحدها تعرّ بها الأمة ، ويشرف بها مثنوى المؤمنين والمؤمنات في جنات ونهر في مقعد صدق عند مليك مقتدر . اللهم ألحقنا بالصالحين .

ذكر رسول الله عيسى عليه السلام في القرآن خمساً وعشرين مرة : تسع مرات باسمه المجرد ، وست عشرة مرة بنسبته إلى مريم . عيسى ابن مريم عليه السلام رسول المعجزات الخارقة . يُرَى الأكمه والأبرص ويحيى الموتى وينفخ في حياة طير من الطين فيكون طائراً . كل ذلك يأذن الله ، وجرياً على سنة الله في تأييد رسله بالمعجزات . وأعظم معجزات سيدنا عيسى عليه السلام ميلاده : وضعت أم معجزة ، أم عذراء ، عذراء ناداها الملك كما ينادي الأنبياء ، وبشرها كما يبشرهم ، ونفخ الله فيها من روحه كما نفخ في آدم خليفته في الأرض .

مريم هبة الله لعمران وامرأة عمران ، صالحان أنجبا صالحة . وكفلها الأصلاح سيدنا زكرياء عليه السلام . ﴿ كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقاً ﴾ ^(١) طفلة كانت والكرامات تظهر على يدها ، أعظمهن لزومها المحراب والعبادة .

(١) سورة آل عمران الآية : ٣٧ .

مريم المحراب ، مريم الطهر ، مريم نجية الملائكة ، مريم المصدقة بكلمات ربها وكتابه ، مريم القانتة . ﴿ إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين ۚ يا مريم اقنتي لربك واسجدي واركعي مع الراكعين ﴾ (١) .

ذهب بعض أهل العلم إلى أنها نبية . والمهم أن تعلم النساء ، وتوقن المؤمنات ، أن الله عز وجل كما يصطفى من الرجال عباداً يصطفى من النساء إماء ، وأن باب كرمه مفتوح للمرأة كما هو مفتوح للرجل ، وأن طاعته سبحانه وعبادته والقنوت إليه والجهاد في سبيله هي الأعمال التي تشرف بها المرأة ويشرف الرجل لأنها أعمال خالدة ، تموت الحضارات ويبعث الخلق فرادى ما يجدون عند مولاهم إلا ما قدموا .

طاهرة مصطفاة أخرى أخرجه الله عز وجل من بين فرث ودم لتعلم المؤمنات أن الصلاح الأخروي ما هو وقف على من ولدن صالحان وكفلن أصلح وتزوجهن رسول . هي امرأة فرعون . ذكرت في القرآن بحبيبتها في بيت جبار ، لم تذكر باسمها . كافر متأله مفسد في الأرض عالي فيها ، ما ضر امرأته فجوره وإجرامه . كذلك المؤمنة ، عاشت في كنف صالحين ، في زمن صالح ، أو نشأت في عصر سادت دنياه حضارة مجرمة ، لا يرفعها ولا يحطها إلا عملها .

رقت امرأة فرعون للصبي موسى لما ألقى به اليم والتقطه آل فرعون . ﴿ وقالت امرأة فرعون قرة عين لي ولك لا تقتلوه ﴾ (٢) . ونجا موسى الصبي ، وكبر موسى الغلام في بيت عدو الله . ربه وربة الله ورحمته ، وتعلمت من موسى النبي الرسول كلمة الهدى ودين الحق كما تعلم ذلك منه بعض آل فرعون . وضرب الله بها مثلاً للمؤمنات كما ضرب مثلاً بمریم . ﴿ وضرب الله مثلاً للذين آمنوا امرأة فرعون إذ قالت رب ابن لي عندك بيتاً في الجنة ونجني من فرعون وعمله ونجني من

(١) سورة آل عمران الآيات : ٤٢ - ٤٣ .

(٢) سورة القصص الآية : ٩ .

القوم الظالمين . ومريم ابنة عمران التي أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا وصدقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين ﴿١﴾ .

السلامة

إن لم يُذكر في القرآن من الكمالات غير مريم وآسية ، فقد ذُكر الوحي على لسان محمد صلى الله عليه وسلم نماذج كاملة ليعلم الكل أن الاصطفاء الإلهي متصل ، بل بلغ الاصطفاء قمته مع قمة الرسل عليهم السلام : يمسك بيده الشريفة المصطفاة خديجة فيقول : « خير نسائها مريم بنت عمران وخير نسائها خديجة بنت خويلد » . رواه الشيخان والترمذي عن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه .

وما لها أمنا خديجة لا تكون خير نساء العالمين وهي آمنت حين كفر الناس ، ونصرت حين خذلوا ، وحمت حين أسلموا بشرها رسول الله صلى الله عليه وسلم بيت في الجنة من قصب (لؤلؤ) لا تعب فيه ولا نصب . قال أبو هريرة : أتى جبريل عليه السلام إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : « يا رسول الله هذه خديجة قد أتت معها إناء فيه إدام ، أو طعام أو شراب . فإذا هي أتتك فاقرأ عليها السلام من ربها ومني ، وبشرها ببيت في الجنة من قصب ، لا صخب فيه ولا نصب » . أخرجه البخاري ومسلم . الله أكبر أيهما أغلى وأحلى : بيت عند الرب ، أم تحية السلام من الرب .

حفظ رسول الله صلى الله عليه وسلم عهدها بعد موتها . قالت عائشة : « ما غرت على أحد من نساء النبي صلى الله عليه وسلم ما غرت على خديجة قط ، وما رأيتها قط ، ولكن كان يكثر ذكرها . وربما ذبح الشاة ، ثم يقطعها أعضاء ، ثم يبعثها في صدائق خديجة . وربما قلت له : كأنه لم يكن في الدنيا امرأة إلا خديجة فيقول : إنها كانت ، وكانت ، وكان لي منها ولد » . رواه الشيخان والترمذي .

أحب الناس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ولدت له أحب الناس إليه ، وأكرمهن عليه ، سيدة النساء فاطمة رضي الله عنها . قال جميع بن عُمير

(١) سورة التوحيد الآية ١١ - ١٢ .

التيحي: « دخلت مع عمتي على عائشة فسئلت: أي الناس كان أحب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قالت: فاطمة. قيل: ومن الرجال؟ قالت: زوجها. إن كان - ما علمت - صوماً قواماً ». أخرجه الترمذي والحاكم وصححه. وروى الترمذي عن بريدة رضي الله عنه قال: « كان أحب الناس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فاطمة، ومن الرجال علي ».

سيدتنا فاطمة عليها السلام سيدة نساء الجنة. جاء بالبشرى مبعوث خاص لتسمع المرأة الخاصة قول النبي صلى الله عليه وسلم: « هذا ملك نزل من السماء، لم ينزل الأرض قط قبل هذه الليلة. استأذن ربه أن يسلم عليّ ويبشّرني أن فاطمة سيدة نساء أهل الجنة. وأن الحسن والحسين سيّدا شباب أهل الجنة ». الحديث. أخرجه الترمذي عن حذيفة رضي الله عنه.

يغضب لها رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويخصها بالترحيب ويضمها ويقبلها ويقول: فاطمة بضعة مني أي قطعة مني. وفي فراش الموت يتהלّل وجهه الشريف، ويستبشر بقدمها، ويسر إليها كلاماً فتبكي، ثم يسر إليها آخر فتضحك سألتها عائشة ما كان أسرّ إليها فكان مما أخبرتها به أنه قال: « أما ترضين أن تكوني سيدة نساء أهل الجنة، وأنت أول أهلي لحوقاً بي؟ ». الحديث. رواه الشيخان عن عائشة رضي الله عنها.

عائشة المدللة في الدنيا، المحبوبة، المبشرة بالبشارات العظمى يدخل عليها وهي في فراش الموت سيدنا عبد الله بن عباس رضي الله عنهما فيجد امرأة تخاف الله رب العالمين. يسألها: كيف تجدينك؟ قالت: بخير إن اتقيت الله. قال: فأنت بخير إن شاء الله. زوجة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولم ينكح بكرةً غيرك، ونزل عذرُك من السماء. ويزورها في مرضها بعد ابن عباس عبد الله بن الزبير فتشكو إليه قائلة: « دخل عليّ ابن عباس فأثنى عليّ، ووَدِدْتُ أنّي كنت نسياً منسياً ». الحديث. رواه البخاري عن ابن أبي مليكة.

قائنة خائفة من ربها إلى آخر رمق . ما بطّرت بنعم ربها عليها ، فتتكل على مكانتها من حبيب الله صلى الله عليه وسلم . إنما زادها القرب من الله ورسوله خوفاً وحزناً على تقصيرها في ذات الله ، شأن الصالحين . روى عنها الشيخان وأبو داود والترمذي قالت : « قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً : يا عائش ، هذا جبريل يُقرئك السلام . قلت : وعليه السلام ورحمة الله وبركاته . قالت : وهو يرى ما لا أرى : تريد رسول الله صلى الله عليه وسلم » .

وروى الشيخان والترمذي عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال : « كمل من الرجال كثير ، ولم يكمل من النساء إلا مريم بنت عمران وآسية امرأة فرعون . وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام » . الثريد : الخبز واللحم ، الطعام المفضل عند العرب .

عائشة التقية النقية أفضل النساء ، كانت أيضاً من أكبر العلماء . قال أبو موسى الأشعري رضي الله عنه : « ما أشكل علينا - أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم - حديث قط فسالنا عائشة إلا وجدنا عندها منه علماً » . رواه الترمذي بسند حسن صحيح . وروي بسند صحيح عن عمرو بن العاص قال : « قيل : يا رسول الله من أحب الناس إليك ؟ قال : عائشة . قيل : ومن الرجال ؟ قال : أبوها » . لا يزاحم حب عائشة وأبي بكر حب فاطمة وعلي . فازوا والله جميعاً وسعدوا .

الحقنا الله بهم مسلمين صالحين

مجاهدات

مشكلة الأذكىاء المخلصين لوطنهم الغرباء عن دينهم الغربيين من الديمقراطيين والديمقراطيات هي : كيف يوظفون الزخم الإسلامي ليعبثوا الناس في مشروعاتهم اللابيكية ؟ . سؤالهم هو : كيف ننقذ سلبيات الحداثة كما ينقذها الإسلاميون ، وكيف نشيد بالتراث والأصالة والهوية ، وكيف نُجلب الديمقراطية في الوطن دون أن تسرق منا الشورى ومشروعها اللابيكية المقدسة ، اللابيكية ضمان الحرية ؟ الحرية الحياة ، الحرية السعادة .

سؤالنا نحن هو : كيف نركب الكواكب الفضائية ونصنعها بما هي آلة من آلات القوة ، وكيف نتقي الله ونخافه ونعبده لنلحق في عالم الروح وفي رحاب الجنة براكيات الإبل آكلات التمر لابسات الصوف ؟ وجهتا نظر متقابلتين : ﴿ منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ﴾ (١) .

سؤال المؤمنين وإشكاليتهن : كيف وبِم تعبأت الصحابيات فجاهدن في سبيل الله في ساحة القتال جنباً إلى جنب مع الأبطال ؟ إن عرفنا سر تلك التعبئة الجليلة ربما كان أهون علينا أن نجاهد جهاداً لا دماء فيه تسيل . وهل الإسلام وصفة بمذاق الدم .

إن عثر المؤمنات على سر التربية الأولى التي أنتجت ذلك الانقلاع العظيم عن الدنيا وذلك الإقبال الكلي على الله اقتنعن بهوان كل مطلب ما دون قرب الله ووجه الله . وعندئذ يقنعن الخلق المغرور المجرور بالحداثة وإليها أن تحاكم الحداثة إلى الإسلام وأن يُطرح عليها السؤال من وجهة نظر الإسلام ، وأن تنتقد الحداثة بمقياس الإسلام . لا يحاكم الإسلام إلى الحداثة . لا تُفرغ الشورى من مضمونها الإيمانى لتباع بضاعة مزيفة في سوق الديمقراطيات . لا يكذب الحاكم الجبري والأحزاب الذكية على الإسلام ليستغلوا زخم الإسلام .

(١) سورة آل عمران الآية : ١٥٢ .

ضمن السؤال عن سر التعبئة الصحابية أسئلة واجب المؤسسات في بناء أداة حكم ونظام حكم مستقر على القواعد الإسلامية . أي يكون الحكم فيه للشعب لا للسيف يكون فيه الاختيار بشورى بين المؤمنين ، الرجل والمرأة فيها سواء ، لا بأشكال ديموقراطية أفرغت الإسلام من الساحة .

يطرح الخلق المستعمر المستحمر أسئلة مستحمة . ويطرح المسلم المتحمس لدينه أسئلة يسكنها الغضب على غابر الاستعمار وحاضر الاستعمار . يسكنها الغضب على الحقد الصليبي والغزو الصليبي ، والتطاؤل اليهودي . غضب على صليبية جثت صاغرة بين يدي صلاح الدين ، وأخرى أفحش وألعن حاضرة في البوسنة والقدس ولا صلاح الدين .

أسئلة مستحمة وأخرى مسكونة فحواها : من يوقظ النائم ، ومن يحيي الميت ومن يسبق إلى إمامة الأمة ؟ النضال بكلمة لائكية أو جهاد بكلمة قرآنية ؟

السؤال الحر ابتداءً ، السامي أهدافاً وغاية ، يصفني أنا أمة الله بأنني أنا وأمتي حَمَلَةٌ رسالة إلى الناس كافة ، تبعاً لذلك المرمى البعيد ، ونُشرف على ذلك الجهاد الطويل النفس البعيد المدى ، لا من زاوية مقهورية الأمة وتسلط الغرب وغزو الصرب ، لكن من وجهة نظر من هم قدر من قدر الله . من وجهة نظر إيجابية لا رد فعل . هجوماً بكلمة الله لا مجرد دفاع عن هوية .

جهاد إذاً لبناء مجتمع متماسك لبنائه أسر متماسكة . ثم جهاد سياسي وحركة تغيير لنستنبط من ذاتنا ، أي من اعتمادنا على ربنا ، مستقبلين متعلمين بلا حرج من عطاء الله للعباد ، منتقدين يقظين ما يخطئ فيه العباد ويصيبون ، ليكون لنا نمط تنمية ، ونمط إنتاج ، ونمط عيش ، ونمط نظام ، صالحة لإنساننا وأرضنا ، موصولة بماضينا الأجل ، واصلة بمستقبلنا الموعود ، نموذجية ليقنّدي الناس كافة بنا يوم ينادي المنادي على حضارة المادة والظلم والكفر بالاندحار والاندثار .

في ذاتنا نجد لا في غيرنا . تصنع المؤمنات أجيالاً كثيرة العدد عالية النوعية ، علينا واجب تغذيتها ، ورعايتها الصحية ، وتعليمها ، وربطها ربطاً وجودياً بالقرآن وبالنموذج النبوي ، ثم تعبئتها في جهاد مستمر لتبني من بعدنا مستقبل الأمة الشاهدة على الناس بالقسط .

في المستقبل المنظور إن شاء الله قومة إسلامية ، بشائرها ساطعة ، لن يضرها من خالفها بإذن الله . لا نظن أن القومة جهاد جيل وانتهى الرحيل ، ما هي إبطال موجود بل هي إيجاد مفقود . هي استصلاح وإصلاح ، لا انتقام وشفاء غليل . طريق الجهاد طويل ، يريد عملاً ممنهجاً ، يريد تنظيم جهود ، يريد تعبئة منظمة ، يريد ضبطاً وانضباطاً ، يريد استبصاراً وتشبيراً لأنفسنا وللإنسان مهما تجهم الزمن في وجهنا ، وكلّحت طلعتة ، واكفهرت ملامحه .

لن ينقذ الأمة من الهلاك الذي يتهدها ، ولن يُسلِّغها الأمل المعقود على منقذ يسعدها إلا الاعتماد على الله والجهاد في سبيل الله . عصر المواد الخام والإنتاجية الصناعية والموارد المادية والتمويلية كاد يولي الأديار ليخصّ الاعتبار الإنسان ومستوى معارفه وذكائه وقدرته على الابتكار وتطوير المعلومات وتخزينها وترويجها وتوظيف الأدمغة المتفوقة لتخطط وتنشط .

يبقى في هذا العالم المتطور للمال والنفط خاصة مكانتهما وأهميتهما ، يستأثر بما عندنا منهما الأقوياء العلماء . فلا بد لنا من جهاد وتعبئة لنوقف التزيف في ذات مقوماتنا المادية ، ولنؤوقف خاصة التزيف الذي أصبنا به في المخ فقلدنا الآخرين تقليد القردة . إن لا تكن تعبئة إسلامية لجهاد إسلامي فالقردية والديلية والهوان مستقبلنا . هل تصنع اللاييكية إلا كما صنع الإسلام الصوري الرسمي الذي مثل ويمثل مسرحياته حكام الجبر ؟ هل تصنع اللاييكية والثقافة العالمية الجاهلة بالله أجيالاً غازية مؤثرة في العالم ؟

بالإسلام وحده نساهم المساهمة الفعالة في إعلاء شأن القيم الإنسانية المروئية

لنقول للعالم كلمتنا فُتْسَمِعَ : عن السلام والتعارف بين البشر والتعاون والعدل .
ولنخبره عن كرامة الإنسان عند الله إن عرف الإنسان الله وأطاع الله . فتلك رسالتنا
والعزة بالله الناتجة عن جهادٍ منبرنا .

الإسلام سلام ، الإسلام رحمة ، الإسلام دعوة . ما الإسلام قهر ودماء . لكن
الإسلام بدون شوكة تُعْزَهُ ، بدون جهاد هو الشوكة ، يبقى جسماً يُداس بالأرجل .
تستعرض المؤمنات وجوه نساء شاركن في الجهاد أشد ما يكون الجهاد . جهادُ
القتال صبرُ ساعة وصبرُ أيام . أما جهاد بناء أمة ، وتنشئة أجيال ، وتعبئة حاملي
الرسالة ابتداءً من غشاء رميم يحياه الله على يد المؤمنين والمؤمنات ، فهو صبرُ عمر
وأعمار . لكن الباعث والتربية ومصدر القوة لا يختلف .

قاتلت الصحابييات رضي الله عنهن جنبا إلى جنب مع الصحابة . قاتلن وليس
القتال عليهن فرضاً . استأذنت عائشة رسول الله صلى الله عليه وسلم في الجهاد
فقال : (جهادكن الحج) . رواه عنها البخاري . وروي عنها أن نساء النبي صلى الله
عليه وسلم سألته عن الجهاد فقال : (نعم الجهاد الحج) .

لكن عائشة وغيرها من الصحابييات قاتلن متطوعات وأبلين البلاء الحسن . عقد
البخاري في كتاب الجهاد من صحيحه أربعة أبواب : « باب غزو النساء وقتالهن مع
الرجال » روى فيه عن أنس قال : « لما كان يوم أحد انهزم الناس عن النبي صلى الله
عليه وسلم . قال : ولقد رأيت عائشة بنت أبي بكر وأم سليم وإنهما لمشمرتان أرى
خدم سوقهما (خلاخلهما) تنقران القرب - وقال غيره : تنقلان القرب - على
متونهما ، ثم تُفرغان في أفواه القوم . ثم ترجعان تملأنها ، ثم تحيطان بفتفرغانه في أفواه
القوم » . بعده « باب حمل النساء القرب إلى الناس في الغزو » . فيه أن عمر أمير
المؤمنين قَسَمَ مُرَوَّطاً (أكسية) بين نساء من نساء المدينة فَبَقِيَ مُرَطَّ جيد . فقال له
بعض من عنده : يا أمير المؤمنين أعطِ هذا ابنة رسول الله صلى الله عليه وسلم التي
عندك - وهي زوجه أم كلثوم بنت الإمام علي - فقال عمر : أم سليط أحق . وأم

سَلَيْط من نساء الأنصار ممن بايع رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال عمر : فإنها كانت تزفر (تخطيط) لنا القرب يوم أحد .

وروى البخاري في « باب مداواة النساء الجرحى في الغزو » عن الربيع بنت مَعُوذ قالت : « كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم ، فنسقي القوم ، ونخدمهم ، ونرد الجرحى والقتلى إلى المدينة » .

وروى الإمام أحمد خبر صحابية خرجت في سرية جهاد مع المسلمين وتركت ثنيتين عشرة عنزة وصيصتها التي تنسجُ بها (مغزلها) . حكى رسول الله صلى الله عليه وسلم لوفد وفد عليه خبرها حين رجعت فوجدت أن إحدى عنزاتها مفقودة ، فأخذت تناشد ربها عز وجل تقول : « يا رب قد ضمنت لمن خرج في سبيلك أن تحفظ عليه . وإنني قد فقدت عنزاً من غنمي وصيصتي . وإنني أنشدك عنزي وصيصتي » . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « فأصبحت عنزها ومثلها وصيصتها ومثلها . وهاتيك فأتها فاسألها » . قال ذلك للوفد عليه .

كانت الكريمة منهن ، وكلهن كريمات ، تنقر القرب . وكانت الفقيرة المتواضعة تجاهد بمالها ونفسها ، تغزل وتنسق . روى أبو داود أن صحابيات خرجن في غزوة خيبر فسألهن رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قصدهن فقلن : « خرجنا نغزل الشعر فنعين به في سبيل الله ، وندأوي الجرحى ، ونناول السهام ، ونسقي السوق » . وقد أوردنا في فصل سابق رواية ابن هشام عن بطولة أم عُمارة في أحدٍ قالت : « فقممت أبأشر القتال ، وأدب عنه (عن رسول الله صلى الله عليه وسلم) بالسيف ، وأرمي عن القوس حتى خلصت الجراح إلي » .

بطلة أخرى هي صفية بنت عبد المطلب عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم . أخرج ابن اسحاق أنها لجأت يوم أحد إلى حصن حسان بن ثابت شاعر المسلمين مع النساء والصبيان وحسان . فمر يهودي يُطيف بالحصن . فطلبت المرأة الصالحة البطلة إلى الرجل الشاعر حسان أن ينزل إلى اليهودي . قال

حسان : « يغفرُ الله لك يا بنت عبد المطلب ! والله لقد عرفتِ ما أنا بصاحب هذا . قالت صفية : فلما قال لي ذلك ولم أجد عنده شيئاً احتجرتُ (شددت وسطى) ثم أخذت عموداً ، ثم نزلت فضربته بالعمود حتى قتلتها . فلما فرغت منه رجعت إلى الحصن فقلت : يا حسان انزلي فاستئجلي ، فإنه لم يمنعني من سلبه إلا أنه رجل . فقال حسان : مالي بسلبه حاجة يا ابنة عبد المطلب » .

جبنَ رجل وأقدمت امرأة . وكانت أولَ مؤمنة قتلت عدواً في الإسلام .

ويوم حنين إذ انهزم المسلمون ساعة من نهار كانت أم سليم يخنجرها تتحدى الأعداء . جاء زوجها أبو طلحة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يضحك ويخبره أن مع أم سليم خنجرأ . سألتها رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قصده فقالت : (أردتُ إن دنا إليَّ أحد منهم طعنته به) . رواه ابن سعد وغيره .

وأخرج الطبراني أن أسماء بنت يزيد بن السكن بنت عم معاذ بن جبل رضي الله عنهما قتلت يوم اليرموك - الحرب الفاصلة بين الروم والمسلمين في عهد عمر - تسعة من الروم بعمود فسطاط . بعمود خيمة وقت أسماء ما عاهدت الله عليه ورسوله حين بايعته مع نسيبة بيعة العقبة ، تلك البيعة المؤسسة الخامسة .

وأخرج البخاري أن أم حرام بنت ملحان سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يشير قائلاً : « ناس من أمتي يركبون البحر الأخضر في سبيل الله (هو المسمى الآن البحر الأبيض المتوسط) مثلهم مثل الملوك على الأسرة » . فقالت : يا رسول الله ادع الله أن يجعلني منهم . فدعاهما وقال : (أنت من الأولين ولست من الآخرين) قال أنس راوي الحديث : فتزوجت عبادة بن الصامت رضي الله عنه وركبت البحر مع بنت قرظة . وذلك حين غزا المسلمون القسطنطينية عاصمة الروم .

اللهم ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار

راعية ومسؤولة

كيف انقطع النسل المعنوي للمجاهدات اللواتي قتلن اليهودي وقاتلن بالسيف والخنجر وحطمن رؤوس الروم بعمود الفسطاط وغزون القسطنطينية ؟

أمع الرجال دليل وحجة بها أحالوا إماء الله قواعد في البيوت محجورات عاجزات جاهلات مظلومات ؟ كيف فقدت تلك التربية ، وماتت تلك الروح ؟ كيف قتلت المرأة وأفضلت ؟

ربما أدلى الفقيه بالحديث الجامع الذي وزعت فيه السنة المطهرة المسؤوليات وحددتها وأناطت بكل ذي موقع اجتماعي سياسي مهمته . حديث عظيم ما ترك لأمر ومأمور مهزباً من مسؤولية . روى الشيخان والترمذي وأبو داود عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « كلكم راع ومسؤول عن رعيته . فالإمام راع ومسؤول عن رعيته ، والرجل راع في أهله ، وهو مسؤول عن رعيته . والمرأة راعية في بيت زوجها ، وهي مسؤولة عن رعيته . والخادم في مال سيده راع ، وهو مسؤول عن رعيته » . قال : فسمعت هؤلاء من النبي صلى الله عليه وسلم . وأحسب النبي صلى الله عليه وسلم قال : « والرجل في مال أبيه راع ومسؤول عن رعيته ، فكلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته » .

مثلُ هذا الحديث العظيم حين تتلقاه قلوب زكية وعقول ذكية وضماير حرة من التقليد ، وأرواح نشأت في عبادة الله ونشئت عليها ، يدور فهمها ويتجوهر حول مفهوم المسؤولية . كلمة (مسؤولية) في الدارج من لغة العصر تعني شعوراً ما بالتبعة ، وخوف ما من لوم الناس ، وبحث ما عن راحة الضمير ، واعتزاز ما بإظهار الكفاءة على حمل الأعباء وإنجاز المهمات . أما معنى المسؤولية حين يلفظ بها رسول الله صلى الله عليه وسلم وتفهمها العقول وتعيها القلوب التي تقرأ القرآن وتعيه فهو الوقوف بين

يدي الله عز وجل غداً يوم القيامة يُسأل الإمام والرجل والمرأة والأب والإبن ويُجازوا عن أعمالهم ، يُثابون إن أحسنوا عملاً ، ويعاقبون إن أساءوا .

المفاهيم تتزحلق ، وتخرج من نظام علمي إلى نظام ، فتفقد قوتها وأصلاتها ومغزاها . المسؤولية كما نستعمل الكلمة اليوم لفظ تَرْجَم معنى أجنبيّاً . فهو جريحٌ يئنّ مما أصابه من درجة وزحلقة مثل سائر الألفاظ العربية الترجمانة عن لغة الثقافة العالمية . الوثنية الإغريقية والمادية الحديثة والفلسفات المتتالية والفنون المستحدثة ، كل ذلك يتقاطر على الألفاظ ويجرف الألفاظ ويزحلق الألفاظ عن مدلولاتها القرآنية النبوية ، فإذا هي أشباح في الأذهان بعد أن كانت حياة وباعثة حياة .

هذا عن التركيز وعن فهم الدلالات كما تسمع الألفاظ الدالة قلوب المؤمنين والمؤمنات وعقولهم . ويصيب الفهم والألفاظ والدلالات (تعريّة) تاريخية كما نقول (تعريّة التربة) في المصطلح الجغرافي الفلاحي . فيتحول مركز الفهم ودلالة اللفظ ، فإذا أنت ترى من فعل الناس وخطابهم ما ينبئ عن خمود الذكاء وخمول الذكاء . وإذا بحديث المسؤولية العظيم يصبح في الخطاب والفعل تبريراً للواقع . وإذا بالكلمة المفتاح في الحديث هي (راع) وليس (مسؤول) .

الإمام في السياق القرآني النبوي نبي وخليفة راشد اختاره المسلمون والمسلمات وهو في السياق المنجرف المعرّي رجل قوي حملته إلى السلطة عصبية ، « فغلبهم بالسيف حتى سمي خليفة وأميراً للمؤمنين » .

بين يدي النبوة والخلافة الراشدة يُقرأ الحديث العظيم يتداوله عباد الله وإماؤه لا يخافون سوى الله ، ولا يخافون في الله لومة لائم . وبين يدي السيف يُقرأ الحديث العظيم ، وتُقرأ النصوص ، وظل التخويف حاثم . فإن كان في العقول ذكاء قبض من الزمام طمعاً وخوفاً من (الإمام) السيف ، وإن كان بالقلوب زكاء هربت من الساحة لتُخلي ذمتها من كل مسؤولية . تقرأ القلوب الزكية الكلمة ، كلمة (مسؤولية) ، بالحرف الغليظ الممتاز .

الكلمة المفتاح في سياق الحكم العاض والجبري هي الراعي والرعية . وزبدة الحديث العظيم تُترجم إلى : كلكم رعية ما عليكم إلا السمع والطاعة . وهكذا تتقلب الحقائق . من : (كلكم راع ومسؤول) أصبحت الحقيقة الواقعية تحت ظل السيف ما قلنا .

فقيهنا الذي جردناه وقدرناه محاوراً يريد أن يستدل من الحديث العظيم على أن للمرأة مجالاً لرعايتها ومسؤوليتها حدده الشرع وأعطى عنوان سكنه في بيت زوجها وهذا لا تناقض فيه ، وأتني لنا وفحوى الحديث كالشمس وضوحاً : (المرأة راعية في بيت زوجها ، وهي مسؤولة عن رعايتها) . في هذا لا تناقض الجوهر ، وأتني لنا لا تناقض الهدي النبوي ، لكن تناقض فعل الأزواج ، وإساءتهم القوامية ، وفهمهم المتعسف (للدرجة) التي جعلها الله للرجال على النساء . منهم من يَخِيطُ ، ومنهم من يُهين ، ومنهم من لا يعترف لها بفضل ، ومنهم من يعتبرها خادماً ليس لها من كلمة في البيت ، ومنهم من يطردها من (بيته) ويشردها وأطفالها . ومنهم ، ومنهم .

انقرط عقد نظام الحكم ، فذهبت الراعيات المسؤولات المجاهدات كما نقرأ عنهن في السيرة العطرة ، وفتحت بعدهن النساء أعينهن على مجتمع يدين للحاكم (دين الانقياد) وتحكمه الذهنية الرعوية .

لا تناقض في جوهر الدلالة من الحديث النبوي الحكيم العظيم . إنما تناقض ما فعله الناس من بعد وما فهموا ويفهمون . ثم ثنني العنان في جولتنا مع فقيهنا المحاور المتخيل فنسأله : هل نسخت مسؤولية المرأة في البيت مسؤوليتها خارجه ؟ مسؤوليتها في البيت سنة قرأناها ، ومسؤوليتها خارجه قرآن نقرأه في قوله تعالى : ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيَطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (١) .

(١) سورة التوبة الآية : ٧١ .

ما تنسخ مسؤولية المرأة في بيتها ومسؤوليتها خارجه إلا كما تنسخ سائر التكاليف الشرعية عنها . وهي لا تفعل . فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تكليفان على المرأة منهما مثل ما على الرجل . عليهما من ذلك مثل ما عليهما من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وطاعة الله ورسوله . لو جاز للمرأة أن تترك الصلاة أو بعضها بدليل الحديث الحكيم الذي وزع المسؤوليات وعين الرعيات لجاز لها أن تنسحب من ساحة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مسؤولية مشتركة بين الرجال والنساء ، هما العمل التضامني الذي يوقف الولاية بين المؤمنين والمؤمنات على قدم . إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ركنان من أركان الإسلام ، وطاعة الله ورسوله أمراً بالمعروف ونهياً عن المنكر ولأية إيمان . تدخل الصلاة وتدخل الزكاة في طاعة الله ورسوله كما يدخل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر دخولاً اندماجياً لا فصل معه بين الدين والسياسة . الدين سياسة والسياسة دين . والمرأة المؤمنة كالرجل المؤمن نصيبها من المسؤولية السياسية مثل نصيبه ، مع اعتبار (الدرجة) التي خولها الله له ليقود السفينة ، إذ هو قطب القوة في مجمع المؤمنين والمؤمنات .

ما هنا لكنّ معشر المؤمنات من دليل يُقيلكن ويعفيكن من المسؤولية السياسية . إن كانت السنة المطهرة خصصت لكن مجالكن الحيوي حيث تزاوّلن أمانة الحافظة صالحات قانتات ، فعموم القرآن أهاب بكن إلى تعبئة شاملة تدعمنها بما يفيض من وقتكن وجهدكن بعد أداء واجبن التربوي الأساسي . وليست تربية الأجيال إلا ترسيخاً للمعروف وإبادة للمنكر . فأتئن تزاوّلن السياسة في البيت والمدرسة والمعهد والجمعية الإحسانية وميدان الشغل والكسب - لمن كانت منكن كاسبة - أسمى ما تكون السياسة .

ليست لنا سابقة في الإسلام أن تتولى النساء الإمامة العظمى ، وما كان لامرأة أن تتولاها . والمتبجححات بشجرة الدر التي حكمت مصر إنما يتنذرُن ويتفكهن بنقائض

الإسلام . ما كان للمرأة وما يكون لها أن تتولى الإمامة العظمى ، فإن ورثت جارية مَحْظِيَّةُ الْمَلِكِ فما نحن في الإسلام نتكلم . الملك نقبض الإمامة . لا جرم أن ترث الملك جارية .

الإمامة العظمى إمامة صلاة قبل كل شيء وقيادة جيوش وجهاد . رب العباد جعل قوة العضل في الرجال ورباطة الجأش . ورب العباد سبحانه خص إمامة الصلاة الرجال . تؤم المرأة نساء ، ويؤم الرجل الكل . ويأتي بعد ذلك الحديث النبوي : « لن يُفلح قوم ولّوا أمرهم امرأة » . تجادل فيه بعضهن مستندات إلى نزاع لفظي فارغ بين بعض الفقهاء : هل المقصود بالزجر النبوي الفرس الذين ورثت ملكهم ابنة كِسْرَى عن كِسْرَى ، وإذا لا نهى عن تولي المرأة الإمامة . هُراء .

الإمامة العظمى صلاة وقوامة وقوة . لا تُتَنَازَعُ القوةُ الأمانة ، بل تكملها . لا تنازع الحافظية القوامة ، بل يعيش بعضهما في كَنَفِ بعض . القوة أخت الأمانة ، والقوامة قرينة الحافظية . والسياسة أمر ونهي ، للرجل مكانه ، وللمرأة مكانها لتزدوج وتنسجم في المجال السياسي القوة والأمانة كما تزدوج وتنسجم القوامة والحافظية في الحياة الزوجية .

فيما دون الإمامة العظمى مرعى للمرأة ومسؤولية . ما يغمطها المؤمنون حقها متى أظهرت كفاءة وقدرة . وقد ولى رسول الله صلى الله عليه وسلم مسؤولية القيام على الجرحى امرأة اسمها رُفيدة . زوى مسلم عن عائشة رضي الله عنها أن سعد بن معاذ أصيب يوم الخندق ، رماه رجل من قريش ، فضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم في المسجد خيمة يعوده من قريب . وروى ابن إسحاق في السيرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جعل سعداً بن معاذ في خيمة لامرأة من أسلمَ يقال لها : رفيدة ، في مسجده عليه السلام كانت تداوي الجرحى وتحبس نفسها على خدمة من كان فيه ضيعة من المسلمين .

قلت : متطوعة ، لكن رضا رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكانها من مسجده

اعتراف بمسؤوليتها . في كتاب (الاستيعاب) لابن عبد البر أن امرأة تُسمى سمراء بنت نُهيك الأُسدية كانت أدركت النبي صلى الله عليه وسلم ، وعُمِّرت ، وكانت تمر في الأسواق تأمر بالمعروف وتنهي عن المنكر ، وتنهى الناس عن ذلك بسوط معها . وعند القاضي أبي بكر بن العربي رحمه الله في (أحكام القرآن) إنكار لقصة عن عمر رضي الله عنه . قال القاضي : « وقد رُوي أن عمر قدّم امرأة على حِسبة السوق ، ولم يصحَّ ، فلا تلتفتوا إليه ، فإنما هو من دسائس المبتدعة في الأحاديث » .

اللهم ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار

جدال فقهي

استبعد القاضي الفقيه رحمه الله أن يكون عمر وتي على الحسبة امرأة . من عصره تكلم القاضي ومن مكانه ، عصر وأمصار زار منها ألفاً ونيف قرية – كما قرأنا في فصل سابق – فرأى فيها من تبرج النساء ما لم يعجبه . أنكر أحوال النساء في زمنه ولم يعجبه إلا نساء نابلس العابدات في مساجد الجمعة ، وإلا نساء القدس سفك دماءهن الأعداء في مسجدهن .

صحت الرواية عن محتسبة عمر أو لم تصح ، فتولي المرأة من المناصب ما لا تتعارض رعايته مع رعاية ما أناط بها الحديث العظيم من مسؤولية تربية ، وما لا يخذش عرضها ، وما لا يتوَّء بأعصابها وقدرتها ، وما لا يُخرجها عن طبيعة الأمومة والحنان والإحسان ، أمر لا نجد له من نص يرفضه .

وترنو أعيننا إلى الأفق الصحابي بأعين لا يُقْذِيها فجور نساء القرى ورجال القرى . آه لو اطلع القاضي العزيز على فجور زمننا .

ما يفيض عن الوقت والجهد الأساسي التربوي تصرفه المؤمنة إلى مجال التعبئة العامة ، مجال السياسة الآنية . تأسيس المستقبل وبناء المستقبل أولاً ، القومة التغييرية طويلة النفس بعيدة المدى أسبق . المؤمنة مربية أولاً ، ثم هي إن كانت لها الكفاءة ، وكان لها الطموح والصبر وفائض الحيوية ، أمانة مسؤولة عما تتناول إليه هممتها وتستحقه قدرتها على العمل وال ضبط .

تكسير أسنانها المرأة إن تعلقت بحق سياسي يخرجها من برجها . نعم ، تشارك في النشاط العام للدعوة ، من هذا النشاط الجانب السياسي ، تنتخب وتنتخب ، تخطب في بنات جنسها وتكتب ، تعبر عن رأيها بحرية . وتستجد المؤمنات الصالحات في ظل الحكم الإسلامي أن المرأة إن جذّفت بنفسها في قاربِ المباراة

المطلقة مع الرجل ، وإن حاولت أن تكون هي القوامة لا الرجل ، وزعمت أن لها درجة مثلما جعل الله للرجل ، فإنما تضيف تعباً مجتئاً إلى تعب مُحَبَّطٍ ، وإنما تزيع عن السكة ، وإنما تخرج عن طبيعتها . لا يستفزن المؤنسات مناضلات تهب بهن رياح الهبل .

إذا كان في النساء مستثنيات لهن من قوة الشكيمة ما يمكنهن من مناطقة الأهل ، فإن عامتهن إلى ما يناسب أنوثتهن أميل . المرأة في مشاهد الدماء والقتال قلماً تتحمل أعصابها ، في الخصام هي غير مُبَيَّنة بشهادة القرآن . وذلك مزية لها لا تنقص أن تكون ميالة إلى الصلح لا إلى المشاكسة ، أن تكون سلاماً لا حرباً ، أن تعالج الجراح لا أن تجرح .

وقد تناظر الفقهاء المسلمون وتجادلوا في موضوع كفاءة النساء وحققهن في تولي الشؤون العامة . نورد من ذلك نثراً . قال القاضي الفقيه المالكي أبو بكر بن العربي في (أحكام القرآن) : « وقد تناظر في هذه المسألة (مسألة تولي المرأة الحسبة) القاضي أبو بكر بن الطيب المالكي الأشعري مع أبي الفرج بن طرار شيخ الشافعية ببغداد في مجلس السلطان الأعظم عضد الدولة . فمأحل ونصر ابن طرار ما ينسب إلى ابن جرير — على عادة القوم في التجادل على المذاهب وإن لم يقولوا بها استخراجاً للأدلة وتمرناً في الاستنباط للمعاني » . قلت : ولنا إلى ابن جرير رجعة إن شاء الله .

قال : « فقال أبو الفرج بن طرار : الدليل على أن المرأة يجوز أن تحكم أن الغرض من الأحكام تنفيذ القاضي لها ، وسماع البينة عليها ، والفصل بين الخصوم فيها وذلك يمكن من المرأة كما مكانه من الرجل » .

قال : « فاعترض عليه القاضي أبو بكر ، ونقض كلامه بالإمامة الكبرى . فإن الغرض منها حفظ الثغور ، وتدبير الأمور ، وحماية البيضة ، وقبض الخراج ، ورده على مستحقه . وذلك يتأتى من المرأة كأتية من الرجل » .

قال : « فقال له أبو الفرج بن طرار : هذا هو الأصل في الشرع ، إلا أن يقوم دليل على منعه . فقال له القاضي أبو بكر : لا نُسلم أنه أصل الشرع . قال القاضي عبد الوهاب : هذا تعليل للنقض » .

ويعقب ابن العربي رحمه الله قائلاً : « ليس كلام الشيخين في هذه المسألة بشيء . فإن المرأة لا يتأتى منها أن تبرز إلى المجالس ، ولا تخالط الرجال ، ولا تُفاوضهم مفاوضة النظير للنظير ، لأنها إن كانت فتاة حُرِّمَ النظر إليها وكلامها وإن كانت مُتَجَالَّةً (كبيرة السن) بَرَزَةً (تبرز وتظهر) لم يجمعها والرجال مجلس تزدحم فيه معهم ، وتكون مَنْظَرَةٌ لهم . ولم يُفلح قطُّ من تصور هذا ولا من اعتقده » .

حضرنا مجلس مناظرة من القرن السادس يدور حول مسألة خلافية بين المذاهب الفقهية ، هي تولي المرأة القضاء . وكان القضاء أهم منصب تركه حاملو السيف لأهل العلم والتقوى . كان القاضي ملاذ الناس ومَفْزَعهم من الظلم . كان القاضي أهم شخصية مدنية . ويتبحر في العلم فيكون في نفس الوقت مفتياً ؛ لذلك كثر النزاع حول أهلية المرأة لتولي المنصب . كان القاضي مجتهداً .

أصبح القاضي في مجتمعاتنا الحاضرة مجرد موظف ، يُدْرَبُ على إجراء مِسْطَرَّة وتطبيق مُدَوِّنة . وتتوظف النساء قاضيات لَسْتُ أدري هل يُلْبِسُهُن مَوْظِفُوهُن من هذه المنسوح السوداء التي يراد بها أن تُعْطِيَ الهِيبَةَ وتُدْخِلُ الرهبة وتخوف الجناة . في أفق الحكم الإسلامي أولويات تغيير من أهمها تحرير القضاء من المنسوح الكنسية السوداء ، وهو هين . وتحرير القضاء من الروح الكابِسة ليكون للقضاء جلال الحق والعدل لا إدارة القمع وتصريف الملفات .

ولا غنى لنا عن سماع جدل فقهاءنا الأقدمين رحمهم الله وأحسن مثواهم وألحقنا بهم مسلمين في مسألة أهلية المرأة للمنصب الجليل . نقيس على ذلك أهليتها لغير القضاء من مناصب الدولة .

يدور الاستدلال الفقهي في المسألة حول حديث رواه البخاري عن أبي بكر رضي الله عنه قال : « لقد نفعني الله بكلمة أيام الجمل . لما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن فارساً ملكوا ابنة كسرى قال : لن يفلح قوم ولّوا أمرهم امرأة » .

نعود إلى الجمل وإلى أبي بكر في الفقرة المقبلة إن شاء الله . ونقرأ للمحدث الحافظ الفقيه ابن حجر رحمه الله قوله : « احتج بحديث أبي بكر من قال لا يجوز أن تؤلّى المرأة القضاء ، وهو قول الجمهور . وخالف ابن جرير الطبري فقال : يجوز أن تقضى فيما تقبل شهادتها فيه . وأطلق بعض المالكية الجواز » .

قلت : ابن جرير الطبري علّم من أعلام الأمة : شيخ المفسرين ، فقيه مجتهد له مذهبه . معه في اجتهاده المقيّد لأهلية المرأة في جواز قضائها فيما تجوز فيه شهادتها ، وهو الأموال - أو بعبارة العصر : القضاء المدني - الفقهاء الأحناف كما سنرى عن قريب إن شاء الله .

ننظر في نموذج من استدلال الفقهاء في كتاب (نيل الأوطار) للإمام الشوكاني مجتهد القرن الثاني عشر : قال رحمه الله عن حديث أبي بكر : « فيه دليل على أن المرأة ليست من أهل الولايات . ولا يحل لقوم توليتها ، لأن تجنب الأمر الموجب لعدم الفلاح واجب » .

وينقل الشوكاني عن ابن حجر قوله : « وقد اتفقا على اشتراط الذكورة في القاضي إلا عند الحنفية ، واستثنوا الحدود . وأطلق ابن جرير » . قال الشوكاني : « ويؤيد ما قاله الجمهور أن القضاء يحتاج إلى كمال الرأي ، ورأي المرأة ناقص ، لاسيما في محافل الرجال » .

ويورد الشوكاني رحمه الله حديث بريدة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « القضاء ثلاثة : واحد في الجنة واثان في النار . فأما الذي في الجنة فرجل عرف الحق فقضى به ، ورجل عرف الحق وجار في الحكم فهو في النار ، ورجل قضى للناس على جهل فهو في النار » . رواه ابن ماجه وأبو داود . قال

الشوكاني : « وهو دليل على اشتراط كون القاضي رجلاً » . ثم يعقب على الحديث قائلاً : « في هذا الحديث أعظم وازع للجهالة عن الدخول في هذا المنصب الذي ينتهي بالجاهل والجائر إلى النار . وبالجمله فما صنع أحد بنفسه ما صنعه من ضاقت عليه المعاش فزج بنفسه في القضاء لينال من الحطام وأموال الأراذل والأيتام ما يحول بينه وبين دار السلام مع جهله بالأحكام أو جوره على من قعد بين يديه للخصام من أهل الإسلام » .

قلت : عجز المرأة عن الخصام وقصورها في اللجاج ، وبالتالي نفور نفسها وهروب طبعها من مواقع الخصام - ومجالس القضاء هي الخصام بعينه - يشهد لها قول الله تعالى يرد على المشركين الذين زعموا أن الملائكة إناث وأنهم أجلهم الله بنات الله، تعالى الله : ﴿ وجعلوا له من عبادہ جزءا إن الإنسان لكفور مبين ﴾ . أم اتخذ مما يخلق بنات وأصفاكم بالبني . وإذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلا ظل وجهه مسودا وهو كظيم . أو من ينشأ في الحلية وهو في الخصام غير مبين ﴿ (١) .

قصورها في الخصام وحبها للحلية والزينة كمال لأنوثتها ما هو مثبته . قال الفقيه المحدث ابن كثير في التفسير غفر الله له : « المرأة ناقصة يكمل نقصها بلبس الحلي منذ تكون طفلة . وإذا خاصمت فلا عبارة لها . بل هي عاجزة عيية (...) . فالأنثى ناقصة الظاهر والباطن في الصورة والمعنى (...) . وأما نقص معناها فإنها ضعيفة عاجزة عن الانتصار عند الانتصار ، لا عبارة لها ولا هيمة ، كما قال بعض العرب وقد بشر ببيت : ما هي بنعم الولد ، نصرها بكاء ، وبرها سرقة » . قلت : قول الله حق ، وشهادة الأعرابي جاهلية تعد البنات . أعيدي قراءة الآيات .

يلخص الخلاف المذهبي في المسألة الأستاذ الدكتور وهبة الزحيلي في كتاب (الفقه الإسلامي وأدلته) ، فيقول عن الذكورة : « هي شرط أيضاً عند غير الحنفية ،

(١) سورة الزخرف الآيات ١٥ - ١٨ .

فلا تُؤَلَّى المرأة القضاء لقوله صلى الله عليه وسلم : « لن يفلح قوم ولّوا أمرهم امرأة » ولأن القضاء يحتاج إلى كمال الرأي وتام العقل والفتنة والخبرة بشؤون الحياة . والمرأة ناقصة العقل ، قليلة الرأي ، بسبب ضعف خبرتها واطلاعها على واقع الحياة . ولأنه لا بد للقاضي من مجالسة الرجال من الفقهاء والشهود والخصوم . والمرأة ممنوعة من مجالسة الرجال بعداً عن الفتنة . وقد نبه تعالى على نسيان المرأة فقال : « أن تضلّ إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى » . ولا تصلح للإمامة العظمى ولا لتولية البلدان . ولهذا لم يؤلّ النبي صلى الله عليه وسلم ولا أحد من خلفائه ولا من بعدهم امرأة قضاء ولا ولاية بلد .

وقال الدكتور : « وقال الحنفية : يجوز أن تكون المرأة قاضياً في الأموال ، أي في القضاء المدني ، لأنه تجوز شهادتها في المعاملات ، ويأثم الموكلي لها للحديث السابق لن يفلح ... أما في الحدود والقصاص ، أي في القضاء الجنائي ، فلا تُعين قاضياً لأنه لا شهادة لها فيه . ومن المعلوم أن أهلية القضاء تلازم أهلية الشهادة . وقال ابن جرير الطبري : يجوز أن تكون المرأة حاكماً على الإطلاق في كل شيء ، لأنه يجوز أن تكون مفتية . فيجوز أن تكون قاضية .

اللهم ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار

أطوع الناس فسي الناس

ما أكثر ما يستشهد الناس - الفقهاء منهم والعوام - بحديث نبوي يُنقصوا من قدر المرأة، يُزيغون الحديث عن سياقه ويعطونه دلالة اللفظية المطلقة. يقرأون بعضه ويسكتون عن بعض كمن يقرأ بعضهم (ويل للمصلين) ويقطع القراءة.

لا عجب يغلب سوء الظن بالمرأة، ويغلب الموروث من احتقارها حتى يكتب المفسر الجليل شهادة أعرابي جافٍ جافٍ مباشرة بعد شهادة رب العالمين التي توبخ وتشنع على الذين يظن وجه أحدهم مُسوداً وهو كظيم إذا بشر أحدهم بالأنثى، لا مثال لاسوداد وجهه ولا شاهد عليه أفصح مما يرويه الفقيه المفسر عن الأعرابي.

ويقلد اللاحق السابق، فيتأبد فينا الفقه المنحسب - بل الراجع القهقري إلى عروبية غابرة - ويحول بيننا وبين الفقه الصحيح المستقي من معين. فقه انهزمنا به على وجه التاريخ، ما ينزع عنا أغلاله إلا تفقه جديد ينظر ويسمع ما قال الله وما قال رسول الله.

الحديث رواه الشيخان عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في أضْحَى أو فِطْرٍ إلى المِصْلَى، فمر على النساء: فقال «يا معشر النساء ما رأيْت من ناقصات عقل ودين أذهبْ لُلب الحازم من إحداكن قلن: وما نقصان ديننا وعقلنا يا رسول الله؟ قال: «أليس شهادة المرأة مثل نصف شهادة الرجل؟» قلن: بلى قال: «فذلك من نقصان عقلها. أليس إذا حاضت لم تصل ولم تصم؟» قلن: بلى قال: «فذلك من نقصان دينها».

السياق الواقعي لهذا الحديث هو ما كان يشتكي منه المهاجرون من تعلم نسائهم آداباً أخرى غير ما تعود عليه المهاجرون في مكة. عبّر عن ذلك عمر بن الخطاب بقوله: «وكنا معشر قريش نغلبُ النساء، فلما قدمنا على الأنصار إذا قوم تغلبهم نساؤهم. ففطق نساؤنا يأخذن من أدب الأنصار». الحديث رواه البخاري.

في يوم عيد يخطب رسول الله صلى الله عليه وسلم ويعظ ، ويخص النساء بهذه الكلمة الرقيقة التي جاءت في صيغة تعجب من اختلاف شأن المهاجرين الذين يغلبون نساءهم عن حال الأنصار تغلبهم الضعيفات وهم الأقوياء ، قليلات الخبرة بخصام الناس وشدائد الحياة حتى إن الله عز وجل عزز الشهادة منهن بشهادة ثانية لتذكرها إذا نسيت . ما في الحديث حُكْم قاطع . بل فيه تعجب ، وفيه انبساط . وهل تظن مؤمنة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذو القلب الرحيم والعقل الراجح والخلق العظيم والعصمة الإلهية يكون من قلة الذوق وسوء الظن بينات آدم اللواتي كرمهن الله على يديه حتى يختار مناسبة الفرح لِيُتْرَحَهُنَّ ، مناسبة السرور ليدخل عليهن الحزن ، مناسبة خروج المسلمين والمسلمات إلى صعيد واحد ليتلقوا جميعاً جوائز الله يوم العيد فينغص عليهن بجرح شعورهن وإهانة كرامتهن

تعجبٌ من قدرة الله الذي غلبَ الضعيفات ، بلباقتهن وحب أزواجهن لهن يذهبن بلب الرجل الحازم فيطيعهن ويخضع لرغباتهن .

عنوان هذه الفقرة كلمة قالها الإمام علي كرم الله وجهه أثناء أحداث حرب الجمل التي قادتها أمنا عائشة رضي الله عنها يوم خرجت إلى البصرة مع نحو ثلاثة آلاف رجل تحاول الإصلاح بين الإمام علي ، وقد بويع بعد مقتل أمير المؤمنين عثمان ، وبين طلحة والزبير الخارجين عليه .

روى أخبار ذلك عمر بن شبة في كتاب (أخبار البصرة) . ولخصه الحافظ ابن حجر رحمه الله . وعنه نقل . قال الإمام علي : « أَتَدْرُونَ بِمَنْ بُلِيَتْ ؟ أَطَوْعُ النَّاسِ فِي النَّاسِ عَائِشَةُ ، وَأَشَدُّ النَّاسِ الزَّبِير ، وَأَدْهَى النَّاسِ طَلْحَةُ ، وَأَيْسَرُ النَّاسِ يَعْلَى بْنُ أُمِيَّة » . اليسار : المال .

أطوع الناس في الناس عائشة . ناقصة عقل ودين بالمعنى النبوي الملائف المتعجب من حكمة الله تقود جيشاً فيه أمثال طلحة والزبير . أمنا العزيزة ارتكبت خطأ فخرجت من مستقرها . قليلة الخبرة بال جماهير الحاشدة وتفاعلاتها ، ظنت

بحسن نية أنها بحضورها وحرمتها في المسلمين ستوقف مسلسل العنف . حكمة الله وقدره السابق .

فقد أخرج الإمام أحمد والبخاري والبيهقي وابن حبان عنها رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لنسائه ذات يوم : « كيف بإحداكن تنبح عليها كلاب الحوَّاب » . وعن ابن عباس روى البزار بسندٍ ثقات أنه صلى الله عليه وسلم قال لنسائه : « أيتكن صاحبة الجمل الأديب ؟ » .

من معجزاته صلى الله عليه وسلم الكثيرة إخباره بأحداث المستقبل ، هذا منها . فينقل ابن حجر رحمه الله أن الأم المطاعة نزلت في طريقها إلى البصرة وهي على جملها التاريخي بعض مياه بني عامر ، فنبحت عليها الكلاب فقالت : أي ماء هذا ؟ قالوا : الحوَّاب . تذكرت ما كان أخبر به رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : ما أظنني إلا راجعة فقال لها بعض من كان معها : بل تقدّمين فيراك المسلمون فيصلح الله ذات بينهم .

قدّر الله ماض ، علّمه نبيه صلى الله عليه وسلم ، وأعلم النبي علياً فأخبره : « إنه سيكون بينك وبين عائشة أمر » . فزع علي فقال : « فأنا أشقاهم يا رسول الله » قال : « لا ولكن إذا كان ذلك فاردّدها إلى ماءنها » . رواه أحمد والبزار عن أبي رافع بسند حسن .

امرأة من أهل الجنة أساءت التقدير ، ساقها قدر الله السابق إلى موطن من مواطن الفتنة التي دمرت الحكم الشوري بين المسلمين . من موقعة الجمل تفاقم الشرخ بين فئات المسلمين بعد أن دشّن الفتنة قاتلو أمير المؤمنين عثمان .

ولا تزال تلك الأخطاء وتلك الحزازات بين الصحابة تحفر في كيان الأمة . فالشيعة ما عندهم عذر للأم المطاعة . هي عندهم في قرآن واحد مع معاوية وعمر بن العاص والمغيرة بن شعبة ويزيد وسائر بني أمية . وكأن خطأ امرأة خرجت تصلح بين المسلمين بالنية الصالحة مثل خطأ من قتلوا حجر بن عدي الصحابي العابد الصالح

وأصحابه ، ومن فرضوا على الأمة بالسيف بيعة يزيد الشاب الطائش ، ومن قتلوا حسينا ، ومن قتلوا علماء الأمة في واقعة الحرة

امرأة من أهل الجنة عصم الله من اتباعها في خطاياها أبا بكر الصحابي الذي قال لقد نفعني الله بكلمة أيام الجمل : لما بلغ النبي صلى الله عليه وسلم أن فارسا ملكوا ابنة كسرى قال : « لَنْ يُفْلَحَ قَوْمٌ وَلَوْ أَمَرَهُمْ امْرَأَةٌ » . وسُئِلَ أَبُو بَكْرَةَ : ما منعك أن تقاتل مع أهل البصرة يوم الجمل ؟ قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « يخرج قومٌ هلكى لا يُفْلَحُونَ ، تقودهم امرأة في الجنة » . رواه ابن أبي شيبة .

وأخرج البخاري عن عبد الله بن زياد الأسدي قال : « لما سار طلحة والزبير وعائشة إلى البصرة بعث علي عمار بن ياسر وحسناً بن علي ، فقَدِمَا علينا الكوفة ، فصعدا المنبر . فكان الحسن بن علي فوق المنبر أعلاه ، وقام عمار أسفل من الحسن . فاجتمعنا إليه ، فسمعت عمارا يقول : إن عائشة قد سارت إلى البصرة . والله إنها لزوجة نبيكم صلى الله عليه وسلم في الدنيا والآخرة ولكن الله تبارك وتعالى ابتلاكم ليَعْلَمَ إياه تطيعون أم هي » .

ضعيفة مطاعة ، نساء متقلبة الرأي . واحدة من بنات آدم وبنية الخطائين التوايين جاءها يوم الجمل وهي في هودجها عبد الله بن بُدَيْل بن رِقاء الخزاعي فقال لها : « يا أم المؤمنين أتعليمني أنني أتيتك عندما قُتِلَ عثمان فقلت : ما تأمريني ؟ فقلت : الزم عليا . سكتت أم المؤمنين لأنها كانت في موقف حرج مناقض لما كانت أوصت به . الحديث رواه ابن أبي شيبة بسند جيد .

سكتت لأن موقفها ذاك كان منحازا لرجلين من أهل الجنة أخطأ أفدح من خطاياهما : هما طلحة والزبير ، وما أدراك من طلحة والزبير جبلان من الرجال ذوي البلاء والسابقة العظيمة في الإسلام . بعد ست وثلاثين سنة من هجرتهما مليئة بالأعمال الجليلة خالفا أمير المؤمنين لرأي رأياه ظننا أنه الحق ، وقاتلهما الإمام قاتلا :

أقاتلهم على الخروج من الجماعة ونكث البيعة . فلما فرغ من قتال الفئة الخارجة بعد أن قُتل طلحة والزبير رضي الله عنهما دخل عليه عمران بن طلحة ، فقال له الإمام علي كرم الله وجهه : إني لأرجو أن يجعلني الله وأباك من الذين قال الله فيهم : ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ ، إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ ﴾ . وكان في المجلس رجلان قالا : الله أعدلُ من ذلك ! تقتلهم بالأمس وتكونون إخوانا فقال علي رضي الله عنه : ﴿ قَوْمًا أَبْعَدُ أَرْضٍ وَأَسْحَقَهَا فَمَنْ هُمْ إِذَا لَمْ أَكُنْ أَنَا وَطَلْحَةُ ﴾ . في رواية أن عليا غضب للمقالة غضبة عظيمة وصاح على القائل صيحة تدهده لها المكان . ذكر ذلك الحافظ ابن كثير رحمه الله وغفر لنا وله في التفسير عند الآية من سورة الحجر .

أخرج الطبري بسند صحيح عن أبي يزيد المديني قال : قال عمار لعائشة لما فرغوا من الجمل : « ما أبعدَ هذا المسيرَ من العهد الذي عهدَ إليكن ؟ » يشير إلى قول الله تعالى مخاطبا نساء النبي صلى الله عليه وسلم : ﴿ وَقُرْنِ فِي بَيْوتِكُنَّ ﴾ (١) أم المؤمنين لما سمعت من خلف حجابها صوتا تعرفه يعاتبها بهذا الرفق البار وينصحها لا يكتمها النصيحة قالت : (أبو اليَقْظان ؟) قال : نعم . قالت : « والله إنك - ما علمتُ - لقَوَالٍ بالحق » قال : « الحمد لله الذي قضى لي على لسانك » .

ما أسرع ما تسامح الإمام ورجع به الإيمان والأخوة في الله من ميدان القتال إلى تأمل المصير عند الله هل يسكن الغل والحقد والنقمة تلك القلوب وقد تربت أسمى تربية ؟ يطرأ الضعف البشري والخطأ البشري والنزوة البشرية والخلاف البشري ، ثم تطوى الصفحة وترجع المياه إلى مجاريها .

شهد بسمو التربية وسموق الأخلاق أعداء الإمام قبل أحبائه . روى الإمام الشافعي عن الإمام علي بن الإمام الحسين بن الإمام علي بن أبي طالب قال : « دخلت على مروان بن الحكم فقال : ما رأيت أحداً أكرم غلبةً من أهلك »

(١) سورة الأحزاب الآية : ٣٣ .

- يعني جده عليا - ما هو إلا أن ولّينا يومَ الجمل فتادى مُنادٍ : لا يُقتَل مُدبرٌ ولا يُذَفَّفُ علي جريح (لا يُجهز عليه) .

يقارَن هذا الصّفح الجميل بالخزي المجسم في يزيد بن معاوية حين جاؤوه ببناات رسول الله صلى الله عليه وسلم سيّاتٍ بعد مقتل الحسين ، وجاؤوه برأس الحسين في طَسْتٍ . كان واليه على العراق السفاك بن السفاك عبد الله بن زياد قد وُضع الرأس الشريف بين يديه ، فجعل ينكت في أسنانه بقضيب ويقول : « في حُسْنه شيء » ما أجمل الرأس يا خبيث رواه البخارى .

وما أسرع ما ندمت أم المؤمنين وانتصحت بكلام ابنها أبي اليقظان ، ورجعت مكرمة أصحابها أمير المؤمنين نسوة وخَفَرًا من الجند .

ما كان للأم العزيزة من خيرة بما هي الحرب وإن كانت حملت القرب في أحد وسقت الجرحى . وعذَرها الإمام فكان مما قال : استأذني الزبير وطلحة في العمرة فأخذت عليهما العهد وأذنت لهما . فعرضاً أم المؤمنين لما لا يصلح لها . فبلغني أمرهم ، فخشيت أن يفتق في الإسلام فتق فاتبعتهم .

وذكر الإمام القصة فكان مما قال : أول ما وقعت الحرب أن صبيان العسكريين تسابوا ، ثم تراموا ، ثم تبعهم العبيد ، ثم السفهاء ، فنشبت الحرب . كذا نقل الحافظ عن الطبرى .

اللهم ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار

بنو آدم الخطاؤون التوابون

جاء في سنن الترمذي عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كل بني آدم خطاء ، وخير الخطائين التوابون » . وأخرج الحديث أيضا الإمام أحمد وابن ماجه والدارمي بإسناد حسن .

وأخرج الإمام مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « والذي نفسي بيده ، لو لم تذبوا لذهب الله بكم وأتى بقوم يذنبون فيستغفرون فيُغفر لهم » . زاد على هذا الحديث الحافظ المنذري في « الترغيب والترهيب » : « لو لم تذبوا لخشيت عليكم ما هو أشد منه : العُجب » . وقال : رواه البرزّ بإسناد جيد .

تعميم النبي صلى الله عليه وسلم نسبة الخطيئة والخطيئة إلى بني آدم لا يحيط من تكرمه الله للمُكرمين من بني آدم ، بل هو كشف عن طبيعة الطينة الآدمية التي زرع الله عز وجل فيها بذور المخالفة بما يغلب على الآدميين من غرائز تتأجج في نفوسهم ، وسهو ونسيان ، وتحريض إبليسي . أبونا آدم عليه السلام خليفة الله نسي فعصى ، حرضه الشيطان وأغواه . فكانت معصيته وإهباطه من الجنة إلى الأرض عقابا في الظاهر ، لكنه في الحقيقة معراج وتحقيق لمراد الله من خلقه إياه وتسويته إياه بيديه . كيف كان ينال آدم ، وكيف كانت تنال حواء عفو الله ورضاه لولا ندمهما واستغفارهما وابتهالهما إليه سبحانه حين قالاً : ﴿ ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين ﴾ (١) .

وليس الحديث النبوي الذي أقسم فيه صلى الله عليه وسلم أن الله عز وجل يستبدل بنا قوما آخرين لو لم نذنب تحريضا على انعصية . كلا ، وإنما هو ربط على

(١) سورة الأعراف الآية : ٢٣ .

قلوبنا الضعيفة وخوف عليها أن تنكسر إن أهدنا أو إحدانا اقترفت إثما . إن انكسر القلب وانقطع رجائنا من عفو انولى سبحانه فذلك اليأس ، ﴿ إِنَّهُ لَا يَأْسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴾ (١) . ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ . إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ (٢) .

أين تقع رحمته وهو الرحمان الرحيم ، على من يتنزل عفوه وهو العفو ، ومغفرته وهو غافر الذنب غفار غفور، إن لم يكن ثم تائب مستغفر؟ وكيف يظهر فعل التواب سبحانه إن لم يقترف العبد ما منه يتاب؟

تفهم الأحاديث خطأ إن شَمَّ منها أحد رائحة التشجيع على المعصية . فإن الله عز وجل لا يأمر بالفحشاء ، ورسوله صلى الله عليه وسلم لا يدعو إليها . لكن قدره سبحانه الذي رتب الأحداث وبنى المسببات على الأسباب ، خزائنه ملأى بالرحمة والعفو والمغفرة ، لا تفتح إلا بمفاتيح التوبة والاستغفار ، ولا توبة إلا من خطيأ وخطيئة ، ولا استغفار إلا من ذنب .

ثم إن الله عز وجل له من العباد والإماء كفرة فجرة ، وآخرون عصاة غواة هم أصحاب الكبائر تنالهم الشفاعة ، وآخرون محسنون ومحسنات لهم عند الله الزلفى من جملة ما ينالون به الزلفى التوبة والاستغفار .

المحسنون من عباد الله وإماءه ما هم معصومون . يصفهم الله عز وجل في كتابه الكريم فيقول : ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى ﴾ الذين يجتنبون كبائر الاثم والفواحش إلا اللثم إن ربك واسع المغفرة هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض وإذ أنتم أجنّة في بطون أمهاتكم فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى ﴿ (٣) .

(١) سورة يوسف الآية : ٨٧ .

(٢) سورة الزمر الآية : ٥٣ .

(٣) سورة الحجم الآيات : ٣١-٣٢ .

المسيئون العصاة هم مرتكبو الفواحش وكبائر الإثم . واللمم لا ينزه عنه المحسنون . عن اللمم قال سيدنا عبد الله بن عباس رضي الله عنهما : ما رأيت شيئا أشبه باللمم مما قال أبو هريرة : إن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إن الله كتب على ابن آدم حفظه من الزنى ، أدرك ذلك لا محالة . فزنى العينين النظر ، وزنى اللسان النطق ، والنفس تمنى وتشتهي ، والفرج يصدق ذلك أو يكذبه » . أخرجه البخاري ومسلم وأبو داود .

الحديث قائم بذاته ، وتفسير اللمم بما ذكر هو كلام ابن عباس . وابن عباس رضي الله عنه وعن أبيه مشهور بسعة فقهه بين الصحابة وأخذه بالرخص في الإفتاء ، عكس عبد الله بن عمر رضي الله عنهما المشهور بالشدائد . والورع أن يفهم المحسنون والمحسنات اللمم على ضوء أمر الله عز وجل بغض البصر : ﴿ قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ . وقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُّنَّ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ ﴾ (١) .

الورع أن يفهم الحديث حظ ابن آدم من الزنى على ضوء وصيته صلى الله عليه وسلم لعلي كرم الله وجهه ، قال له : « يا علي ، لا تتبع النظرة النظرة ، فإن لك الأولى وليس لك الآخرة » . رواه أبو داود عن بريدة رضي الله عنه .

بنو آدم المكرمون وبناته المكرمات ، صفوة المحسنين بعد الأنبياء عليهم السلام ، هم الصحابة والصحابيات رضي الله عنهم وعنهن . هم لنا نماذج بشرية ، ما هم ملائكة معصومون . لو كانوا ملائكة يمشون في الأرض مطمئنين ما صح أن يكونوا لنا مثلا ونموذجا . الملائكة أرواح في أجسام من نور . ما في داخل كياناتهم الأطهر من متنازع ينزعهم في طاعة الله والحضور الدائم مع أمره عز وجل . ضبعنا أبعد شيء عن طبعهم . ما منهم واحد إلا له عند ربه مقام معلوم . أما بنو آدم وبناته فهم في الدنيا في

(١) سورة النور الآيات : ٣٠ - ٣١ .

دار البلاء والامتحان : يرُسب هذا ، ويرتقى ذاك . تَهَيَّ النفس عن الهوى وعصيان نَزْع الشيطان وجهاد النفس الدائم هو المعراج للرقى .

لهذا كان الصحابة رضوان الله عليهم لنا مثلاً . بَشَّرَهم ما هم معصومون . لمكانِ النقص فيهم يكمله المجهود ، والخطأ يصححه الصواب ، والذنب تحمّوه التوبة واللمم يُلحقه الاستغفار فإذا هو مرقاة ، كانوا لنا نموذجاً صالحاً .

الكاملات المجاهدات خير نساءٍ طلعت عليهن الشمس بعد الأنبياء عليهم السلام . كن يصبين ويخطفن ، ويذنبن فيتنين ، ويقترفن اللمم فيستغفرن . وكذلك كان الكاملون المجاهدون : الصحابة رضي الله عنهم .

افترق الناس فرقتين في شأن الصحابة رضي الله عنهم : من المسلمين من يحرص أشد الحرص على النظر إليهم بعين التعظيم والتقديس حتى لا يرَضِي أن يُذكر أحدهم أو إحداهن بما يجري على البشر . عند المسلمين الحبيين للصحابة تطوى صفحة نزاع الصحابة وأخطاء الصحابة وخلاف الصحابة . موقف هارب من القواصم نجده عند أجيال العلماء الذين لم يحضروا النزاع ، ولا لهم بذكر الأخطاء وكوع ، ولا لهم منه درس . شعارهم تجاه خروج معاوية على الإمام علي وحربه وبغيه مثل شعارهم تجاه خطيئتنا عائشة : « تلك دماء عصمتنا الله من سفكها ، أفلا نعصم ألسنتنا من ذكرها ؟ » .

وانحبس فقه التاريخ الإسلامي ، ومن ثم فقه الدين ، في هذا الوقوف الورع المسالم القار بدينه .

وما هكذا كان الصحابة أنفسهم ولا التابعون . إن كان من الصحابة من سكت اتقاء الفتنة وابتغاء السلامة ، فإن منهم من قال للظالم : أنت ظالم . قالها حجر بن عدي رضي الله عنه وأصحابه فقتلهم معاوية بن أبي سفيان . وقالها علماء المدينة فخر بها عليهم ابنه يزيد . وقالها عالية قائمة مقاتلة عبد الله بن الزبير فقتله عبد الملك ابن مروان وقائده الحجاج بعد أن خرب عليه الكعبة ، رماها بالمنجنيق ، وهو صاروخ ذلك الوقت .

أخرج الإمام أحمد ومسلم والترمذي عن عامر بن سعد بن أبي وقاص عن أبيه رضي الله عنه قال له : « أمر معاوية سعدا قال : ما يمنعك أن تسبَّ أبا تراب ؟ » ..

قلت : (أبو تراب) كنية كَتَبَ بها رسول الله صلى الله عليه وسلم سيدنا عليا كرم الله وجهه ذات يوم وقد وجده نائما متوسدا الأرض ، فعلق التراب بوجهه . فهي كنية تحبب وعطف استعملها بنو أمية لإهانة من شرفه الله ورسوله وأمروا هم بسبه ولعنه على المنابر ستين سنة .

قال معاوية بن أبي سفيان وهو يومئذ متربع على كرسيه الملكي : « ما يمنعك أن تسبَّ أبا تراب ؟ فقال سعد رضي الله عنه : أما ما ذكرت ثلاثا قالهن له رسول الله صلى الله عليه وسلم لأن تكون لي واحدة منهن أحب إلي من حمر النعم . سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول - وخلفه في بعض مغازيه - فقال له علي : يا رسول الله أتخلفني مع النساء والصبيان ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى ؟ إلا أنه لا نبي بعدي » . وسمعت يقول يوم خيبر : « لأعطين الراية رجلا يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله » . قال : فتناولت لها . قال (النبي صلى الله عليه وسلم) : « ادعوا لي عليا » فأتيت به وهو أرمَدُ ، فبصق في عينيه ، ودفع الراية إليه ، ففتح الله عليه » .

سعد رضي الله عنه من العشرة المبشرين بالجنة ، من السابقين الأولين من المهاجرين ، يتناول طمعا أن يكون هو الرجل الذي يفضلُه رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال سعد يتم حديثه المعترض المقاوم لمعاوية : ولما نزلت هذه الآية ﴿ فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ﴾ ^(١) دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم عليا وفاطمة وحسنا وحسينا رضي الله عنهم ثم قال : « اللهم هؤلاء أهلي » .

روى أبو زرعة الدمشقي أن الحديث الغاضب من سعد كان في دار الندوة حين

(١) سورة آل عمران الآية : ٦١ .

حج معاوية ، فأخذ معاوية بيد سعد وأجلسه معه على سريريه - أي كرسي جلوسه - وأخذ يشتم له عليا .

إن كان من الفقهاء الورعين من سكت وانزوى ، فإن ذلك انحطاط عن درجة الأئمة . روى السيوطي رحمه الله في (تاريخ الخلفاء) هذه القولة الصريحة الشجاعة عن الحسن البصري أحد أئمة التابعين رضي الله عنهم . قال : « أفسد أمر هذه الأمة اثنان : عمرو بن العاص يوم أشار على معاوية برفع المصاحف ، والمغيرة بن شعبة حين أشار على معاوية بالبيعة ليزيد . ولولا ذلك لكانت شورى إلى يوم القيامة »

الفريق الثاني من الناس هم الخائضون في أعراض الصحابة رضي الله عنهم ، الروافض المذمومون الناقصون . تعالى بعضهم في علي حتى ألوهوه وعبدوه . وكفروا الصحابة جميعا ولعنوهم إلا نفرا قليلا منهم . سب رجل عليا فاستحق الصحابة اللعن ذلك ما فعلته الفتنة واقترفه الضالون المضلون . نعوذ بالله .

ملنا إلى إدراج الحديث عن الصحابييات رضي الله عنهن وما يمثلن من نموذج صالح في السياق التاريخي البشري . ذلك أن الصحابييات لم يعشن في قارورة مغلقة وبيت مغلق . ذلك أن منهن من أخطأت الخطأ الفادح ذا الأثر في تاريخ المسلمين . ذلك أن الجهاد والتعبئة ما هما تأمل في المثاليات وغسل الأيدي من أهوال الدنيا وأخطائها وخطاياها .

والحمد لله رب العالمين .

دعوا لى أصحابى

الحديث رواه الإمام أحمد بسند صحيح والبخاري عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « دعوا لى أصحابى . فوالذي نفسي بيده لو أنفقتم مثل أحد ذهباً ما بلغتم أعمالهم » .

صدقتم يا رسول الله . فازوا بصحبته وتربيتك ، فأنى لغيرهم أن ينال ذلك المنال فندعهم امتثالاً لأمرك بما ودعهم القرآن ، إذ ذلك قصدك ، لا أن نصم فلا نسمع ، ونقرأ فلا نعتبر .

يأخذ الورعون الفارون بدينهم الأمر النبوي أخذاً مطلقاً ، لا يتكلمون في الصحابة إلا بكل تجلّة وإعظام . فيغالون ويظوون الصفحات الناصعة التي فيها الدرس من تحوّل الصحابة وترقيتهم تحت التربية والتقويم . ما ولد الصحابة كاملين ، ولا استكملوا الإيمان منذ اللحظة الأولى لدخولهم في الإسلام . نحن الباحثين عن مسار تلك التربية العظيمة أشدّ الناس حاجة للكشف عن المفاصل التربوية ، عن لحظات الانتقال من طور لظهور ، لنستفيد ونحن نعيش فجر يقظة جديدة . ما هي المفاصل التربوية ولحظات الانتقال من جاهلية لإسلام ، ومن إسلام تشويه جاهلية إلى إيمان ، ومن إيمان يستكمل لإحسان ؟

واقعنا فتنه . والفتنة بمعناها القرآني النبوي الموسع اختلاط شديد ، وشوب أكيد وما يخرجننا من الفتنة إلا مثل ما أخرج الصحابة من جاهلية . غير هذا أن نكفر المجتمع ونُدعى الإيمان ، فنفتات على الحقيقة ونكذب على أنفسنا وعلى المسلمين .

ندع الصحابة بما ودعهم كتاب الله تعالى . المسبهم ازدرأ واحتقاراً حرماناً والعياذ بالله . تتبع هفواتهم تشهيراً كفراناً بجميل من لولا الله وجهادهم ما وصلنا الإسلام . لكن قراءة ما علّم القرآن وزجر ووبخ وهدد وخوف من أجل تلقي التعليم

والزجر والتوبيخ من باب «إياك أعني فاسمعي يا جارة»، ومن باب «الثور يضرب لما عافت البقر» هو عين الاهتداء والاقتداء. نتعلم من القرآن وما علم وزجر كالسامع الحاضر، والمرجور من باب أولى، والموبخ المخذر من باب أولى، تضرب له الأمثال العليا ليجتهد، وتوصف له العوائق النفسية والمراحل التربوية ليسهل عليه الاقتداء.

ما جاء في كتاب الله عز وجل من تقريع - موجه أحياناً للرسول - فالقصد الأول والأخير منه نحن معشر الأمة. مثلاً قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكُنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً إِذَا أَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيراً﴾^(١). وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَى إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾^(٢).

نبحث عن الأسوة الصالحة في الصحابييات. هن كُنَّ مثلاً يحتذى، لأن الرجال كانوا مثلاً. كان الكل مثلاً؛ لأن الكل كانوا بني آدم خطائين توابين، ولأن التربية النبوية التي نبحث عن مسارها وسيرها صنعت منهم بإذن الله وتوفيقه ما نعلم. من الضعف البشري صنعت يد الله القوة، ومن الهزائم صنعت النصر، ومن الذل صنعت العزة، ومن الجبن الشجاعة.

في بدر الكبرى قال الله تعالى: ﴿إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشِلَا وَاللَّهُ وَلِيَهُمَا﴾^(٣). وقال عز من قائل: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ﴾^(٤). في أحد وبخ تعالى فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا﴾^(٥). وقال عز وجل: ﴿أَوَلَمْ أَصَابِكُمْ مَصِيبَةٌ قَدْ

(١) سورة الإسراء: الآيات ٧٤-٧٥.

(٢) سورة الزمر الآية: ٦٥.

(٣) سورة آل عمران الآية: ١٢٢.

(٤) سورة آل عمران الآية: ١٢٣.

(٥) آل عمران الآية: ١٥٥.

أصبتم مثلها قلتم أتى هذا قل هو من عند أنفسكم ﴿١﴾ . في الخندق استنَّ الله تعالى ووصف : ﴿إِذْ جَاؤُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظَّنَّ﴾ هناك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديداً ﴿٢﴾ . في العسرة نزلت سورة التوبة بكاملها تصف خيانة المخلفين من المنافقين وتخاذل بعض المؤمنين : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَنْتُمْ قُلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ﴾ ﴿٣﴾ وقال تعالى وهو التواب الرحيم : ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبَ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رُؤُوفٌ رَحِيمٌ وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ ﴿٤﴾ .

تلك قصة كعب بن مالك وصاحبه ضاقت عليهم الأرض بما رحبت ندما ، كما ضاقت بالمسلمين خوفاً في حنين كما قال تعالى : ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمْ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ﴾ ثم أنزل الله سكينة على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنوداً لم تروها وعذب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين ﴿٥﴾ .

إننا إذا قرأنا آيات البطولة والشجاعة والخلق العظيم عند الصحابة والصحابيات دون أن نلّم بمواطن انهزموا فيها ، وأخرى زلزلوا فيها ، وأخرى أخطأ فيها بعض ، وأخرى زل فيها بعض ، وأخرى تصرف فيها بعض تصرفاً هو إلى فعل الجاهلية أقرب فإنما نبعد عنا المثل ونرفع البشر إلى مقام الملائكة ، وبذلك يفوتنا الاعتبار ، وتفوتنا العبرة .

(١) سورة آل عمران آية : ١٦٥ .

(٢) سورة الأحزاب الآيات : ١٠ - ١١ .

(٣) سورة التوبة الآية ٣٨ .

(٤) سورة التوبة الآيات : ١١٧ - ١١٨ .

(٥) سورة التوبة الآيات : ٢٥ - ٢٦ .

طابت الثمار في صيف سنة شديدة مُجدبة وحر شديد وقلّة من الزاد والماء .
 فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى التعبئة العامة لغزو تبوك ، وكان قبلها يُعَيِّن
 للقتال بعضاً دون بعض . وصف عمر بن الخطاب رضي الله عنه شدة الحال في تلك
 الغزوة التعبوية قال : « نزلنا منزلاً فأصابنا فيه عطش حتى ظننا أن رقابنا ستقطع ،
 وحتى إن كان الرجل ليذهب يَلْتَمِسُ الماء فلا يرجع حتى يظن أن رقبته ستقطع ،
 وحتى إن الرجل لينحر بغيره فيعصر فرثه فيشربه ويجعل ما بقي على كبده » .
 وكانت معجزة دعاء النبي صلى الله عليه وسلم ونزول مطر غزير .

في غزوة العسرة هذه ظهرت آيات البذل والعطاء : جاء أبو بكر إلى الرسول
 صلى الله عليه وسلم بماله كله ، وجاء عمر بشطر ماله ، وجهز عثمان ثلاثمائة بعير ،
 ولم يكن لعلي مال فيُعْطِي . وظهرت وسط هذه الصفحة الناصعة نُكْةُ أَشَارٍ إليها
 القرآن وحفظت قصتها السنة ؛ لأنها موطن درس مكمل ، تنقُصُ دلالة الدرس
 البطولي إن حُدِفَتْ منه القصة ، وتَقِلُّ نِصَاعَةُ الصفحة إن لم تُبرِزْها ضعفة كعب بن
 مالك وصاحبيه ، وندمهم ، وتوبة الله عليهم .

تخلف كعب بن مالك ومُروان بن الربيع وهلال بن أمية . ما عبأ رسول الله
 صلى الله عليه وسلم بالمنافقين المتخلفين وكانوا بضعة وثمانين رجلاً ، وإنما عذرهم
 ففضحهم القرآن وخَلَدَ في تصنيفهم آيات تتلى إلى يوم القيامة كما تتلى آيات
 وصف الأقسام الفائرة . لكن تَخَلَّفَ كعب وصاحبيه شكلاً بعد رجوع النبي صلى
 الله عليه وسلم حَدَثاً مهماً ، لأنهم كانوا من صالحِي المؤمنين . عثروا عثرة مؤلمة .

قاطعهم النبي صلى الله عليه وسلم وقاطعهم الصحابة ، وقاطعتهم نساؤهم .
 تصف امرأة كعب كعباً في ندمه قالت : « وإنه والله ما به من حركة إلى شيء . وإنه
 والله ما زال يبكي منذ كان من أمره ما كان » . وكان يوم نزول آية التوبة على
 المؤمنين وعلى كعب وصاحبيه يوم عيد ، ركب الفرسان ليلغوا البشرية . في قراءة
 قصته الطويلة المتفق عليها عبرة من ندمه وصدقه رضي الله عنه .

إن كانت عشرة كعب بن مالك وصاحبيه قضية أفراد فإن عشرة حاطب بن أبي بلتعة قضية أمة . حاطب بن أبي بلتعة رضي الله عنه من أهل بدر ، تلك المعركة التي أسس الله بها الإسلام ومكن له في الأرض . لما عزم رسول الله صلى الله عليه وسلم على غزو مكة عام الفتح السنة الثامنة ، أمر المسلمين بالخروج دون أن يشيع الاتجاه ليحفظ سِرَّ الحركة ويفاجئ قريشاً بعد أن نقضت هي وحلفاؤها عهد الحديبية . لم يُقدِّر حاطب خطورة الموقف ، كان وعيه السياسي وخبرته العسكرية في درجة الصفر ، فأرسل إلى قريش رسالة مع امرأة يخبرهم بمسير النبي صلى الله عليه وسلم إليهم .

خيانة عظمى كيان يكون فعل حاطب لولا سابق عناية الله به وبالمؤمنين . نزل الوحي ، فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم علياً والزبير والمقداد فحبسوا المرأة . وقال عمر : يا رسول الله دعني أضرب عنق هذا المنافق فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنه قد شهد بدرا ، وما يدريك لعل الله اطلع على من شهد بدراً فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم » . رواه البخاري .

حسنة عظيمة سبقت فمحت سيئة عظيمة : ﴿ إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين ﴾ (١) . وكان عذر حاطب أنه كان لصيقاً وحليفاً لقريش ولم يكن من عشيرتهم ، فأراد أن يتخذ عندهم يداً ليحموا قرابته . وعي لا يميز بين مراتب الأحوال وأهمية الأفعال .

أبو لبابة بشير بن المنذر كان من أعيان الأنصار . استعمله رسول الله صلى الله عليه وسلم على المدينة يوم بدر ، واستعمله في غزوة السويق وفي غزوة بني قينقاع . حاصر النبي صلى الله عليه وسلم بني قريظة اليهود الذين غدروا بالمسلمين وتآلبوا عليهم في غزوة الخندق مع قريش والأحزاب . فلما اشتد عليهم الحصار طلبوا أن يستشيروا أبا لبابة . فذهب إليهم ، فقام إليه الرجال وجهش إليهم بالبكاء النساء

(١) سورة هود الآية : ١١٤ .

والصبيان ، فأشفق ورقاً . فلما سألوه عن مصيرهم إن هم نزلوا على حكم النبي صلى الله عليه وسلم أشار بيده إلى حلقه : إنه الذبح . وندم أبو لبابة على فلتته أشد الندم . فربط نفسه إلى عمود في المسجد وقال : « إني خنت الله ورسوله . لا أبرح مكاني هذا حتى يتوب الله علي » .

نزل الوحي على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالتوبة على أبي لبابة وهو في بيت أم سلمة رضي الله عنها ، فاستأذنت النبي صلى الله عليه وسلم فأذن لها ، وأسرعت بالبشرى إلى أبي لبابة . فأبى أن يُطلق سراح نفسه حتى جاء النبي صلى الله عليه وسلم ففك رباطه .

عند الشيخين عن أنس رضي الله عنه أن ناساً من الأنصار لم يعجبهم ما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد حنين حين أعطى رجالاً من قريش يتألف قلوبهم ولم يعط الأنصار شيئاً . احتجاج ومعارضة قالوا : « يغفر الله لرسول الله صلى الله عليه وسلم يعطي قريشاً ويتركنا وسيوفنا تقطر من دمائهم » .

جمعهم رسول الله صلى الله عليه وسلم في مجلس خاص وقال : « إني أعطي رجالاً حديثي عهد بكفر أتألفهم . أفلا ترضون أن يذهب الناس بالأموال وترجعون إلى رجالكم برسول الله ؟ فوالله لَمَا تَنْقَلِبُونَ به (ترجعون به) خير مما ينقلبون به » . وهكذا أرضاهم صلى الله عليه وسلم بعد أن كادت تعصف الدنيا بهم .

الحديث النبوي الذي عَنُونَا به هذه الفقرة خاطب به رسول الله صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد ، وما أدراكُن ما خالد سيف الله بطل الإسلام العظيم . أسلم خالد قبيل الفتح ، فتح مكة ، في السنة الثامنة . ومنذ إسلامه ملأ الساحة ببطولاته ، فأنقذ موقف المسلمين أمام جيوش الروم الجرارة في غزوة مؤتة في نفس السنة . وقاد كتيبة يوم الفتح .

بعد الفتح أرسله رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى قبيلة جَذِيمَةَ ليدْعُوَ لَا لِيُقَاتِلَ . كانت مدة تربيته قصيرة جداً . كان حديث عهد يومها بجاهلية . كان في

مرحلة مراهقة دينية . وكان رجل سيف . لم يَعمَ ما أُمِرَ به فكثف الناس وأمر بقطع الرؤوس . وكان معه سيدنا عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه فقال له : عملت بأمر الجاهلية في الإسلام . غضب خالد وخصم ، فكان حديث « دعوا لي أصحابي » جزءاً مما وبخ به رسول الله صلى الله عليه وسلم خالداً .

لم يُحسِنُ بنو جذيمة أن يقولوا (أملمنا) لما دعاهم خالد إلى الإسلام . فجعلوا يقولون (صَبَّأْنَا صَبَّأْنَا) . فقتل خالد . فلما قدم الصحابة على النبي صلى الله عليه وسلم وأخبروه الخبر رفع يديه وقال : « اللهم إني أبرأ إليك مما فعل خالد » . ألحقنا الله بخالد بالصالحين

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

خشية الله ومحبة رسول الله

في فصل سابق ركزنا على حب الله تعالى وحب رسوله والحب فيه . وذلك فقه مغيب ، مسكوت عنه . وذلك فقه لا يكمل إلا بفقه لازمته ونتيجته هي خشية الله وتقوى الله . علامة صدق المحبة في الله أن يسري بين القلوب ، من قلب لقلب ، حب الله وحب رسول الله . وعلامة رسوخ حب الله ورسوله في القلب نشاط الأعمال القلبية يتلجلج فيه ويتعاقب الخوف والرجاء . من أحب في زعمه ولم تظهر عليه وفيه الخشية والتقوى فقد غوى . ومن دهمه الخوف حتى لم يبق مكان للرجاء فيئس وقنط فقد هوى .

الخوف من الله ومن عذاب الله خوف على النفس من العقاب . والتقوى جعلك العمل الصالح وقاية بينك وبين ربك . والخشية خوف يشوبه التعتيم ويعتله العلم . من خافت مقام ربها حَتَّان ، ولمن اتقت ربها حب الله لها ، وخشية الله مقام الرسل ومقام أولي العلم . قال الله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَلْعَوْنَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴾ (١) . وقال عز من قائل : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ (٢) .

خص الله عز وجل الصحابة بصحبة سيد ولد آدم صلى الله عليه وسلم ، فتلك مزية لا يلحقهم فيها لاحق . كانت لهم القدوة من سلوكه ، والتعلم من حديثه . وكان لهم على الخصوص الشربُ المبائر من قلبه الكريم على الله . قلوب شربت من قلب . إذا ربَّنَا مَاتِي التربة وماخذها حسب أهميتها قلنا : الصحبة تشرب قلبي ، وقدوة ماثلة ، وتعلم .

(١) سورة الأحزاب الآية : ٣٩ .

(٢) سورة فاطر الآية : ٢٨ .

(المرء على دين خليله) . لا عجب أن اجتذب مغناطيس القلب النبوي المنور القلوب فأحبته أشد ما يكون الحب ، فأثى القلوب منه الدين ، وأخذت القلوب منه الدين .

إن كانت القدوة وكان التعليم يهديان للأعمال الظاهرة ، فإن أعمال القلب يأخذها قلب عن قلب مباشرة على أثر المحبة .

كان حبيب الله صلى الله عليه وسلم ، وهو قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر - نصاً قرآنياً - أشد الناس خشية من ربه ، لأنه كان أعلمهم به وأقربهم إليه . روى الشيخان والترمذي عن أمنا عائشة رضي الله عنها قالت : « ما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم مستجمعاً قط ضاحكاً حتى ترى منه لهوآته (اللهوة اللحمة في أقصى الحلق) . إنما كان يتبسم . قالت رضي الله عنها : فكان إذا رأى غيماً (سحاباً) عرف في وجهه . قلت : يا رسول الله الناس إذا رأوا الغيم فرحوا ، رجاء أن يكون فيه المطر ، وأراك إذا رأيت غيماً عرف في وجهك الكراهية فقال : (يا عائشة وما يؤمنني أن يكون فيه عذاب ؟ قد عذب قوم بالريح ، وقد رأى قوم العذاب فقالوا : هذا عارض ممطرنا) .

وأخرج الترمذي بإسناد حسن عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إني أرى ما لا ترون ، وأسمع ما لا تسمعون . أظن السماء (كثرت فيها الملائكة حتى كأنها ترفع صوتها كما تفضل الإبل إذا حملوا عليها) ، وحق لها أن تحيط . ما فيها موضع أربع أصابع إلا وملك واضع جبهته لله ساجدا . والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ، ولبكيتم كثيراً ، وما تلذذتم بالنساء على الفراش ، ولخرجتم إلى الصعدات (الطرقات) تجأرون (تستغيثون) إلى الله . لوددت أني شجرة تعضد (تقطع) » .

دخل صلى الله عليه وسلم على شاب وهو في الموت فقال : (كيف تجدك ؟) قال : أرجو الله يا رسول الله ، وإني أخاف ذنوبي . فقال رسول الله صلى الله عليه

وسلم : « لا يجتمعان في قلب عبد في مثل هذا الوطن إلا أعطاه الله ما يرجو منه ، وآمنه مما يخاف » . رواه الترمذي عن أنس بسند حسن .

وأوصى صلى الله عليه وسلم عقبة بن عامر قال : « يا عقبة احرس لسانك ، وليسمعك بيتك ، وابك على خطيئتك » . رواه الإمام أحمد والترمذي عن عقبة .

وكذلك كانوا رضي الله عنهم : بكائين أوابين أوأهين من خشية الله . سيدنا عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قرأ من ميدان القتال في سرية من سرايا رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال : بعثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في سرية ، فلما لقينا العدو انهزمنا في أول غادية (صباح) . فقدمنا المدينة في نفر ليل فاختفينا . ثم قلنا : لو خرجنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم واعتذرنا إليه . فخرجنا إليه ثم التقينا فقلنا : نحن الفرارون يا رسول الله فقال : بل أنتم العكارون (الكرارون) وأنا فتنكم . رواه الإمام أحمد عن عبد الله بن عمر . في رواية : (فررنا من الزحف وبؤنا بالغضب) . إشارة إلى قوله تعالى ﴿ وَمَنْ يُؤْلِهِمْ يَوْمَ ذَٰبِرِهِ إِلَّا مَتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مَتَحِيزًا إِلَىٰ فِتْنَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ ﴾ (١) .

غلب عليهم الخوف فاختفوا ، فعدّل رسول الله صلى الله عليه وسلم الكفة وفر في واقعة الجسر في خلافة عمر صحابي اسمه سعد القاري . فأخذ يكي ويتحسر حتى سنحت له الفرصة فرجع إلى الأرض التي انهزم فيها فقاتل في وقعة القادسية حتى قتل رضي الله عنه .

أحبوه واتخذوه خليلا ، فتخلّل دينه قلوبهم . هو صلى الله عليه وسلم ودّ لو كان شجرة تُعضد خشية من ربه عز وجل . فكذلك نجد صاحبه أبا بكر رضي الله عنه . روى ابن أبي شيبة وهناد والبيهقي عن الضحّاك قال : « رأى أبو بكر الصديق رضي الله عنه طيراً واقفاً على شجرة فقال : طوبى لك يا طير والله لو ددت أني كنت مثلك ، تقع على الشجر ، وتأكل من الثمر ، ثم تطير وليس عليك حساب ولا

(١) سورة الأنفال الآية : ١٦ .

عذاب والله لَوَدِدْتُ أَنِّي كُنْتُ شَجَرَةً إِلَى جَانِبِ الطَّرِيقِ ، مَرَعَلِيَّ جَمَلٌ فَأَخَذَنِي فَأَدْخَلَنِي فَاهُ ، فَلَاكِنِّي ثُمَّ أَزْدَرَدَنِي (مَضْغَنِي وَبَلْعَنِي) ثُمَّ أَخْرَجَنِي بَعْرًا وَلَمْ أَكْ بِشَرٍّ .

وروى ابن سعد أن سيدنا عبد الله بن عباس رضي الله عنهما دخل على عمر ابن الخطاب رضي الله عنه وَقَدْ طُعِنَ ، فَقَالَ لَهُ : « أَبَشِّرْ بِالْجَنَّةِ صَاحِبْتَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَطَلْتَ صَجْبَتَهُ ، وَوَلَّيْتَ أَمْرَ الْمُؤْمِنِينَ فَقَوَّيْتَ وَأَدَيْتَ الْأَمَانَةَ . فَقَالَ عُمَرُ : أَمَا تَبْشِيرُكَ يَا بِي بِالْجَنَّةِ فَوَاللَّهِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَوْ أَنَّ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا لِي لَا تَقْدَرْتُ بِهَا مِنْ هَوَلٍ مَا أَمَامِي قَبْلَ أَنْ أَعْلَمَ الْخَيْرَ . وَأَمَّا قَوْلُكَ فِي إِمْرَةِ الْمُؤْمِنِينَ ، فَوَاللَّهِ لَوَدِدْتُ أَنَّ ذَلِكَ كَفَافٌ لَائِي وَلَا عَلَيَّ . وَأَمَّا مَا ذَكَرْتَ مِنْ صَحْبَةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَذَاكَ (أَيِ ذَاكَ مَا أَرَجُوهُ) . وَذَكَرَ ابْنُ سَعْدٍ أَنَّ عُمَرَ سَأَلَ ابْنَ عَبَّاسٍ أَنْ يَعْبِدَ عَلَيْهِ كَلَامَهُ ، فَلَمَّا فَعَلَ قَالَ : « أَتَشْهَدُ بِذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ تَلْقَاهُ ؟ قَالَ : نَعَمْ فَفَرَحَ عُمَرُ بِذَلِكَ وَأَعْجَبَهُ . »

وروى أبو نعيم عن عبد الله بن عمر قال : « كَانَ رَأْسُ عُمَرَ عَلَى فُخْذِي فِي مَرَضِهِ الَّذِي مَاتَ فِيهِ . فَقَالَ لِي : ضَعْ رَأْسِي عَلَى الْأَرْضِ ! قَالَ : فَقُلْتُ : وَمَا عَلَيْكَ كَانَ عَلَى فُخْذِي أَمْ عَلَى الْأَرْضِ ؟ قَالَ : ضَعْنِي عَلَى الْأَرْضِ قَالَ : فَوَضَعْتُهُ عَلَى الْأَرْضِ فَقَالَ : وَيْلِي وَيْلَ أُمِّي إِنْ لَمْ يَرْحَمْنِي رَبِّي ! »

خشية الله ثمرة العلم بالله ، خشية الله دين شربه الشباب والكهول من القلب المنور . أحبه الحب الخارق فأفاض عليهم من بركة محبته ما صيرهم إلى أن ما نقرأ من آيات التقوى ، والشجاعة ، ونبذ الدنيا ، والإقبال على الآخرة ، والشغف بذكر الله والشوق إلى لقاء الله ، وخوف لقاء الله .

حب تكشف لنا عائشة رضي الله عنها نموذجاً منه ، قالت : « جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّكَ لِأَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ نَفْسِي وَإِنَّكَ لِأَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ وَلَدِي وَإِنِّي لَأَكُونُ فِي الْبَيْتِ فَأَذْكُرُكَ ، فَمَا أَصْبِرُ حَتَّى آتِيَ فَأَنْظُرَ

إليك . وإذا ذكرتُ موتي وموتك ، عرفتُ أنك إذا دخلتَ الجنةَ رفعتَ مع النبيين ، وأني إذا دخلتَ الجنةَ خشيتُ أن لا أراك . فلم يردْ عليه النبي صلى الله عليه وسلم شيئاً حتى نزل جبريل عليه السلام بهذه الآية : ﴿ ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ﴾ (١) . أخرجه الطبراني بسند صحيح .

يُثْبِتُ على حبه الرجال والنساء ، وَيَنْشَأُ على حبه الصغار . روى الطبراني عن أنس رضي الله عنه قال : « لما كان يومُ أحدٍ حاص أهل المدينة حيصة (اضطربوا وفروا) وقالوا : قُتِلَ محمداً حتى كثرتِ الصواريخ (الباكيات الصارخات) في ناحية المدينة . فخرجت امرأة من الأنصار محرمة ، فاستقبلتُ بأبيها وابنها وزوجها وأخيها (أخبرت بأنهم قُتلوا) ، لا أدري أيهم استقبلت به أولاً . فلما مرت على أحدهم قالت : من هذا ؟ قالوا : أبوك ، أخوك ، زوجك ، ابنك . تقول : ما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ يقولون : أمامك . حتى دَفَعْتُ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخذت بناحية ثوبه ثم قالت بأبي أنت وأمي يا رسول الله لأبالي إذا سلمت من عَطَبٍ » والقصة يرويها أيضاً ابن اسحاق ، وفي روايته تقول المرأة حين رآته صلى الله عليه وسلم حياً : « كل مصيبة بعدك جللٌ (هينة) » .

حب عظيم يفدي المحبوب بالروح . في أحد كان لأم عُمارة موقفها الخالد وكان أبو طلحة يرفع صدره ليتلقى النبل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ويقول : « هكذا بأبي وأمي أنت يا رسول الله لا يصيبك سهم . نحري دون نحرك » . كذا رواه الإمام أحمد .

طلحة بن البراء غلام جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فجعل يَلْصِقُ به ويُقبل قدميه . قال : « يا رسول الله مرني بما أحببت ولا أعصي لك أمراً فعجب لذلك النبي صلى الله عليه وسلم وطلحة غلام صغير . ومرض الغلام مرض الموت ، فأمرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يَعْلَمُوهُ إذا مات ليصلي عليه . لكن

(١) سورة النساء الآية : ٦٩ .

الغلام - وهو يُحْتَضَرُ - قال لهم : اذفوني وألحقوني بربي عز وجل ، ولا تدعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإني أخاف عليه اليهود أن يضاب في سببي فلما أصبح الصباح وأخبروا النبي صلى الله عليه وسلم جاء فصاف الناس أمام قبر طلحة ورفع يديه فقال : اللهم اِنِّ طَلَحَةَ تَضَحِكُ إِلَيْهِ وَيَضْحَكُ إِلَيْكَ . رواه الطبراني وحسنه الهيثمي .

في جِدِّ الْقِتَالِ يُفْتَدَى الْمَحْبُوبُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْأَرْوَاحِ ، وفي سكرات الموت تؤثر سلامته على رحمة خاصة ترجى من حضوره . وتغطي محبته الهفوات والعترات . روى ابن عساكر عن الزهري قال : شُكِّيَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ حَذَافَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ صَاحِبُ مِزَاحٍ وَبَاطِلٍ . فَقَالَ : اتركوه فَإِنَّ لَهُ بَطَانَةَ يُحِبُّ اللَّهُ وَرَسُولَهُ .

الناس على درجة محبتهم ، وعلى دين من يحبون ، وعلى قدر قلب المحبوب . لذلك فرح الصحابة رضي الله عنهم فرحا شديدا يوم أخبرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن المرء مع من يحب . قال أنس : فما فرحنا بشيء فرحنا بقوله صلى الله عليه وسلم : أنت مع من أحببت . قال أنس : فأنا أحب النبي صلى الله عليه وسلم وأبا بكر وعمر رضي الله عنهما ، وأرجو أن أكون معهم يحيي إياهم . رواه الشيخان . وعند الترمذي أن رجلا سأل النبي صلى الله عليه وسلم قائلا : يا رسول الله الرجل يحب الرجل على العمل من الخير يعمل به ولا يعمل مثله ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (المرء مع من أحب) .

نعود ثم نعود إلى رأس الحكمة : وهي : (الصحبة أول الطريق) . ما كانوا صحابة إلا لأنهم أحبوا . وتركوا فينا الوصية بالصحبة كما سمعوها من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكما ذاقوا هم المحبة ، وكما أدركوا أهميتها القصوى . قال سيدنا عبد الله بن عمر رضي الله عنهما كما أخبر مجاهد ونقله المناوي : فَإِنَّكَ لَا تَنَالُ الْوِلَايَةَ إِلَّا بِذَلِكَ ، وَلَا تَجِدُ طَعْمَ الْإِيمَانِ حَتَّى تَكُونَ كَذَلِكَ . يعنى الحب فى الله والبغض فى الله . والله ولى المؤمنين .

بسط الدنيا

ما سكنت خشية الله في قلوبهم وقلوبهن إلا لأنهم أحبوا وأحبين من يخشى الله
امتزج في آدميتهم الخطاة التوبة ما هو نور على نور في بشرته المعصومة صلى الله
عليه وسلم . حذرهم من بسط الدنيا وفتنتها ، ولولا الوصلة القلبية والقدرة الفعلية
لكانت البوصية كلاما . حثهم على جهاد النفس وكفها وامتلاك زمامها ، ولولا آيات
جهاده المتلوة والعملية المؤيدة بنصر الله لكان حديثا يذهب اليوم منه بذكرى الأمس
أوصاهم صلى الله عليه وسلم قال : (المجاهد من جاهد نفسه) . أخرجه الإمام
أحمد والترمذي عن فضالة بن عبيد بسند صحيح . أوصاهم بجهاد النفس الصابئة
إلى الدنيا الراغبة فيها .

التعبئة جهاد نفس ، إصلاح ذات قبل مناداة غير . تُعَبِّئُ أُمَّةً وَأَنْتِ أُمَّةٌ لِلشَّهَوَاتِ
أسيرة في شَرِّك الدنيا وشَرِّك التقاليد والعادات لا تستطيعين تخالفينها تَرِيْنُ بَنَاتِكَ
وأبناءك إن كانت نَفْسُكِ سيدة الموقف لا عقلُك المومن وقلبك العامر بحب الله
وخشية الله تعبئة أُمَّة قَلْبُ عَالَمٍ . كيف تقلبين العالمَ وَأَنْتِ لَمَّا تَتَوْبِي توبة الذي ربط
نفسه بعمود المسجد لزلها ربطُ جسم عَصَى لثُرْبُطُ نَفْسٍ أَمَرَتْ بِالْمَعْصِيَةِ .

لو حذرهم صلى الله عليه وسلم وما كان قدوة ، وزهدهم في الدنيا وما كان
أزهدهم فيها ، وعبَّأهم بالشعارات والخطب وما كانت حقيقته مثالا لما دعا إليه ، لَمَا
كانوا هم هُم ، ولَمَّا كُنْ هُنَّ هُنَّ . كيف يصرف وجوههم إلى الآخرة وإلى إرادة
وجه الله لو لم يكن هو ينبوع الإرادة وقدوة التجافي عن دار الغرور والإنابة إلى دار
البقاء محبة أَصَلَّتِ الصَّحْبَةُ ، صحبة أثمرت ذكر الله وخشية الله ، صدق التقى به
تصديق فاعتنقه . ﴿ وَالَّذِي جَاءَ بِالصَّدَقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ لَهُمْ مَا
يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جِزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿ (١) .

شوقهم إلى لقاء الله فاشتاقوا لما يرون من دلائل قربيه من ربه . قال لهم :
« الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر » . أخرجه مسلم والترمذي عن أبي هريرة رضي
الله عنه . خطبهم يوماً فقال من أعلى منبره : « إن مما أخاف عليكم بعدي ما يفتح
عليكم من زهرة الدنيا وزينتها » . وضرب لهم مثل الحياة الدنيا والرائع فيها الغافل عن
الله بدابة أكلت خَضِرًا قَلَطَتْ وبالت ثم رتعت . وقال : « وإن هذا المال خَضِرٌ حُلُو
ونِعَمٌ صاحبُ المسلم هو لمن أعطى منه المسكين واليتيم وابن السبيل ، وإن من يأخذه
بغير حقه كالذي يأكل ولا يشبع ، ويكون عليه شهيدا يوم القيامة » . رواه الشيخان
والنسائي عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه .

عَلَّمَ صلى الله عليه وسلم بالكلمة ، وعلم بالقدوة ، وعلم بضرب الأمثال : « مر
بالسوق داخلا من بعض العوالي (أطراف الجبل) ، والناس كَنَفَتِيه (حواليه) ، فمر
بجَدِّي مَيْتٍ أَسْكُ (مقطوع الأذنين) ، فتناولهُ وأخذ بأذنيه ، ثم قال : أيكم يحب أن
هذا له بدرهم ؟ قالوا : ما نحب أنه لنا بشيءٍ ما نصنع به إنه لو كان حيا كان عيبا ،
إنه أَسْكُ قال : فوالله لَلدُّنْيَا أهون على الله من هذا عليكم » . أخرجه مسلم عن
جابر بن عبد الله رضي الله عنه .

بعد حياة زاهدة في الدنيا أشد الزهد ، وقَبِيل وفاته صلى الله عليه وسلم ، زار
قَتْلَى أحد كَالْمُودَّعِ للأحياء والأموات ، فصلى عليهم ، ثم صعد المنبر فقال :
« إني بين أيديكم قَرَطُ (سابق أمامكم) وأنا عليكم شهيد . وإن موعدكم الخوض ،
وإني لأنظر إليه من مقامي هذا . وإني لست أخشى عليكم أن تشركوا . ولكني
أخشى عليكم الدنيا أن تنافسوها » . رواه البخاري عن عقبة بن عامر رضي الله عنه
قال عقبة : فكانت آخر نظرة نظرتُها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

من هجم على الدنيا ليغير الدنيا وحب الدنيا ملء نفسه حقيقاً أن تصرعه الدنيا
وتنسيه الآخرة . الدنيا التي بدأ فتحها في زمن النبي صلى الله عليه وسلم واستمر
بعده بقوة الانطلاقة الأولى كانت دنيا قبلية وزراعة وانكفاء أقوام عن أقوام . ونحن

دنيانا الحاضرة ، وما يتراءى في المستقبل أفحش ، هي دينا صراع على البقاء بين حضارة مادية علموية غنية مسلحة غازية ، وبين مستضعفين ما لهم من مقومات القوة شِرْوِيّ نقيير بالنسبة لغيرهم . كثرت حاجتنا المعاشية من دنيانا ، وقلت جدوانا ، وكثرت المغريات من حولنا في القرية العالم ، في العالم السوق . فإن كانت قراءتنا لزهد النبي وأصحاب النبي نافعة فليس من التمثل بنمط تقشفهم وتقللهم من الدنيا ، لكن من التشبع بروح الترفع عن الدنيا وقناعة القلوب من متاعها وزينتها .

كان الفقرُ عاما في ذلك المجتمع المثالي ، والتفاوت الطبقي لا يتجاوز امتلاك الغني بضعة أجمالٍ وحديقة نخل . انبسطت الدنيا على الأمة ، ثم انزوت ، ثم امتدت ، ثم انجزرت على مدى قرون . واختل ميزان العدل ، فالأمة نفضت بفوضى دولارات بألوف ألوف الألوف تذروها الرياح في حرب العرب على العرب ، والأمة جوع وبؤس وعُري وموت . يزهّد رواد الكازينوهات يقال فيها للنادل والغانية زه ! وتعطي ألف دولار أو مليون دولار ؟ أو يزهّد جيوش من الشباب العاطل انسدت أمامه الآفاق ؟ أو يزهّد مساكين البنغلاديش والسوائيم البشرية في أفريقيا ؟

كيف يجمع الزهد هذه المتناقضات والإيمان بالله وباليوم الآخر خاب في الأفعدة ؟ كيف تأتمر بالزهد والعالم من حولنا تنافس بلا نهاية ، وترف يلطم وجه الفقر ، والنّفطي يتألق في عباة الذهبية الفضاضة الطاعمة الكاسية جنبا إلى جنب مع العُرابي السويسري وأمير العالم الياباني في أعلى درجة الدخل الفردي السنوي ؟

الزهد تربية وإيمان وتوجه كلي للآخرة . الزهد روح تظهر فضيلته مع الفقر العام لا كلفة عليه إلا جهاد النفس وكفها عن التنافس في الدائرة المحدودة . وعلى الزهد لتظهر روحه في عالم التنافس الكلي في العالم السوق الهائج المائج كلف منها جهاد التنمية ، وجهاد العدل ، وجهاد تحرير الأمة ، وجهاد تحرير عقل الأمة ، وجهاد كفاح أعداء الأمة ، وجهاد صون الأمة عن الوباء من كل نوع ، وجهاد توحيد الأمة .

تعبئة شاملة وجهاد شامل . وإلا فالموت . جهاد النفس وتربية أجيال ، وإلا فالتعبئة خيال . لذلك نستنتق المثال النبوي الصحابي ، ثم نستنتق . ونستلهم ثم نستلهم .

قالت أمنا عائشة رضي الله عنها : « كان يأتي علينا الشهر ما نوقد فيه نارا ، إنما هو التمر والماء ، إلا أن يُؤتي باللحيم » . في رواية : « ما شبع آل محمد من خبز البر (القمح) ثلاثا حتى مضى لسبيله » . في رواية أخرى : « ما شبع آل محمد من خبز شعير يومين متتابعين حتى قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم » . في رواية أخرى : « ما أكل آل محمد أكلتين في يوم واحد إلا وإحدهما تمر » . هذه روايات البخاري ومسلم عنها رضي الله عنها .

قال النعمان بن بشير رضي الله عنه وقد عاش حتى رأى كنوز كسرى تُساق إلى عمر : ذكر عمر ما أصاب الناس من الدنيا فقال : « لقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يظل اليوم يلتوي ، ما يجد من الدقل (التمر الرديء) ما يملأ به بطنه » . رواه مسلم . لا يجد لأنه صلى الله عليه وسلم كان يصرف أموال المسلمين مصارفها فكان يعطى ما بين جبلين من غنم وإبل . لكنه لنفسه كان مالكا ، وعلى بطنه الشريف كان يربط الحجر من الجوع .

مات صلى الله عليه وسلم ودرعه مرهونة عند يهودي في ثلاثين صاعا من شعير رواه الشيخان والنسائي عن أمنا عائشة رضي الله عنها . وعنها روى الشيخان والترمذي قالت : « توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وليس عندي شيء يأكله ذو كبد إلا شطر (نصف كيل) شعير في رف لي . فأكلت منه حتى طال علي ، فكلته ففني » .

بعد وفاته صلى الله عليه وسلم دخل يوماً على سلمى امرأة أبي رافع رضي الله عنهما الحسن بن علي وعبد الله بن جعفر وعبد الله بن عباس رضي الله عنهم فقالوا لها : « اصنعي لنا طعاما كان يعجب رسول الله صلى الله عليه وسلم أكله » . فقالت :

يَا بَنِي إِدَا لَا تَشْتَهَوْنَهُ الْيَوْمَ قَالَتْ : فَقِمْتُ ، فَأَخَذْتُ شَعِيرًا فَطَحَنْتَهُ وَنَسَفْتُهُ (نَفَخْتُ عَلَى النَّخَالَةِ) وَجَعَلْتُ مِنْهُ خَبْزَةً . وَكَانَ أَدَمُهُ الزَّيْتُ . وَنَثَرْتُ عَلَيْهِ الْقُلْفُلَ فَقَرَّبْتُهُ إِلَيْهِمْ وَقُلْتُ : كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَحِبُّ هَذَا . رَوَاهُ الطَّبْرَانِيُّ بِإِسْنَادٍ جَيِّدٍ .

هُوَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي الْعِزِّ وَالْعِزُّ عَنْ الدُّنْيَا . كَانَتْ الْجَنَّةُ وَالنَّارُ وَالْحَوْضُ يَرَاهَا رَأْيُ الْقَلْبِ وَرَأْيُ الْعَيْنِ . غَيْرُهُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ يَصْدُقُونَ فَتَارَةً تَغْلِبُ جَاذِبِيَّةُ الدُّنْيَا ، وَطَوْرًا يَحْضُرُ الْإِيمَانُ وَخَشْيَةُ اللَّهِ وَاحْتِقَارُ الْمُلَذَّاتِ وَالْمَالِ فِي جَنْبِ مَا عِنْدَ اللَّهِ .

وَكَانَ الصَّحَابِيَّاتِ وَالصَّحَابَةِ دَرَجَاتٌ فِي هَذَا الْمَعْنَى . أُنْسُ يَقْصُ خِنَاقَهُ مَعَ أُمِّ أَيْمَنَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا الْحَاضِنَةِ الْمُدَلَّلَةِ ، وَهُوَ كَانَ غُلَامًا يَوْمَئِذٍ فِي الرَّابِعَةِ عَشْرَةِ أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ . قَالَ : « كَانَ الرَّجُلُ يَجْعَلُ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ النَّخْلَاتِ (لِيَجْنِيَ ثَمَرَهَا) حَتَّى افْتَتَحَ قَرِيظَةً وَالنَّضِيرَ . وَإِنْ أَهْلِي أَمَرُونِي أَنْ أَتِيَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَسْأَلَهُ الَّذِي كَانُوا أَعْطَوهُ أَوْ بَعْضَهُ (أَيْ لِيَرُدَّ عَلَيْهِمْ نَخْلَهُمْ) . قَالَ وَكَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ أَعْطَاهُ أُمُّ أَيْمَنَ . فَجَاءَتْ أُمُّ أَيْمَنَ ، فَجَعَلَتْ الثُّوبَ فِي عُنُقِي تَقُولُ : كَلَا وَالَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَا يَعْطِيكُمْ وَقَدْ أَعْطَانِيهَا - أَوْ كَمَا قَالَتْ - وَالنَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ : لَكَ كَذَا . وَتَقُولُ : كَلَا وَاللَّهِ أَتَى أَعْطَاهَا - حَسِبْتُ أَنَّهُ قَالَ - عَشْرَةَ أَمْثَالِهِ » . رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ .

خِنَاقٌ عَلَى الدُّنْيَا بَيْنَ مُؤْمِنَةٍ وَمُؤْمِنٍ . مَا كَانَ أَهْوَنَ مَا أَحْوَجَتْ الْفَاقَةَ لِلنِّزَاعِ عَلَيْهِ أَخْرَجَ ابْنُ سَعْدٍ عَنْ أُمِّ دُرَّةٍ خَادِمَةِ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّهَا أَتَتْهَا - لَعَلَّه فِي عَهْدِ عُمَرَ - بِمِائَةِ أَلْفٍ وَهِيَ صَائِمَةٌ ، فَفَرَّقَتْهَا . قَالَتْ أُمُّ دُرَّةٍ : « فَقُلْتُ لَهَا : أَمَا اسْتَطَعْتَ فِيمَا أَنْفَقْتَ أَنْ تَشْتَرِيَ بِدَرَاهِمَ لَحْمًا تَفْطِرِينَ عَلَيْهِ ؟ فَقَالَتْ لَوْ كُنْتُ أَذْكَرْتُنِي لَفَعَلْتُ » . طَرَاظُ آخِرٍ مِنَ التَّرْبِيَةِ ، وَدَرَجَةٌ ، وَعَهْدُ انْبَسْطٍ فِيهِ الدُّنْيَا وَفَاضَتْ بِمِائَةِ آلَافٍ .

وأخرج ابن سعد بسند صحيح أن عمر في خلافته بعث إلى أم المؤمنين سودة رضي الله عنها بغرامة من دراهم (كيس كالذي تخزن فيه الحبوب) . فقالت : ما هذه ؟ قالوا : دراهم . قالت : في غرامة مثل التمر ففرقتها .

وأخرج بن سعد عن برة بنت رافع قالت : « لما خرج العطاء أرسل عمرُ إلى أم المؤمنين زينب رضي الله عنها بالذي لها . فلما أُدخِلَ عليها قالت : غفر الله لعمر غيري من أخواتي كان أقوى على قَسَم هذا مني قالوا : هذا كله لك قالت : سبحان الله » .

قلت : ما أسمى ما ربي الربِّي لم تر المال إلا شيئاً يُقسم على المحتاجين ، لا أفاعي متريصة في الخزائن . قال الراوي : واستترت من المال بشوبٍ ، وقالت : ضعوه واطرحوا عليه ثوبا . قلت : وهل امتثل أحد تحذير رسول الله صلى الله عليه وسلم من الدنيا كما امتثلت أم المؤمنين قال الراوي : ثم قالت لبرة : أدخلي يدك فاقبضي منه قبضة فاذهبي بها إلى بني فلان وبني فلان من أهل رَحِمِها وأيتامها . حتى بقيت منه بقية تحت الثوب .

قال الراوي : فقالت لها برة : غفر الله لك يا أم المؤمنين والله لقد كان لنا في هذا حق قالت : فلكم ما تحت الثوب . قالت : فوجدنا ما تحته خمسة وثمانين درهما . ثم رفعت يدها إلى السماء فقالت : اللهم لا يُدرِكُنِي عطاءُ عمر بعد عامي هذا . فماتت رضي الله عنها وأرضاها .

في الحديث أن المال الذي لا يزكي يأتي صاحبه إلى القبر على صورة شجاع أقرع (ثعبان عظيم) . تستر أم المؤمنين من الثعبان تصديقاُ ودفعت عنها البلاء .

اللهم ارحمنا كما رحمتهم واهدنا كما هديتهم

دروس تربوية

لعلنا وقد عرَّجنا على منعطفات ومستقيمات من حياة الصحابة رضي الله عنهم نقرأ حياة عائشة وأسماء وسائر المجاهدات قراءة جديدة . نقرأهن على أنهن دروس تربوية تطبيقية من هدى الله وهدي المصطفى صلى الله عليه وسلم . دروس تتحدانا وتعلمنا وتقرب إلينا لتتحلى بالروح ونتحلى بالخلق وننبعث بالإرادة في بيئة أخرى أشد تعقيدا وأعظم ابتلاء من بيئتهن .

قص الله عز وجل على المصطفى أحسن القصص من جهاد الرسل قبله وقال له ﴿ أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده ﴾ (١) . ولنحن العصاة التائبون أحوج إلى قدوة من المعصوم صلى الله عليه وسلم . لنحن في غشاة أنفسنا ، ومازق أمتنا ، وخمول إرادتنا ، وفداحة ابتلائنا أحوج إلى مثال قوي ، مثال حي ، مثال منتصر لما جاهد نفسه فطوعها لتسير مجاهدة في سبيل الله . الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم هو القدوة . لكن أين نحن في حضيض تردينا من مقام العصمة هو إمام الصحابة وإمامنا ، لكن بعدت الشقة بنا ، وانحط بنا الزمن ، فقد نُخلد إلى الأرض عجزا ، ونبتطح على بساط القعود بأسا ، لولا وجود خطائين توأمين من قبلنا ، قريبين منا بآدميتهن ، سبقونا بالإيمان فخلداهم الوحي ليكونوا بمن بعدهم سلما للمعالي .

لب الدروس التطبيقية التربوية وخلاصتها وزبدتها هو انتقال أمة الله الصحابية وعبد الله الصحابي من ضلال السعي في الدنيا للدنيا ، ومن إرادة الدنيا للدنيا ، ومن الاستهلاك في الدنيا مع بنات الدنيا وأبناء الدنيا ، إلى السير المهتدي ، إلى إرادة الآخرة إلى إرادة وجه الله عز وجل ، حبا له ، وخشية منه ، وتهمة بلقائه ، واستعداد للعرض عليه بالتوبة والاستغفار والعمل الصالح .

(١) سورة الأنعام الآية : ٩٠ .

تفاصيل الدروس التطبيقية من ماجريات الحياة ، وما ابتلى الله عز وجل به هذه المؤمنة أو تلك ، كيف فعلن كذا ، كيف قاتلن ، كيف أسلمن ، كيف هاجرن ، كيف صبرن ، إنما هي ظرفيات تفضي بنا مطالعتها إلى اللب والمقصود ، فنستيقظ ، ونعمل ، ونسارع ، ونتأسى . وإلا فهي نزهة فكرية على ضفاف نهر الموت .

شاركن الصحابيات رضي الله عنهن مشاركة متميزة في إنشاء خير أمة أخرجت للناس ، واخترن الإسلام باستقلال ، وتحملن الأذى ، وقدمن أول شهيدة - بل أول نفس - هي سُمَيَّة أم عَمَّار بن ياسر رضي الله عنهما . أسلمت أختُ عمر ابن الخطاب قبل عمر بن الخطاب . كان إسلامها وثباتها على دينها ، وصحيفتها التي تقرأ فيها القرآن ، ومعلمها ، وزوجها ، أسبابا لإسلام الجبار - كان في الجاهلية - عمر بن الخطاب .

تحكي أم عبد الله بنت أبي خيثمة أنها كانت تستعد للهجرة إلى الحبشة مع زوجها ، فاعترضها عمر وقال : إنه لَنَظْلَاق يا أم عبد الله قالت بقوة المؤمنة وثقتها وشجاعته وهي تعلم أي جبار تخاطب : « نعم والله لنخرجن في أرض الله . آذيتُمونا وقهرتُمونا حتى يجعل الله مخرجنا » . قال عمر : صَحِّبكم الله عجبتُ الصحابية من لهجةٍ غير مألوفة ، وطمِعت كما تطمع الداعية في كسب رجل مثل عمر إلى الصف .

كانت فاطمة بنت الخطاب أخت عمر قد أسلمت وأخفت إسلامها هي وزوجها سعيد بن زيد . وكان خُباب بن الأَرْت يأتِيهما ليعلمهما القرآن حفية . قال ابن هشام : فخرج عمر يوما متوشحًا سيفه يريد رسول الله صلى الله عليه وسلم ورهطًا من أصحابه قد ذُكروا له أنهم قد اجتمعوا في بيتٍ عند الصفا ، وهم قريب من أربعين ما بين رجال ونساء .

جرُّ خوفٍ وقهرٍ وأذى وترصدٍ وهجرة . كانت المرأة حاضرة أقوى حضور يومئذ . لم تكن حبيسة بيت الجهل والاستقالة من الحياة . كانت المرأة تُمارس السياسة في أكمل مظاهرها ، إذ كانت تناهض الوضع القائم . بل كانت مؤسسة

لمشروع قلب العالم ، كانت روحا من روح التبعية وطاقة من طاقات الجهاد .

وقصة إسلام عمر مبسوبة عند الدارقطني وابن هشام ، حين دخل عمر على أخته ، فبطش بختنه سعيد بن زيد ، وضرب أخته فuschها ، فتحدثه قائلة : نعم قد أسلمنا وآمنا بالله ورسوله ، فاصنع ما بدا لك . ندم عمر لما رأى ما فعل بأخته والدماء تسيل من رأسها . قال ابن هشام : (فارغوى) . واتعظ بصمود امرأة ، وتناول الصحيفة ، وقرأ من سورة طه فهده الله للإسلام .

أسلم عبد الله بن عباس وهو غلام صغير مع أمه قبل إسلام العباس . أم مؤمنة أنقذت ابنها من الكفر في أشد الظروف تعسرا . قال ابن عباس : « كنت أنا وأمّي من المستضعفين : أنا من الولدان . وأمّي من النساء » . رواه البخاري . طفل تبع أمه إلى الهدى ، لم يقعد مع أبيه على دين قومه . درس تربوي لصانعات المستقبل .

أسلمت زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وبقي زوجها أبو العاص بن الربيع مشركا ، فهاجرت وتركته . درس تربوي للمؤمنة لا تقعدها العاطفة عن الحق . أم كلثوم لم يكن لها من قرابة النبي ما كان لزينب ، كان أبوها عقبة بن أبي معيط أشد قريش على المسلمين . أسلمت من دون أهلها جميعا ، وهي عاتق (فتاة يافعة) ، وهاجرت بعد صلح الحديبية مع المتحنتات . المتحنتات مؤمنات هاجرن إلى الله ورسوله ، خارجات من ملة الشرك ، في أحلك الظروف بعد صلح الحديبية . منهن ، كما قال ابن حجر ، أميمة بنت بشر ، وسبيعة بنت الحارث ، وبروّة بنت عقبة ، وعبدّة بنت عبد العزيز . تركن الأزواج والأهل والديار . أية قوة هذه وكانت شروط الحديبية تقضي أن من جاء المسلمين من قريش يرده المسلمون من حيث أتى . وأبطل الله عز وجل الشرط في حق النساء المؤمنات فقال : ﴿ يَأْيِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مِهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيْمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ ﴾ (١) . لذلك سُمّين المتحنتات . وكانت أقواهن فتاة عاتق وابتليت أم سلمة - وهي التي أصبحت من بعد زوجها للنبي صلى الله عليه وسلم بعد

(١) سورة الممتحنة الآية : ١٠ .

موت زوجها الأول - بلاء أعظم . لما أزمع زوجها أبو سلمة الهجرة رحل لها بعيرا وأركبها ووضع ابنها الطفل سلمة في حجرها . فجاءه بنو المغيرة فنزعوا خطام البعير من يده ، وتجادبوا النبي سلمة حتى خعلوا يده وأمه تنظر . وفرقوا بينها وبين ابنها وزوجها . فأمسّت سنةً تبكي حتى رقت لها بعضهم . فهاجرت رضي الله عنها لتستقبل بعد حين حياة السعادة الأبدية مع أمهات المؤمنين . درس في الصبر . للقباضات على الخمر .

وجاءت بشائر نصر الله على يد وفود الأنصار الذين بايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم في العقبة . كانوا ثلاثة وسبعين رجلا وامرأتين هما : أم عمارة نسيبة بنت كعب وأسماء بنت عمرو . أم عمارة وأسماء حضور رمزي للنساء في هذا الموقف الحاسم . لكنه حضور . بايعتا مع الرجال على : « السمع والطاعة في عسرنا ويسرنا ، ومنشطنا ومكرهنا ، وأثرة علينا ، وأن لا ننازع الأمر أهله ، وأن نقول الحق أينما كنا ، لا نخاف في الله لومة لائم » . بايعوه على أن يحاربوا معه الأحمر والأسود ، وأن يحموه مما يحمون منه نساءهم . ووفوا رضي الله عنهم ، وقاتلت أم عمارة بالنبل والسيف . درس في الوفاء .

وأثنى الله عز وجل بالرخاء بعد الشدة ، وأصبح المسلمون الذين كانوا مستضعفين في الأرض يجلسون للتفاوض مع أعدائهم صناديد قريش يوم الحديبية . وكانت أم سلمة يومئذ مات زوجها المهاجر رضي الله عنه وتزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأخرجها معه كما كان يفعل بإحدى نساته في غزواته ، تعينها القرعة . شاركت أم سلمة في الصمود للعدو ، ومخالفة القوم في الدين ، ومفارقة الأهل والديار ، والصبر على البلاء في النفس والزوج والولد . ونقرأ مشاركتها يوم الحديبية بالرأي السديد لتتلقى درسا في غناء المرأة المؤمنة وكفاءتها في المواقف السياسية الحرجة .

روى البخاري عن المسور بن مخرمة ومروان قالوا : « خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم زمن الحديبية (...) فلما فرغ من قضية الكتاب (كتاب شروط

الصلح ومنها أن يرجع فلا يتم العمرة) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه : قوموا فأنحروا ثم احلقوا (وفي ذلك إنهاء للعمرة وتحلل منها قبل أدائها) . قال : فوالله ما قام منهم رجل حتى قال ذلك ثلاث مرات . فلما لم يقيم منهم أحد ، دخل على أم سلمة فذكر لها ما لقي من الناس . فقالت أم سلمة : يا نبي الله أتُحِبُّ ذلك ؟ (تحب أن يفعلوا ما أمرت ؟) أخرج ، ثم لا تكلم أحداً منهم كلمة حتى تنحر بُدْنَكَ ، وتدعو حالك فاحلقك . فخرج فلم يكلم أحداً منهم حتى فعل ذلك : نحر بُدْنَهُ ودعا حلقه فحلقه . فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا ، وجعل بعضهم يحلق بعضا حتى كاد بعضهم يقتل بعضا غمًا . الحديث . غمًا على ما فرط منهم من التباطؤ عن الطاعة ، أم غيظا على الإجحاف في شروط الهدنة ؟

كان الموقف شديدا على المسلمين ، لم يقبلوا شروط الصلح المجحفة ، وهم كان من ورائهم انتصارات بدر والأحزاب وخيبر وسائر المغازي . موقف توقف فيه عمر وعارض ، وحزن المسلمون واغتموا . وأنقذت الموقف امرأة بحسن رأيها وسداد مشورتها . رضي الله عنهم وعنهما .

تَلَقَّينَ التَّريَّةَ الصَّحَابِيَّاتُ ، وشاركن بقوة في حياة النبي صلى الله عليه وسلم . فلما توفاه الله ظهرت ثمرات التربية فيما قرأناه قبل هذا من ترفع أمهات المؤمنات عن زهرة الحياة الدنيا ، وإن كانت عائشة أخطأت في اجتهداها لما خرجت تصلح بين الناس فتأججت الحرب حول جملها ، فإنها وأخواتها أسهمن إسهما ملحوظا في حياة الأمة . هي كانت عالمة المعلمة المفتية ، ومنهن كانت المستشارات والأميرات بالمعروف الناهيات عن المنكر ، والمجاهدات الصامدات في وجه البغاة .

شعرت أمنا حفصة رضي الله عنها وقد طعن أبوها عمر بن الخطاب بمسؤولية عظيمة لما سمعت حيرة الناس وسؤالهم عن المستقبل . روي مسلم عن أخيها ابن عمر قال : « دخلت على حفصة فقالت : أعلمت أن أباك غير مُستخلف ؟ (عزم أن لا يوصي بالخلافة كما فعل أبو بكر) . قال : قلت : ما كان ليفعل قالت : إنه فاعل فحلفت أني أكلمه في ذلك . فسكت حتى غدت ولم أكلمه . قال : فكنت كأئما

أَحْمَلُ بِيَحْمِنِي جَبَلًا . الحديث . وكلم عبد الله بنُ عُمَرُ أمير المؤمنين عمر نتيجةَ اهتمام امرأة وحلفِ امرأة على رجل حملته بحلفها مسؤولية كالجبال .

ولما كان يوم التحكيم بين الإمام على ومعاوية دخل عبد الله بن عمر على أخته حفصة فقال : « قد كان من أمر الناس ما ترين ، فلم يُجْعَلْ لي من الأمر شيء . قالت الْحَقُّ فَإِنَّهُمْ يَنْتَظِرُونَكَ ، وَأَخْشَى أَنْ يَكُونَ فِي احْتِبَاسِكَ عَنْهُمْ فِرْقَةٌ » . رواه مسلم عن ابن عمر . وذهب ابن عمر فحضر أمرَ الناس نتيجةَ تَهْمَمِ امرأة بمصير الأمة ، وسياسة الدولة ، وخشيتهما من الفرقة .

ونقرأ في سيرة سيدتنا أسماء الصديقة رضي الله عنها درساً بليغاً في الرشد والصدق وكمال الزوج وبطولة الأم . هي كانت ذات النطاقين ، حَزَمَتْ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَبِيهَا زَادَهُمَا اسْتِعْدَادًا لِلْهَجْرَةِ . وهي كانت هاجرت وهي حامل . وهي كانت زوج الزبير الكريمة ترعاه وترعى فرسه . فلما كان عهد بنى أمية ، وقام ابنها عبد الله بن الزبير ، وهجم عليه بالمنجنيق الحجاج بن يوسف دخل عليها عبد الله وهي ابنة مائة سنة لم يسْقُطْ لها سن ولم يفقد لها بصر . وكان البطل عبد الله ابن خمس وسبعين سنة ، فأوصته أن يصمد ويقاتل لتَقَرَّ عينها بنصره ، أو يموت كريماً فتحسبته ، ونهته عن قبول الصلح مع العدو .

ويروى مسلم كيف أرسل إليها الحجاج بعد أن قتل ابنها وصلبه ، فأبت ، فأرسل إليها بالتهديد مع من يقول لها : « لَتَأْتِيَنَّيْ أَوْ لَأُبْعَثَنَّ إِلَيْكَ مِنْ يَسْحَبُكَ بِقُرُونِكَ لَمْ تَأْتِهِ فَذَهَبَ إِلَيْهَا وَسَأَلَهَا : كَيْفَ رَأَيْتِي صَنَعْتُ بَعْدَ اللَّهِ قَالَتْ : رَأَيْتُكَ أَفْسَدْتَ عَلَيْهِ دُنْيَاهُ وَأَفْسَدْتَ عَلَيْكَ آخِرَتَكَ (...) . أَمَا إِنْ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَدَّثَنَا أَنْ فِي ثَقِيفٍ (قَبِيلَةُ الْحَجَّاجِ) كَذَابٌ وَمُبِيرٌ . فَأَمَّا الْكَذَابُ فَرَأَيْنَاهُ (هُوَ اخْتَارَ ابْنُ أَبِي عُبَيْدٍ الْمُتَنَبِّئِ) ، وَأَمَّا الْمُبِيرُ (الْفَتَاكُ) فَلَا إِحْثَالَكَ إِلَّا إِيَّاهُ فَقَامَ عَنْهَا الْحَجَّاجُ وَلَمْ يَرَا جَعَهَا » . وكيف تراجع كلمة حق نطقت بها خريجة المدرسة المحمدية

والحمد لله رب العالمين

خاتمة

ختم الله لنا ولكن بالحسنى وزيادة . ولا تنسينا أخواتي من دعائكن ، تدنو الآجال ، وتقطع الأعمال ، ويرجو رهين حبسه ، دفين رمسه ، أن ترد عليه سورة أهدتها إليه قلوب طاهرة يرحمه بها الله ، ويشكر الصنيع لكن الله . لا إله إلا الله محمد رسول الله .

عشنا في فصول هذا الكتاب ذكرى الصحابيات الجليلات نتأمل سيرتهن فنكتشف عالم التقوى الفاعلة . مع حب الله ورسوله ، مع الذكر والخشية والبكاء على الذنب همم عالية وطموح للقرب من الله عز وجل . مع الطموح عمل صالح وجهاد دائب . نكتشف نموذجاً للمرأة المسلمة مناقضاً تمام المناقضة للمرأة (الحرمة) ذلك الكائن الساكن الساكت يمر من الحياة كأن لم يمر منها .

أمامنا نموذج الصحابيات رضي الله عنهن نستلهم منه الإيمان بالله والولاء في الله والجهاد المؤثر في العالم في سبيل الله . ما تنكب الطريق فتشعبت بهن السبل . سبيل الله في حياتهن اقتحام وتشابك مع العالم ، ينهين عن المنكر ويأمرن بالمعروف . ما كان سبيل الله عندهن طريقة هينة خارج التاريخ وعلى هامش المجتمع وفي كِن العُش الخامل .

إرادة الله كانت الباعث ، وخشية الله كانت الرقيب ، وحب الله ورسوله كان سعادة الحياة . إرادة جامعة بانية فاعلة . ونرت والمؤمنات في زمننا وضعاً أثبته ما يكون بوضع الجاهلية الأولى لولا أن في المسلمين والمسلمات لا تزال لا إله إلا الله العاصمة كلمة القلوب إن عطلتها عن العمل في الحكم والمعاملات معضلات الفتنة نرت والمؤمنات تمزقا في جسم الأمة يوازي التمزق القلبي الأول . نرت غشاء في أقصا وطننا فيها الاستعمار فتوطنها ، لا ندرك أنها السجن والهوان .

وجد الإسلام العربَ لا شيء ، وجعل منهم شيئا . وابتعث الله المؤمنين والمؤمنات فحملوا إلى العالم رسالة الله . واليومَ ابتعد العرب والمسلمون عن دينهم فرجعوا إلى لا شيءيتهم . فهم في العالم تُتَفِّ ، هم في العالم طُعْمَة ، هم في العالم صفر ، هم في العالم صحراء من حيثُ الصنائع والعلوم والقوة . هم في العالم كل ذلك - نساؤهم أدنى من ذلك - لأنهم إن عمل أفراد مصلون حاجون مسبحون لآخرتهم فلا جماعة للمسلمين تعمل ، ولا جامعة لهم تتكون ، لينالوا ثواب الدنيا ، والعزة في الدنيا ، والقوة في الدنيا ، ويتأهلوا بذلك لحمل رسالة الله ، فينال المجاهدات والمجاهدون الدرجات عند الله .

ثواب الآخرة الغاية ، والسعادة الأبدية في الجنة . وذلك ترجوه المؤمنة إن تطهرت رغم دَس الناس ، وخشيت ربها رغم فساد الناس . وتَدَنِّي درجتها عند الله أن فاتها الجهاد . هدف الجهاد إعزاز كلمة الله . إعزاز كلمة الله بالتدافع والتشابك والاقترام .

وفي سنة الله أن التدافع والتشابك مع الناس يَفْصِلُ فيه ما أعد الناس من قوة وما فُشِلوا في إعداده . ثواب الدنيا جائزة من يد القدر ، يتحف بها القدر العاملين لا الخاملين .

فإذا كنا في فصول هذا الكتاب نوازن بين التعبئتين والجهاديين : تعبئة الفرد وجهاد النفس ، وتعبئة الأمة وجهاد الأمة ، فلأن الله عز وجل أعد للمحسنات والمحسنين أجرا عظيما ، وأعد سبحانه للمحسنات وللمحسنين فوق ذلك درجات لا تنال إلا بالجهاد ، جهاد تعزُّ به الأمة فتقوى في الأرض على تبليغ كلمة الله .

كان العدو في عهد النبوة والخلافة الراشدة الأولى يحمل على المسلمين أسلحة متكافئة إلى حد بعيد مع ما في أيدي المسلمين من سلاح . كان الجهاد عضلا تدفعه للاقتحام إرادة الله واليوم الآخر ، إن كان العدو تدفعه حمية الجاهلية وعصية القبيلة وأنزل الله عز وجل نصره على عباده المؤمنين لإخلاص الإيمان ، ومع النصر أمر

مستديم بإعداد القوة . لا ينزل نصر الله على أمة ممزقة الأوصال ، عزلاء ، جرداء . والعدو يومنا وغدنا إلى أن يأذن الله بنصر وأسباب نصر ، يغزونا على كل الواجهات ، بأسلحة غير ما عهدته البشر في تاريخ البشر . أسلحة تدمر الجسوم ، وتخرب الديار ، وتمتطي إلينا الجو ، وترقُبنا من الفضاء ، وتعاقب علينا جواسيسها الكوكبية آناء الليل وأطراف النهار . ما معنا من ذلكُنَّ شيء إلا (خردات) من فولاذ يقتنيها العرب - الحكام على العرب - بأموال المسلمين يرصدها بعضهم لبعض ، ليحافظ بعضهم على استمرار سيادة العشيرة ، وليغزو بعضهم بعضاً لتسمو عشيرة قومية على قبيلة . ما معنا من أسلحة المادة والصناعة شيء . فالتعبئة البعيدة المدى تبدأ منكن أمهات الأجيال ، صانعات الغد : ولَدَّ عملٌ صالحٌ ، وتربية ، ومدرسة تحضنها الأمهات .

ذلك الجسم . في المتناول كسبه بإذن الله كما كسبته الأمم قبلنا وتكسب أمام أعيننا الذاهلة . ثم لا نكون نحن خير أمة إن استأنسنا العلوم والصنائع وطورنا أسلحة الفضاء وأضعنا الروح ، وفقدنا الروح ، وتقمصتنا من الجاهلية المعاصرة روح .

ترحف إلينا روح الجاهلية المعاصرة ، ويغزونا فكرها ، ويخرب ديار كوننا فلسفاتنا ، وتعدو علينا ثقافتها الداعرة بالخيال والرجل . فكما بسطنا من قبل نماذج المنعة الإيمانية ، ونماذج المستعليات بإيمان ، المبشرات برسالة ، المبلغات لكلمة ، نريد أن نلّم بنماذج الكفر ، أستاذات الانحطاط ، زعيمات (تحرير المرأة) .

أقرأ في دائرة المعارف الفرنسية (أونفر ساليس) أسماء زعيمات غريبات تألقن في سماء الشهرة النضالية النسوية ، ثم انخسفن وانكسفن وانتحرن لتبقى ذكراهن نبراسا في أفق المارقات المنحلات من بني جلدتنا كما تشع في أفق المومنات شمس الكاملات مريم وآسية وخديجة وفاطمة وعائشة وأسماء وحفصة وزينب وأم عمار وأم سليم .

زعيمات النضال النسوي يُسْن من العثور على أنوثتهن في طريق غير طريق الأمومة التي يفرضها عليهن المجتمع كما يزعمن فانتحرن . زعيمات أدبيات كاتبات شواعر تمردن على الفطرة بعد أن تمردن على الله عز وجل الفاطر ، فجئن بعضهن وانتحرن ، وانتحر بعضهن بذهن حاضر ، وكفى بذلك جنونا .

فرجنياً ولَّف الكاتبة المجنونة الزعيمة أغرقت نفسها في النهر قُرب بيتها سنة ١٩٤١ بتاريخ النصارى . سلفياً ثلاثُ الشاعرة انتحرت سنة ١٩٦٣ . صوفي بودُلْسكي وأنا كفَّان انتحرتا . وانتحرت دانييل كُولُوْبِر . أُونيكا زُورِن الرسامة والكاتبة البارعة أدخلوها مستشفى المجانين مرات ، وانتحرت سنة ١٩٧٠ .

قالت الكاتبة الباحثة في دائرة المعارف بُرْجِت لُوْكار : كل هؤلاء النسوة جربن في أجسادهن المرض والآلم الذي جعله المجتمع من خصوصيات المرأة منذ قال الكتاب المقدس : ستضعين في الآلم . قالت : (عن هذا التمزق الجسمي النفسي ما انفكت كتابات هؤلاء النسوة تتحدث) .

قلت : الحمل عندهن مرض وعاهة ومصيبة أثقل بها المجتمع كاهل المرأة . فهي ترفضُ هذه العبودية للمجتمع ، وتمرد عليها . وهي تدين بدين الزعيمة الفرنسية الكاتبة الفيلسوفة صاحبة سارتر الوجودى معلمة الحنا والزنى . قالت سيمون دُوبُوار : (إن المرأة لا تولد امرأة ، وإنما المجتمع يصيرها امرأة) . فلسفة رافضة تعارض (الطبيعة) (بالثقافة) .

هروب من الأمومة ، وتنكر للفطرة ، وجبن أمام ألم المخاض وأعباء الحمل . غدا القريب ، وقد بدأ بالفعل هذا الغد ، يُهاجر الغشاء الأثنى ليحمل أطفال من تشتهي الولد من بنات الغرب ، كما يهاجر الغشاء الذكر ليجمع القمامة ويشغَل الآلات الثقيلة ويحفِر الفحم في أعماق الأرض .

إماء الله نكون وعبادَهُ ، أو هي الحضارة العملاقة تستعبدنا ، بل تزيدنا إهانة على إهانة . عرض القرآن الكريم آياتٍ ، وعرضت السنة عملاً ونموذجاً ، الإسلام في

مقابلة واشتباك وعراك مع معتقدات المشركين . الإسلام روح من عند الله ، إيمان بالله لا يتساكن إيمان وكفر . فمن تحرير أنفسنا وعقولنا نبدأ . يتوقف نجاح المؤمنات في جهاد التحرير على قوة إيمانهن أولاً ، ثم على قوة تكتلهن ومساندتهن للجهاد الشامل تقتحم عقباته المؤمنات ويقتحمها المؤمنون ليفرضوا وجودهم في كل ميدان . تنظم المؤمنات أنفسهن ، قيادتهن منهن ، مبادرتهن منهن . والشورى جامعة .

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجبهن السياسي ، والتعبير على المدى الأبعد وتعبئة الأمة وصناعة المستقبل واجبهن المصيري . تكتلهن واجب حول زعامات منهن تناهض زعامة المنتحرات . إزاحة الباطل من مواقعه قديماً قديماً ، ثم بناء الحق لبنة لبنة . صبرٌ وجلدٌ وتحملٌ وطولُ نفس . ويرفق مع ذلك لا عنف . آن أن توقظ المؤمنات بنات جنسهن ليقدن جهادا مختلف الأشكال ، متنوع الوجوه ، شاملا لكل مرافق الحياة . جهاد تعليم ، وتثريب ، وتوعية ، ومحور للآمية العقلية والسياسية .

جهاد لمقاومة غطرسة الرجل الذي يتذرع بالإسلام وشريعته ليظلم المرأة . جهاد لكيلا يمارس الرجل قوامته ممارسة لثيمة يقاوض بالنفقة عبودية المرأة له وعبادتها إياه . جهاد كسب القوات ما دام المجتمع فقيرا لا يستطيع كفالة الأمهات ، وما دام المجتمع لا يعطي التربية المقام الأول ليأجر الأم المربية (منتجة) الإنسان أفضل ما يأجر العاملين .

جهاد سياسي واع بأوضاع الزمن . تفتن المستضعفون إلى أن أهم ما تفوق به المستكبرون في الأرض استقرار الحكم على قاعدة الديمقراطية . فصيحة العصر ديمقراطية . وجواب الإسلام ترحيب ديمقراطية تخنق الاستبداد ، ثم لن تأتي انتخابات حرة في بلد المسلمين إلا بمسلمين . وللإسلام منطقته المتسلسل إلى شورى وعدل وإحسان ومعروف يطيح بالمنكر .

يُزور أعداء الإسلام الانتخابات كما فعلوا هنا وهناك ، ويوقفونها كما فعلوا في الجزائر إلى أن يشتد ساعد الحركة الإسلامية ويلتف الشعب حول قيادته المؤمنة ، ويومئذ يكون عصيان من عصى الله نعشاً يقبر فيه الباطل وأهل الباطل لتنبت نابتة

الإسلام تحت شمس الإسلام . ومثال إخواننا الشيعة في إيران طريق لاجبة .

تساهم المؤنمات في تنحية أنقاض ماضي الفتنة ونواقض حاضرها ، لنبني على الأصول مجتمع العدل ، وعمران الأخوة ، وكيان القوة والكفاية . ولنتوحد بعد ذلك على فقه بالأهداف البعيدة والإمكانات الحالية .

نتوحد لنقوى على حمل رسالة الله للعالمين . يَحْمِلُ الحِمَارُ أَسْفَاراً لا يفقه ما الكتاب . وَيُحْمِلُنَا اللهُ عز وجل رسالة نسيناها فنسيناه فأنسانا أنفسنا .

نعوذ بجلاله أن نجهل أو يجهل علينا . ونلوذ بحماه أن تَخْطِفَنَا طَيْرُ الْهَوَى أو تهوِي بنا ريح الجاهلية . آمَنت بالله لا إله إلا الله محمد رسول الله . سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر . ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم . اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد كما صليت على سيدنا إبراهيم وعلى آل سيدنا إبراهيم وبارك على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد كما باركت على سيدنا إبراهيم وعلى آل سيدنا إبراهيم في العالمين إنك حميد مجيد .

و آخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

خطبة الكتاب

*** الفصل الأول**

- المؤمنات وطلب الكمال القلبي والعلمي

7 حب الله ورسوله

13 محبة آل والصحب

19 صحبة من صحب ومحبة من أحب

25 مثل المؤمنين في توادهم وتعارفهم وقربهم من الله

31 الفقه المغيب

37 الصبر مع الجماعة

43 إكرام المسلمين وصحبة الشعب

49 الكمال الخلقى

55 الإحسان إلى الخلق

61 الكمال العلمي

*** الفصل الثاني**

المؤمنة في بيتها وحجابها

69 . . ليسكن إليها

75 لا تخرجوهن من بيوتهن

81 حضرة الحافظة

86 « ولا تقربوا الزنى »

92 شغل بلا عظمة

98 هوس الاختلاط

104 روح المسجد

110 الحجاب إذن ورمز

116 آداب اللقاء

122 خدمة البيت

*** الفصل الثالث**

- المؤمنة زوجا وأما

131 سمع الله قولها

137 الميثاق الغليظ

143 اختيار الزوج

149 زواج عقل أو زواج حب

155 خاتم من حديد

161 مدائن من شعير

- 167 تعدد الزوجات
173 القوامة والوصية
179 الرجل الخشن
185 « الجنة عند رجلها »

* الفصل الرابع

— الأمهات المؤمنات صانعات المستقبل

- 193 الولد الصالح
199 البناء من أعلى أو من الأساس ؟ على أى أساس ؟
205 صراع الأجيال
211 البرج الاستراتيجى
217 تربية مستقبلية
223 تربية علمية
229 تربية قرآنية
235 تربية خلق جديد
241 تربية حكيمة
247 تربية واقية

* الفصل الخامس

— حظ المؤمنات من الجهاد تعبئة أمة

- 255 خير نساء طلعت عليهن الشمس
261 مجاهدات
267 راعية ومسؤولة
273 جدال فقهي
279 « أطوع الناس فى الناس »
285 بنو آدم الخطاؤون التوابون
291 « دعوا لى أصحابى »
298 خشية الله ومحبة رسول الله
304 بسط الدنيا
310 دروس تربية
316 * خاتمة
323 الفهرس

نَوْبَرُ الْمُؤْمِنَاتِ

جلاء غمّ سام ، ونویراً لعقبات الاقتحام ، ودليلاً
لمن يطمح إلى ذروة السّنام ، لا ترضى همّت أن تركع
مع السّائمة في سفوح الانهزام والاسّيسّلام .
وسّعادة هذا الكتاب أن يوقظ الواسين ويحرك
السّاكن لتتمسك المؤمنة القارئة والمؤمن الباحث بنلايب نفسه وهواه .